نجوم على الطريق

٢٥ قصة لشخصيات عظام في تاريخنا الإسلامي المعاصر



د.ليلى حمدان

أمّة بوست
صناعة الوعي

نجوم على الطريق

٢٥ قصة لشخصيات عظام في تاريخنا الإسلامي المعاصر

د. ليلى حمدان

هذا الكتاب من إنتاج ورعاية





د. ليلى حمدان

كاتبة فلسطينية، نشأت وترعرعت في ديار الهجرة بين بلاد العرب والغرب، حاصلة على درجة الماجســتير في الطب لكن هذا لم يمنعها من الانشــغال بطلب العلم الشــرعي والدعوة والأدب والإعلام والكتابة في قضايا الأمة المسلمة.

عملت في مجال الدعوة في الغرب وكان لها نشـاط في إلقاء المحاضـرات في المسـاجد وتعليم أبناء الجالية المسلمة أصول دينهم وعقيدتهم وكذا لغتهم العربية.

عملت في مجال الدعوة على الإنترنت للإشــراف والعضــوية في منتديات لطلب العلم والدعوة. وحاصــلة على دورات في التســويق والتحرير الصــحفي وكذا التصــميم الدعائي... حاليًا كاتبة في موقع أمة بوست.





فهرس

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال عز وجل: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ (٢١) الإسراء.

وقال سبحانه: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٢٦٩) البقرة.

وقال أيضًا: ﴿لِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ، أَيْنَ ما تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً، إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١٤٨) البقرة.

بسم اللّه والحمد لله والصلاة والسلام على رسول اللّه وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد. فلكل عصرٍ أعلامٌ ورجالاتٌ. قاموا لهذا الدين ولهذه الأمة، حملوا على كاهلهم أمانة التبليغ والعلم والعمل، لم تشغَلْهم أضواء الشهرة بل شغلهم العطاء والمسابَقة بصدقٍ حتى نُقِشت أسماؤهم مشرَّفةً في قائمة أعلام زمانهم.

وحتى في أحلك الحقب وأظلم المراحل التي مرَّتْ بها الأمة الإسلامية، كان لابد لنجمٍ أن يبزغ وقمر أن ينير و شمس أن تشرق لتتأكد قاعدةٌ متوارَثةٌ، هي أن هذه الأمة ولودٌ، وأن العبقرية متجذرةٌ في القلوب المؤمنة المبصرة، التي حملت مشعل التميّز والنفع للناس.

وكما تزدان صفحات تاريخ الأمة على مر الأزمنة بأعلامٍ أناروا لنا حضارتنا ورفعوا لواء قيمنا وتضحياتنا وإنجازاتنا عاليًا تغبِطُنا عليه الأمم بل تحسدنا، تتزين صفحات عصرنا

منذ سقوط الدولة العثمانية إلى اليوم، بأعلامٍ حُقَّ لنا أن نفخر بهم ونثمن عطاءهم ونتوارث ولو جزءًا بسيطًا من جهادهم بذكر سِيَرهم وتذاكر إنجازاتهم والتبصر في أسباب نجاحاتهم.

وإن كانت فكرة جمع سِيَر أعلام المسلمين قد سبقَنا بها الأولون، وبرع فيها السابقون، إلا أننا نجمع هنا بطريقةٍ مختصرة سِيَر أشهر أعلام هذا العصر، لتكون تأريخًا وتوثيقًا مختصرًا ينفع الساعين للنجاح والعاملين على نهضة أمة الإسلام، وكذا باب إلهامٍ وربما حلٍّ! لمن أضناه ظلام ليالينا وطول محنة أمانينا، فأراد أن ينظر لأولئك الذين سطَّروا السير الشامخة في زمن التراجع والاستضعاف وأراد أن ينظر للجانب المشرق في عصرنا المليء بقصص الفشل والخيانة والقهر.

فيُلهِمَ روحه ويشحذ همته ويقدم على خطِّ سيرةٍ ذاتيةٍ لنفسه بساعد الجد والعمل وحبر التفاني في البذل فتخرج ببهجةٍ لا تقل تميزًا عن سِيَر من قرأ. أو أضعف الإيمان أن يستنبط أسباب النجاح وركائز الثبات ومعالم التميّز فيستعين بها في مسيرته واضعًا نصب عينيه هذه النماذج البشرية المسلمة التي تخطئ وتصيب وتصحح وتسابِق، فيقتدي بإحسانها ويتعلم من تجاربها.

أرجو أن أكون وُفِّقتُ في إعطاء كل ذي حق حقه وكذا استوفيت أهم سِيَر الأعلام المعاصرة، ورُبَّ سيرةٍ قدوةٌ وربَّ قدوةٍ حلٌّ وربَّ حلٍّ فرجٌ!

د. ليلى حمدان

٢٠١٧ م



عمر المختار

"إننا نقاتل من أجل ديننا وحريتنا حتى نطرد الغزاة أو نموت... وليس لنا أن نختار دون هذا."

الشيخ عمر المختار

عرفته الصحراء والبيداء والجبال والهضاب، اشتهرت سيرته بين الأجيال وصار مضربًا للأمثال، ما إن تشتعل ثورةٌ حتى يُردَّد اسمُه قدوةً، وما إن يُذكَر الإباء حتى يكون به اقتداءً! إنه أسد الصحراء وشيخ المجاهدين عمر المختار، مَنْ لقن الإيطاليين دروسًا مؤلمةً حفرتْ في ذاكرتهم إلى اليوم كيف يتحدى المسلم المجاهد كل عدوانٍ وظلم.

نشأته

وُلِد عمر المختار عام ١٨٦٢ في جنزور شرق مدينة برقة الواقعة في شرق ليبيا، ونشأ على آيِ القرآن الكريم في بيئةٍ اجتماعيةٍ بسيطةٍ لم تتلوث بحب المادة والسعي خلف ملذات الدنيا. فقد كانت حياة كفافٍ ورضًا بما قسمه الله لهم. كما أنه تربى يتيمًا، بعد أن وافت المنية والده مختار بن عمر وهو في طريقه إلى مكة المكرمة بصحبة زوجته عائشة بنت محارِب وهي والدة عمر.

ينتمي الشيخُ عمر لقبيلة منفة، تزوج ورُزِق أولادًا، وقد كان لزوجته دورٌ رائع في شد أزره خلال مسيرته، تعكسه كلماتها الرائعة التي كانت تقولها لزوجها في كل مرة يريد الدخول إلى الخيمة، فقد كانت ترفع له باب الخيمة، وحين يسألها لماذا تفعل ذلك في كل مرة، ويكفيه أن ينحني ويدخل، فتقول ببصيرة المعتزة بدينها، حتى لا تضطر لأن تنحني إلا لله.

فترة شبابه وصباه

بدأت خطوات عمر الصبي تعتاد الذهاب والإياب من زاوية جنزور لتلَقِّي العلم والانطلاق في مسيرة تحصيله، ثم رحل لمزيدٍ من التعليم إلى الجغبوب فمكث فيها ثمانيةَ أعوامٍ

نهل فيها من معين كبار علماء ومشايخ السنوسية كان أشهرهم الشيخ المهدي السنوسي قطب الحركة السنوسية، وهناك درس اللغة العربية والعلوم الشرعية وحفِظَ القرآن الكريم عن ظهر قلب، فضلًا عن مسائل العقيدة ولكنه لم يُتِمَّ تعليمه كما كان يرجو.

جذب عمر أنظار أستاذه الشيخ المهدي السنوسي حين لمح فيه النجابة ورزانة العقل، فكان ذلك سببًا في حديث الشيوخ والعلماء ورؤوس القبائل وأعيانهم عنه، وقد و صفه الشيخ المهدي قائلًا:

"لو كان عندنا عشرةٌ مثل عمر المختار لاكتفينا بهم".

وهكذا و صفه كل من عرفه عن قرب، فقد جذب الناس بما وهبه الله من جشاشة صوته البدوي وطلاقة لسانه الداعي وبلاغة خطابته الساحرة، فكان أن ذاع صيتُه والتف حوله جموع المسلمين ولاقى قبول العامة في كل مكان.

ارتباط شخصيته بالجهاد

نَمَتْ مع عمر الغيرةُ على الإسلام وحرمات الدين والعِرض والأرض، لهذا كان من أول المشاركين في الحرب ضد الفرنسيين في المنطقة الممتدة في السودان الغربي وتشاد والتي كانت وقتذاك تُعَدُّ من مناطق ليبيا الجنوبية.

ولأن عَلَمنا كان يتميز بشخصيةٍ إسلاميةٍ قويةٍ قيادية، فقد نجح في جمع القبائل الليبية المتفرقة تحت قيادةٍ واحدة، استجابةً لأمر الله بالاعتصام ووحدة الصف كالبنيان المرصوص لتحقيق أسباب النصر، وقد قاومت عام ١٩١١ هذه القبائل مجتمعةً على قلب رجلٍ واحدٍ الغزو الإيطالي لليبيا الذي كان يُسمى بالحرب العثمانية الإيطالية.

وخلال هذه الحقبة من النضــال اســتقر فارســنا عمر مدةً من الزمن في قرو يقاتل في سبيل الله، ثم رابَطَ كشيخ لزاوية عين كلك ليستثمر وقته في التعليم والدعوة للإسلام في بقعةٍ بعيدةٍ من الأرض، فترك له الأثر الطيب.

لا يمكن أن نفتح صــفحات تاريخ ليبيا وجهادها ولا نذكر بطلها بلا منازع عمر المختار، لقد عاش عمر حرب التحرير والجهاد منذ بزوغ شمسها يومًا بيوم.

ويظهر ذلك من خلال اســتجابته الســريعة للجهاد فور أن أعلنت إيطاليا الحرب على تركيا في ٢٩ ســبتمبر ١٩١١م، وبعد أن بدأت البارجات الحربية ترمي بحمم القذائف على المدن الليبية الســاحلية كدرنة وطرابلس، وكذا طبرق وبنغازي والخمس، انطلق عمر من جــالو التي كــان يقيم فيهــا، ليتوجــه إلى مراكز تجمع المجــاهــدين وليكون لــه يــدٌ في تأسيس بنيانه وتنظيم حركة الجهاد إلى أن وصل السيد أحمد الشريف.

ومع انسحاب الأتراك من ليبيا سنة ١٩١٢م بلغت المعارك أَوْجها وسجل التاريخ استبسالًا وإقبالًا مشهودًا، كان منها واقعةُ يوم الجمعة عند درنة في ١٦ مايو ١٩١٣م إذ قتل عشرةُ ضــباطٍ وســتون جنديًا وأربعُمئة فردٍ بين جريحٍ ومفقود في الجانب الإيطالي انتهت بانســحابهم فرارًا من قســورة، تاركين خلفهم أســلحتهم ومُؤَنهم وذخائرهم للنجاة بأنفسهم بطريقةٍ عشوائيةٍ تعكس درجة الرعب الذي عاشوه في المعركة.

وتفاجأ الإيطاليون بضراوة القتال وصرامة المجاهدين في التصدي لقواتهم، وتكرر ذلك المشــهد الرائع في الإقبال على الموت بكل يقينٍ في الحياة، في عددٍ من المعارك منها معاركُ أم شــخنب، وشــليظيمة، والزويتينة، في فبراير ١٩١٤م، ووصــل جهاد ليبيا لدرجةٍ رهيبة من النجاح والتنظيم والظَّفَر والانتصــار، حتى طرق أبواب مرحلةٍ جديدةٍ مع اندلاع الحرب العالمية الأولى.

كانت الأحداث تتسارع وصفحات الأحداث تتدافع، وكان عمر يرقُبُ كل هذا بقلبٍ نابضٍ يدرك حجم المسؤولية الملقاة على عاتقه وعاتق كل مسلمٍ يرجو رحمة ربه ونصرة دينه وتحرر بلاده، وكأنه يستعد لأول فرصةٍ يفرّغ فيها هذا الشوق لخدمة دينه ووطنه، وآن أوان هذه الفرصة بعد الانقلاب الفاشي في إيطاليا في أكتوبر ١٩٢٢، ورحيل السيد محمد إدريس السنوسي من ليبيا تحت ضغوطٍ كثيرة، بعد أن عهد بالأعمال العسكرية والسياسية إلى عمر المختار بينما كلف أخاه الرضا الإشراف على الشؤون الدينية.

المُختار قائدًا لحركة الجهاد

هنا جاء دور العبقرية لتظهر في أروع صور البذل والتخطيط والصبر والشجاعة، وكانت انطلاقة عمر بالتفرس في مشهد الصراع، وقد وصل إلى درجة اليقين بشأن النوايا الخبيثة التي كان يحملها الإيطاليون بعدوانهم، فقصد مصر عام ١٩٢٣م والتقى السيد إدريس وتشاور معه في الأحداث الجارية، وما إن عاد حتى شرع في تنظيم القوات، وتوزيع الأدوار وتنظيم المجاهدين، فجعل حسين الجويفي على دور البراعصة ويوسف بورحيل المسماري على دور العبيدات والفضيل بوعمر على دور الحاسة، وقام هو على دفة القيادة العامة.

وقف فارسنا يترصد حركات العدو الذي ما إن غزا المقر القيادي لليبيا، مدينة إجدابيا حتى أصبحت كل المواثيق والمعاهدات بين الطرفين ملغاةً، وكان على المجاهدين الانسحابُ بينما انطلقت إيطاليا تزحف بجيوشها من عددٍ من الاتجاهات نحو الجبل الأخضر.

كان الموقف متأزمًا ويحتاج لحنكةٍ قياديةٍ وكانت جموع المجاهدين تثق في عمر المختار، فما إن شاهدت تقدم الجيوش الإيطالية حتى هبَّت للانضواء تحت قيادته. بينما استجاب الشعب الليبي الواعي بإمداد المجاهدين بالمؤن والعتاد والسلاح وأنواع التسهيلات كلها لحركتهم.

فكان هذا المشهد من التكاتف والتلاحم بين المجاهدين والشعب الليبي سببًا في تعطيل عجلة تقدم الجيوش الإيطالية، التي ضاقت ذرعًا من الهزائم المتوالية على أيدي المجاهدين، ففكروا في قطع الإمداد عليهم فتراءت لهم الجغبوب كمنطقةٍ استراتيجية تحقق لهم مبتغاهم، فما لبثوا أن وجهوا إليها حملةً كبيرة في ٨ فبراير ١٩٢٦م، وسقطت المدينة بالفعل في أيديهم، الأمر الذي كان عاقبته سيئةً على صفوف المجاهدين، لكنه لم يُثنِ عزم عمر المختار القائد الصلب، بل ثبَتَ وثبَّتَ جنوده وسقى هممهم من معين التحريض وحب الجهاد حتى لا يَهِنوا ولا يحزنوا وهم الأعلَون المؤمنون.

واستمرت عيون الإيطاليين تدلهم على المواقع الاستراتيجية التي إن سقطت في أيديهم شددوا من الطوق على المجاهدين وسببوا الشلل في حركتهم وكانت المحطة الثانية، منطقة فزان التي وُجِّهت إليها حملةٌ في يناير ١٩٢٨م، لكنها فشلت في احتلال فزان بل دفعت الثمن باهظًا بسبب المقاومة الشديدة. الأمر الذي شد من عزم المجاهدين رغم ما كانوا يعانونه من انحسار المدد ونقص المؤونة، فكان أن سطَّروا البطولات والملاحم كما تشهد بذلك معركةُ يوم ٢٢ أبريل التي استمرت يومين كاملين، والتي انتهت بانتصارٍ عظيم وغنائمَ كثيرة.

فطنته لما وراء سياسة المفاوضات

أمام هذه القيادة الفذة وأمام هذا العزم اللامنتهي، وأمام هذه الانتصارات المتوالية وقفت إيطاليا عاجزةً عن تحقيق أيٍّ نصرٍ استراتيجيٍّ يغير من المعادلة على الأرض، ففكرَتْ مليًا في طريقة تُكسبها بعض الأهداف المرجوة من حملاتها، فأمر موسوليني بتغيير القيادة العسكرية، ليصبح بادوليو حاكمًا عسكريًا على ليبيا في يناير ١٩٢٩م، والذي ظهر بوجهٍ مختلفٍ عن سابقه، فقد لبس لبوس السياسة وأقنع الليبيين برغبته الجادة في السلام، كل هذا ليكسب الوقت في تنفيذ خطته وتحقيق أهدافه، فكان أول ما طلبه هو المفاوضات مع القائد المُصابِر عمر المختار، وبالفعل استجاب المجاهدون لطلبه وانطلقت المفاوضات في ٢٠ أبريل ١٩٢٩م.

ولكن خلال المفاوضات تفاجأ عمر بعدم جدية الوفد الإيطالي الذي كان يرأسه بادوليو بنفسه وهو الرجل الثاني بعد بنيتو موسوليني، وكان معه نائبه سيشليانو، الذين التقوا وفد عمر المختار في ١٩ يونيو١٩٢٩م في سيدي ارحومة.

وعرض الوفد الإيطالي على عمر خياراتٍ من الوا ضح أنها للمماطلة وكسب الوقت، فقد طلبوا منه إما مغادرة البلاد إلى الحجاز أو مصر أو البقاء في برقة بشرط إنهاء الجهاد والذي لا يخرج عن نطاق الاستسلام مقابل الأموال الجزيلة والإغراءات الكبيرة، فماذا كان ينتظر الإيطاليون من رجلٍ باع نفسه لله وخرج جهادًا في سبيل الله-نحسبه-! إلا رفضَ كل تلك العروض الهشة، بل أعلنها مدويةً، لن نتوقف عن مواصلة الجهاد حتى ننال إحدى الحُسنيين: نصرٍ أو شهادة. ولم يكتفِ عمر القائد النبيه بتنبيه جنوده لألاعيب الغزاة الإيطاليين بل وجه نداءً إلى الشعب الليبي في ٢٠ أكتوبر ١٩٢٩م يحذرهم من الانجرار خلف أوهام العدو ويطالبهم باليقظة التامة وأخذِ حذرهم وحفظ صفوفهم.

فما كان إلا ما توقعه عمرُ المختار، ولم يستمرَّ صبرُ الإيطاليين كثيرًا حتى انتشرت طائراتهم الجبانة في السماء في ١٦ يناير ١٩٣٠م لتُلقيَ بحمم قذائفها على جموع المجاهدين. لكن هذا الجُبن وهذا الخداع والغدر لم يكن ليُثنيَ القائد عمرَ عن مسيرته بل جمعَ الصفوف وحرض الجموع ووجه القوى بنظام، وهذا ما صعب مهمة إيطاليا كثيرًا، ودفعها إلى تغيير القيادة العسكرية، فكان وصول القائد الجديد غرسياني السفاح الذي يُعرَف بوحشيته ودمويته. وكانت مهمته إبادة المجاهدين ووضع حدٍّ نهائيّ لمقاومتهم.

برقة المُهَدَّأة

وما إن استلم دفة القيادة حتى شرع غرسياني في خطواته الماكرة لحصار المجاهدين وقد لخصها في كتابه بعنوان "برقة المُهَدَّأة" قائلًا:

١- قفل الحدود الليبية المصرية بالأسلاك الشائكة لمنع وصول المؤن والذخائر.
٢- إنشاء المحكمة الطارئة في أبريل ١٩٣٠م.
٣- فتح أبواب السجون في كل مدينةٍ وقريةٍ ونصب المشانق في كل جهة.
٤- تخصيص مواقع العقيلة والبريقة من صحراء غرب برقة البيضاء والمقرون وسلوق من أواسط برقة الحمراء لتكون مواقع الاعتقال والنفي والتشريد.
٥- العمل على حصار المجاهدين في الجبل الأخضر واحتلال الكُفْرة".

تمكنت أخيرًا القوات الإيطالية من التقدم في فزان واحتلال مرزق وغات في فبراير ١٩٣٠م، أعقبها عمليةُ قصفٍ بلا رحمة نفذته الطائرات الإيطالية التي ألقت بنصف طنٍّ من القنابل على الجوف والتاج، ولتنطلق في نوفمبر الحملة من إجدابيا إلى جالو إلى

بئر زيغن إلى الجوف. ولتســقُطَ الكُفْرةُ تلك المنطقةُ الحيويةُ للحركة الجهادية في ٢٨ يناير ١٩٣١م وهذا ما كان له بالغ الأثر في جانب المجاهدين.

ومع كل خطوةٍ في هذا التقدم المســعور من الجيوش الإيطالية جوًا وبرًا، كانت أعينهم تبحث عن أي دليل يقودهم إلى القائد الملهَم عمر المختار، وشــاء الله أن تســقط من فارســنا نظارته، وأن يعثر عليها أحد الجنود الإيطاليين ليســلمها بعد ذلك لقيادته، فعلق عليها غرسياني قائلًا:

"الآن أصبحت لدينا النظارة، وسيتبعها الرأس يومًا ما".

وقوعه في الأَسر

لقد كانت الأوضــاع الميدانية خطيرةً للغاية، ورغم معرفة عمر المختار بتلهف الأعداء وتربصهم بكل ما يتحرك حوله للوصول إليه، خرج القائد الشجاع في ١١ سبتمبر من عام ١٩٣١م، يســتطلع منطقة اســلنطة مع كوكبةٍ من فرســانه، وســرعان ما وصــل الخبر للحاميات الإيطالية التي ما لبثت أن أرسلت القوات المدججة بأنواع الأسلحة لحصاره مســنودةً بتعزيزاتٍ لا تُحصــى، فكانت لحظة المواجهة الحاســمة، وتقاتلَ الفريقان في وادي بوطاقة، ولأن قوة العدو كانت كبيرة، اضــطر عمر أن يأمر جنده بفك الطوق والتفرق.

وفي تلك الأثناء استُهدِفتْ فرسُه فسقطت صريعةً من تحته، ووقع ثقلها على يده التي شُلَّتْ تمامًا بسبب وَقْع الصدمة وثقل الفرس، فوجد نفسه عاجزًا عن تخليص نفسه من هذا الوضــع وغير قادر على التقاط بندقيته ليذود عن نفســه، وكانت أقدام الإيطاليين المجرمين تقترب منه رويدًا رويدًا لتحاصــره من كل الجهات، وبالفعل أُلقِي القبض عليه ليُنقَل من فوره إلى مرســى ســوســة ومن ثم إلى بنغازي فأُودِع الســجنَ الكبير بمنطقة

سيدي اخريبيش. وكانت هذه الطريقة الأسلم في نظر الإيطاليين لضمان نجاح نقل القائد عمر خشيةَ أن ينتقم له جنوده ويقطعوا عليهم طريق البر لتخليصه.

لا شك أن الحادث كان عظيمًا، ووَقْعَه مُزلزِلًا، في صفوف الليبيين والإيطاليين على حدٍّ سواء، فقد أُسِر الأسدُ والقائد والشيخ الجَسور، مَنِ استعصى سنينًا على الجيوش الغازية، بل حتى غرسياني لم يصدّق ذلك في بادئ الأمر، وهو الذي كان غارقًا في قاع الضيق والانزعاج والحزن كونَ الأقلام الإيطالية تفرغت لنقده والسخرية منه ووصمه بالفشل لتأخره في إحراز أي تقدمٍ ملموس ضد المجاهدين. ورجع غرسياني بسرعة إلى بنغازي يوم ١٤ سبتمبر، ليعلن تاريخ ١٥ سبتمبر ١٩٣١م موعدًا لــــ "المحاكمة الخاصة" للبطل الأسير.

أسد رغم الأَسر

ولكنه قبيل المحاكمة كانت لديه رغبةٌ جامحةٌ لمقابلة عمر المختار الأسير وقد وصف ذلك اللقاء في كتابه برقة المُهدَّأة قائلًا:

"وعندما حضر أمام مكتبي تهيأ لي أن أرى فيه شخصية آلاف المرابطين الذين التقيت بهم أثناء قيامي بالحروب الصحراوية. يداه مكبلتان بالسلاسل، رغم الكسور والجروح التي أصيب بها أثناء المعركة، وكان وجهه مضغوطًا لأنه كان مغطّيًا رأسه (بالجرد) ويجر نفسه بصعوبة نظرًا لتعبه في أثناء السفر بالبحر، وبالإجمال يُخيَّل لي أن الذي يقف أمامي رجلٌ ليس كالرجال له منظرُه وهيبتُه رغم أنه يشعر بمرارة الأَسْر، ها هو واقف أمام مكتبي نسأله ويجيب بصوتٍ هادئٍ وواضح."

وهنا دعونا نقف وقفةَ تأملٍ أمام هذا الحوار الهادئ بين الرجلين:

قال غرسياني: لماذا حاربت بشدةٍ متواصلة الحكومة الفاشستية؟

قال عمر: من أجل ديني ووطني.

قال غرسياني: ما الذي كان في اعتقادك الوصول إليه؟

قال عمر: لا شيء إلا طردُكم… لأنكم مغتصِبون، أما الحرب فهي فرضٌ علينا وما النصر إلا من عند الله.

قال غرسياني: لما لك من نفوذٍ وجاه، في كم يوم يمكنك أن تأمر الثوار بأن يخضعوا لحكمنا ويسلموا أسلحتهم؟

قال عمر:

لا يمكنني أن أعمل أي شيء… وبدون جدوى، نحن الثوار سبق أن أقسمنا أن نموت كلنا الواحد بعد الأخر، ولا نسلم أو نلقي السلاح.

ويكمل غرسياني وصفه لقاءه بعمر: "وعندما وقف ليتهيأ للانصراف كان جبينه وضاءً كأن هالةً من نور تحيط به فارتعش قلبي من جلالة الموقف أنا الذي خاض معارك الحروب العالمية والصحراوية ولُقِّبت بأسد الصحراء. ورغم هذا فقد كانت شفتاي ترتعشان ولم أستطع أن أنطق بحرفٍ واحد، فأنهيت المقابلة وأمرت بإرجاعه إلى السجن لتقديمه إلى المحاكمة في المساء، وعند وقوفه حاول أن يمد يده لمصافحتي ولكنه لم يتمكن لأن يديه كانت مكبلةً بالحديد."

محاكمة المختار

وحانت ساعة المحاكمة الجائرة، من عدوٍّ لدودٍ ظالم على مجاهدٍ صنديدٍ مجندلٍ بالحديد!

جرَتْ فصول هذه المحاكمة في مركز إدارة الحزب الفاشستي ببنغازي مساء يوم الثلاثاء عند الساعة الخامسة والربع في ١٥ سبتمبر ١٩٣١م، ولم تستمرَّ سوى قرابة الساعة لتحكم المحكمة بالإعدام شنقًا حتى الموت على أسد الصحراء!

فما كان وقع هذا الحكم على مسمع بطلنا! إلا أن رد بكل هدوءٍ ويقين: "إنِ الحكم إلا لله ... لا حكمكم المزيف. إنا لله وإنا إليه لراجعون".

وقد عمد الإيطاليون الأوباش لإحضار ٢٠ ألفًا من الأهالي فضلًا عن كل المعتقلين من كل مكان لمشاهدة تنفيذ الحكم في قائدهم.

وتقدم الشيخ عمر المختار مكبل الأيدي، لكن ملامح الرضا والتسليم لقدر اللّٰه باديةٌ على وجهه تكسوها ابتسامةٌ هادئة. في حين كست السماءَ طائرات الجيش الإيطالي تشوش المشهد بأزيزها المزعج.

وبدأت الطائرات تحلق في الفضاء فوق المعتقلين بأزيز مجلجِل حتى لا يتمكن عمر المختار من مخاطبتهم، ولُفَّ حبل المشنقة حول عنقه، وسمع من كان على مقربة منه الشيخ عمر يؤذن في صوتٍ خافتٍ أذان الصلاة، وبعضهم سمعه يردد "يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضيةً مرضيةً".

وقُتِل البطل على أيدي أعدائه شهيدًا-نحسبه-بعد أن أدى ما عليه وترك إرثًا من الانتقام مِن خلفه، كان السبب في طرد الغزاة إلى غير رجعةٍ من ليبيا المسلمة.

وقفات مع حياة المختار

ولنا أن نتأمل الشـــيخ عمر المختار وقد بلغ من العمر ٧٣ ســـنة، في مثل هذه الســـن المتقدمة، يُقتَل شـهيدًا في سـبيل الله-نحسـبه-، بعد عمرٍ من الجهاد والرباط، أوليسـت سيرة نجاحِ مؤمنٍ. عرف كيف يثبُتُ على طريق الإ سلام حتى لقي ربه رافضًا الانحناء لغيره!

وقد صـــدقت كلمات الشـــهيد عمر المختار الأخيرة حين قال "إننا نقاتل من أجل ديننا وحريتنا حتى نطرد الغزاة أو نموت، وليس لنا أن نختار دون هذا". فتقبلك الله يا أســـد الصحراء عمر وعوّضنا في فقدك ألف عمر.



عبد الرحمن السميط

”والله أشهِد الله على أننا نحن-العرب-مقصرون ثم مقصرون ثم مقصرون تجاه إخواننا في إفريقيا، كل إفريقيا مستعدة أن تبيع نفسها للإسلام لو وجدت إنسانًا يعرض عليهم الدعوة الإسلامية ولكن ما نريد أن نأتيهم بالعصا، لا نريد بالقوة، أنا أريد أن نرفع شعار: {ومَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً}“

الدكتور عبد الرحمن السميط

تتسابق العبقريات المسلمة في مضمار العطاء والبذل، لكلٍّ منها طريقتُها ووسيلتُها وأهدافُها، ولا شك أن الدكتور عبد الرحمن السميط من تلك الأسماء اللامعة التي وجدت لنفسها موطئَ قدمٍ في سبيل نهضة الأمة، كان وجوده ملموسًا وأثره محسوسًا وزرعه مباركًا! كيف لنا أن نتناسى مثل هذا العَلَم الذي لا شك يفخر به قدوةً الكثيرُ من شباب المسلمين، وتُقدِّم همته للمقبلين الكثير من الإلهام والفكر اللامعة، ذلك أنه حقق ما لم تحققه القوى والعساكر ولو كثرت، فقط بإقبال الواثق ورؤية العامل الواضحة وعزيمة المؤمن المنهمرة، خطَّ عبد الرحمن سيرةَ بطلٍ يَشِعُّ بالعبقرية.

نشأته

وُلد عَلَمنا عبد الرحمن بن حمود السميط في ١٥ أكتوبر ١٩٤٧ في بيت عائلةٍ مسلمةٍ كريمة، درس الطب وتخرج في جامعة بغداد حاملًا شهادة بكالوريوس الطب في الجراحة، أردفها بدبلومٍ في أمراض المناطق المدارية من جامعة ليفربول في عام ١٩٧٤،ثم أكمل دراساته العليا المتخصصة في الأمراض الباطنية والجهاز الهضمي في جامعة ماكجيل في كندا لينتهيَ به المطاف إلى ممارسة مهنتِه المحببة، الطبِّ في الكويت، لكن هذه المهنة المحببة لم تكن محل اهتمامه الوحيد، فقد التفت عَلَمنا لثغرٍ عظيمٍ وجد لنفسه فيه الأثر الكبير والقدرة على العمل والتحصيل إنه العمل الخيري التطوعي. تزوج عَلَمنا وأنجب خمسة أطفال، وكان يعيش حياةً مستقرةً آمنةً مُزهِرة بالأهداف النبيلة.

كان طبيبًا وكان داعيةً إسلاميًا، كان النموذج الذي يُحتذى به همةً وخُلُقًا في أوساط المسلمين، لم يمنعه تخصصه في الأمراض الداخلية والجهاز الهضمي من الانخراط في العمل الخيري.

مكافحة الفقر والتنصير

تبدأ قصة إبداعه عندما أصبح في الخامسة والثلاثين من عمره، وزار إفريقيا، فشعر حينها بحزنٍ عميق وهو يبصر مشاهد الجوع والمرض والفقر تنتزع الأمل من عيون الناس هناك وهو يشاهد في ذات الوقت بذل النصارى المتفاني في خدمة هؤلاء المُعْوِزين والمحتاجين واستغلالهم لهذا الواقع في أداء رسالة التبشير، فاتخذ قرارًا مصيريًا حاسمًا، وهو أن يضحيَ بمهنته ويكرس نفسه لصالحهم. ليساعد الملايين من الأطفال في الحصول على التعليم والمأوى ولوازم الحياة، وأهم من ذلك كله، في التحرر والرقي بعقيدة الإيمان والإسلام السامقة ليعيشوا أحرارًا طيلةَ عمرهم. إننا نتحدث عن تسعٍ وعشرين عامًا من حياته قضاها علمنا في القيام بالأعمال الخيرية في إفريقيا، لا يعود إلى موطنه الكويت إلا في زياراتٍ قصيرةٍ أو لتلقي العلاج الطبي.

كان همه الذي شغَلَ حياته وفكره وكرس له كل ما يمكنه أن يبدل نظرات الأسى في أعين الأطفال المحتاجين في إفريقيا لبريق سعادة وأمل واستقرار ورضا. كان هذا الإنجاز الذي تتوق نفسه ملامسته وتحقيقه، وقد أقر اللّٰه عينه به إقرارًا لم يكن ينتظره الدكتور عبد الرحمن ولعله كان استجابةً لدعاءٍ صادقٍ ورغبةٍ حقيقيةٍ وقبلها إخلاص.

فكَّر عبد الرحمن بكل ما يمكنه أن يفعله ليغير الواقع البائس الذي يعيشه هؤلاء الناس، وأسس لذلك مشاريعَ وجمعياتٍ ومراكزَ وكل ما هو من قبيل البناء والإصلاح والتشييد

وتقديم العون والمساعدة، واضعًا الخطط، والتمويل والتطوير، فكان أن بارك الله في هذه الجهود ليصل عمق أثرها لأكثر من ٢٩ دولةً أفريقيةً أفاد منها الملايينُ من الناس.

إن سيرةَ نصفِ قرنٍ من العطاء جعلت الدكتور عبد الرحمن عَلَمًا مشهورًا خلدت ذكراه في أذهان الملايين من البشر الذي أفادوا من عبقريته في إدارة المشاريع الخيرية.

تشهد له مئات دور الأيتام والمدارس والمساجد التي بناها، وفوق هذا كله، اعتناق حوالي ١١ مليونًا من الأفارقة الإسلام على يديه، في رقم يبدو أسطوريًا، ولكنه لا يُستغرَب مع صاحبِ همةٍ وبصيرةٍ وعملٍ دؤوب. ومن يجود بنفسه في سبيل الله لا يعجب من كرم الله عليه.

بعض من مساهمات الدكتور عبد الرحمن

أسس عبد الرحمن وكالة إفريقيا، وعمل أمينًا عامًا في عام ١٩٨٧ حتى وفاته في عام ٢٠١٣. وهو أيضًا مؤسس وكالة الإغاثة في الكويت وعمل رئيسًا تنفيذيًا من ١٩٨٧ ـ ٢٠١٣ وشغل أيضًا منصب منسق الملحق الصحي لسفارة دولة الكويت في كينيا.

وهذا ليس إلا غيضًا من فيض، فقد أسس عبد الرحمن قائمةً طويلة من المؤسسات الخيرية والاجتماعية التي تخصصت في خدمة الناس وإغاثة المنكوبين وتقديم المساعدة للمحتاجين برسالتها الإسلامية السامية نذكرها هنا للاتعاظ والاستذكار. كان عبد الرحمن إذًا:

- مؤسس ورئيس فرع جمعية الأطباء المسلمين، الولايات المتحدة الأمريكية وكندا عام ١٩٧٦، فرع كندا.
- وعضوًا مؤسسًا لفرع مونتريال لجمعية الطلاب، ١٩٧٤ـ١٩٧٦.

- وعضوًا مؤسسًا في لجنة مسلمي مالاوي ـ الكويت ١٩٨٠.
- وعضوًا مؤسسًا في لجنة الإغاثة الكويتية.
- وعضوًا مؤسسًا في الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت.
- وعضوًا مؤسسًا، في المجلس الإسلامي العالمي للدعوة بالكويت.
- وعضوًا في جمعية الإنقاذ الخيرية بالكويت.
- والأمين العام للجنة مسلمي أفريقيا، ١٩٨١ ـ ١٩٩٩.
- ورئيس العون المباشر، ١٩٩٩ ـ ٢٠٠٨ وعضو جمعية الهلال الأحمر الكويتي.
- ومحرر ورئيس مجلة الكوثر، حتى وفاته في ٢٠١٣.
- وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية في السودان.
- وعضو مجلس أمناء جامعة العلوم والتكنولوجيا في اليمن.
- ورئيس مجلس إدارة كلية التربية في زنجبار.
- ورئيس مجلس إدارة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في كينيا.
- ورئيس مركز دراسات العمل الخيري في الكويت.

وفي الواقع يقف المرء متعجبًا بل مذهولًا، حين ينظر لعدد المناصب التي وقف عليها عَلَمنا، ويدرك بحق أن العبقرية لا حدود لها.

وكيف لا تبهرنا لغةُ الأرقام في وقتٍ يقف خلف هذه الإنجازات رجلٌ واحد، لكن يكفي أن نتأمل قليلًا لنجد أن هذه الجهود قد أثمرت بسبب عزيمة مسلمٍ أبِيٍّ، أدرك أن رسالة الإسلام لا تنحصر في مجرد أداءٍ للعبادات في مسجدٍ قريب أو إحسانٍ لذوي القربى،

إنه رجلٌ استطاع ببصيرته أن يصل إلى طريقته الأروع في نشر الإسلام والتي علينا أن نفقهها ونتعلم منها ونتدارسها ونتوارثها.

ثم لنزيد من الانبهار، فلنلقِ نظرةً أخرى على لغة الأرقام، فإنجازات عبد الرحمن لم تقف عند ما بسطناه بل كان له صدقاتٌ جاريةٌ لا تكاد تحصى، ففي إفريقيا كانت ثمار بذل الدكتور دعم ٩,٥٠٠من الأيتام وتمويل ٩٥,٠٠٠ طالبٍ وبناء ٥,٧٠٠ مسجدٍ وإنشاء ٢٠٠ مركزٍ لتدريب النساء وإنشاء ٨٦٠ مدرسةً و٤ جامعاتٍ و١٠٢ من المراكز الإسلامية وحفر ٩,٥٠٠ من الآبار وأخيرًا تُوِّج هذا العطاء الذي لا يُبارى بطباعة ٥١ مليونًا من المصاحف وتوزيعها في شتى الأمصار.

حصل الدكتور عبد الرحمن السميط على إعجاب الخاصة والعامة، ولا عجبَ، وقد أهَّله ذلك للفوز بمرتبة الشرف والعديد من الجوائز والشهادات بما في ذلك الجائزة المرموقة والعالمية من الملك فيصل لخدمة الإسلام. فيا لَه من لقبٍ رائع، أن تكتب سيرتك خادمًا للإسلام، وتبقى جهودك تنفع الناس وتذكر بالله وترسم في فضاء العالم هكذا هي حضارة الإسلام الماجدة... إنها عبقريةٌ مذهلة.

وفاته

لقد توفي الدكتور عبد الرحمن، في ١٥ أغسطس ٢٠١٣ وحزن لوفاته الملايين، وإن كان رحل المكافحُ المثابرُ، إلا أن طيفه لا زال يتراءى لمحبيه ولمن انتفع بحسن صنيعه في كل زاويةٍ نثر فيها من عبَق همته، فرحم اللّٰه خادمًا للإسلام عرف كيف يخدم دينه وأمته وكل من بحاجة له.



أحمد ديدات

"الإسلام بك أو بدونك سينتصر، أما أنت فبدون الإسلام ستضيع وتخسر."

أحمد ديدات

اسمٌ تردد كثيرًا ولمع أكثرَ في ساحات الدعوة للإسلام. خاض حروب البيان باللسان وأفحم مناظريه من أهل الشرك والضلال، لقد كان حقًا أحد العمالقة الذي نصروا خاتم الأديان في زمن الخذلان، واستحق لقب الداعية الإسلامي الكبير إنه الشيخ أحمدُ ديدات رحمه الله.

نشأته

وُلِد الشيخُ أحمدُ حسين ديدات في مدينة سيرات بالهند عام ١٩١٨، والتي لم يلبث فيها طويلًا بُعَيدَ ولادته حتى هاجر والدُه إلى دولة جنوب أفريقيا فبدأت حياة الشيخ في رحاب علوم الإسلام فحفظ كتاب الله ودرس الشريعة الغراء وأولى عنايةً خاصةً بدرا سة سيرة الر سول- صلى الله عليه و سلم-، وقد كان له ميلٌ وا ضحٌ وقويٌّ واهتمامٌ متواصلٌ وثريٌّ بالكتب التي تردُّ على شبهات المستشرقين حول رسول الله محمدٍ-صلى الله عليه وسلم-والقرآن الكريم.

أينما تُذكَر حلبات المناظرة مع النصارى لابد أن يتردد اسم فارسها وقائدها الشيخ أحمد ديدات الذي اشتَهر فيها بشجاعته وبراعته في الدفاع عن دين الله وعُرِف بقوة الرد على الأباطيل والشبهات التي كان يثيرها أعداء الإسلام من نصارى حول رسول الله- صلى الله عليه و سلم-، وما أذهل متابعيه فضلًا عن متانة وقوة علمه، تلك البصيرة في استنباط الأدلة من كُتَّابهم هم، ليرُدَّ بها على شبهاتهم هم، أعانه في ذلك كتاب إظهار الحق للمؤلِّف الهندي "رحمة الله الهندي"، الذي يُعَد مفتاح آفاق أحمد ديدات وظَّفه للرد

على شبهات النصارى وكان بحق بداية منهجٍ حواريٍّ مع أهل الكتاب مؤصَّلًا تأصيلًا شرعيًا يوافق المنهج القرآني يرد بالحجة والبرهان على كتبهم المحرفة.

ما زالت مكتبة الدعوة للإسلام تفخر برسالته التي ابتدأها بـــ (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم) والتي تتوجت بإسلام بضعة آلافٍ من النصارى على يديه من شتى أنحاء العالم وارتقى منهم ثلةٌ ليقوموا على ثغر الدعوة، ونحسب أن ما يُحصِّلونه الآن من فضلٍ وخيرٍ كدعاةٍ للإسلام هو في ميزان عَلَمنا أحمد ديدات. فهل بعد هذا السَّبق من سبقٍ كيف وحين نبصر هذا العدد من المعتنقين للإسلام نستذكر حديث رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: (لأَنْ يهدي بك الله أحدًا خيرٌ لك من حُمُر النعم).

إنتاجه الفكري والدعوي

لقد ترك أحمد ديدات إرثًا في التأليف، ولعل أشهر كتبه وأولها كان كتاب: "ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمدٍ-صلى الله عليه وسلم-؟ " والذي صدر في الخمسينات، وكان له صدًى واسعٌ ومؤثرٌ، ثم اشتهر بعده الكتاب الذي نشره باسم: "هل الكتاب المقدس كلام الله؟ ". والذي لا يقل أهميةً وسمعة.

وقد عمل الشيخ رحمه الله في تأليف العديد من المؤلَّفات في مقارنة الأديان ومناظرة النصارى والرد على شبهاتهم وتبديد أوهامهم، من أبرزها كتب: "مسألة صلب المسيح" و"القرآن كلمة الله"، "هل الإنجيل كلمة الله".

قطع أحمدُ ديدات الشوط الأول من حياته إلى غاية عام ١٩٥٩م في الكتابة والتأليف وصدر عنه ما يزيد عن عشرين كتابًا، وطُبِع الملايينُ منها لتُوزَّعَ بالمجان وذلك لإدراكه أهمية التأليف وحفظ العلم ونشره.

لكنه توقف عنه ليتفرغ لمشـروع حياته وأهم هدفٍ كان يكافح لتحقيقه ألا وهو الدعوة إلى الإسـلام، وهذا ما يفسـر نشـاطه البارز في إقامة المناظرات الندوات والمحاضـرات. نشاطٌ كان لابد له فيه من حِلٍّ وترحالٍ وطوافٍ ببلاد العالم، تمكن من خلاله خوض أبرز المناظرات منها مناظرتُه الشـــهيرة التي أجراها مع كبار رجال الدين المســيحي أمثال: كلارك-جيمي سـواجارت-أنيس شـروش. والتي أبلى فيها بلاءً حسـنًا وانتصـر للإسـلام والقرآن خيرَ انتصـارٍ، ويُحصَـى لأحمدَ آلافُ المحاضـرات والمناظرات التي طُبِع بعضُـها في كل أنحاء العالم فأصبح في نظر النصارى رقمًا صعبًا لا يمكنهم تجاهلُه أو تخطيه.

مثل هذه الهمة البنَّاءة والتي حملت على عاتقها مســؤولية البلاغ والدعوة لله، كان لابد لها من آثارٍ وثمراتٍ، منها كان تأســيسُ أحمد لمعهد الســلام لتخريج الدعاة، والمركز الدولي للدعوة الإسلامية بمدينة "ديربان" بجنوب إفريقيا.

وهذا يعكس الطريقة التي تفكر بها عبقرية أحمد ديدات، فلا يكفي أن تنجز بنفســك وتحقق الإنجازات لوحدك بل لابد من رؤيةٍ بعيدةٍ وبصيرةٍ تمتد للأفق، لا بد من تأسيس المعاهد والمدارس وإعداد جيل يتوارث هذا المجد ويحمل الأمانة بكل قدرةٍ ووعيٍ. ولولا هذه الطريقة النيِّرة في حفظ العِلم والدعوة لأُجهِضــت تلك الجهود الجبارة التي كان يبذلها الشيخ في سبيل نشر الإسلام. فبارك الله هذا الزَّرْعَ ونفع به الأمة.

محنته ووفاته

ولأن الابتلاء ســنةٌ وقدرٌ، ولأن الله يمتحن عباده العاملين وصــبرهم، أُصِــيب الشــيخ ديدات بالشــلل الدماغي منذ ١٩٩٦، فقطعه هذا البلاء عن التواصـل بالهاتف أو الحديث مع زواره ولبِثَ في كُمونٍ يرجو رحمة ربه.

ولكنْ في هذه الأثناء كان زرعُ أحمد ديدات يُثمِر وكان الناس يبصـــرون نتاج بذله وعطائه ولعل من أبرز ما يصـف هذا التقدير لمكانة الشـيخ، فوزُه بجائزة الملك فيصـل العالمية لخدمة الإسـلام عام ١٩٨٦م وتحصـيله درجة "أسـتاذ" هذا إن لم نتحدث عن طبعات كتبه التي كانت تتداولها المكتبات ويتناقلها الدعاة ويسـتقي من نور عِلمها المقبلون على الإسلام.

تُوُفِّيَ أحمدُ ديدات بعد عمرٍ حافلٍ بالجد والعمل، وصُـلِّيَ عليه بعد صـلاة المغرب في أحد مسـاجد مدينة فيرلم التي تقع على بعد ٣٠ كم شـمالي مدينة ديربان في جنوب إفريقيا وقد حضـر جنازته جموع المسـلمين يرْثُون عَلَمًا من أعلام الأمة، وجد لنفسـه مقامًا سـاميًا سـدَّ به ثغرًا حاميًا. فاللهم اجْزِهِ عن الإسـلام خير الجزاء وبارِك في دعوته وجهده.



عز الدين القسَّام

”لا تبيعوا اليهود ولو شبرًا واحدًا من الأرض، ومهما أثقلوا الثمن إنّ من يبيعهم أو يقطعهم أرضًا يقطعه اللّٰه قطعةً من نار جهنم فيها يتلظّى.“

عز الدين القسام

في وقتِ انحطاطٍ وتقهقرٍ، تواطأ فيه القريبُ والبعيد على شــعبٍ مفجوعٍ مكلومٍ، ركامٌ من المآســي والأحزان، ومن مجازر اليهود والإنجليز الأنجاس، ذاكرةٌ ملطخةٌ بالخيانات والمتاجرات بقضــية بلدٍ بِيعَ على موائد اللئام، هناك برز نورُ عَلَمِنا، ليبدد ذلك الظلام الحالك ويوقِظ النفوس اليائســة ويزرع بســمةَ أمل! عزُّ الدين القســام، نحتها بســيرته واضــحةً جليةً، لن تُعدَم أمةُ الإســلام من أعزةٍ أباةٍ يبدأون من لا شــيءٍ ويحققون كلَّ شــيءٍ، إنها ســيرةٌ عنوانها البطولة والفداء، المعجزةُ واليقين، ونهايتها، نهاية المؤمنين، وخاتمة الشهداء المُقبِلين.

نشأته

في أحد بيوت بلدة (جبلة) التابعة لقضــاء اللاذقية في ســورية، في يومٍ من أيام عام ١٨٨٢، وُلِد عزُّ الدين، يحتضــنه دفء أســرةٍ ريفيةٍ قد اســتنارت حياتُها بالعلم وازدانت بالتقوى، فأبوه الشــيخُ عبد القادرِ مصــطفى القســامُ من المشــايخ الذي اعتنَوا طيلة حياتهم بعلوم الشــريعة الإســلامية، وأمُّه حليمة قصــاب من عائلة لم تزل تَعُدُّ العلمَ والدين منهاجًا في حياتها.

بدأ عز الدين يبصــر نور الحياة وهو يشــاهد أباه منشــغلًا بنشــر العلم، يدرِّس في كُتَّاب القرية القرآنَ الكريم والعربيةَ والخط والحســاب ويبث روح الجهاد بتعليم الأناشــيد الدينية والحماســية، تقوده خطواته إلى المحكمة الشــرعية التي عمل فيها لمدةٍ مُستنطِقًا.

وعلى هذه الطريقة بدأ عز الدين مسيرته في العلم، فقد بدأ بارتياد كُتَّاب البلدة لتعلُّم القراءة والكتابة وتلاوة القرآن الكريم، فكان أن تميز بنبوغه وتفوقه على أقرانه ولعل أكثر ما كان يُلاحَظ عليه ذلك الإبحار في التفكر وطول التأمل والتفكير.

وقد تفوق عز الدين خلال سنين دراسته في الكُتَّاب، وما إن أتمها، حتى انتقل إلى مصر والتحق بالأزهر وما أدراك ما الأزهر في ذلك الوقت، فقد كان الأزهر منارةً كبرى لنشر علوم الشريعة والعربية وحُلُمًا غاليًا لكل طالب علم.

وصل عزُّ الدين إلى مقاعد الدراسة في الأزهر، فحضر دروس الشيخ محمد عبده، ونهَلَ من علمه وفهمه. كما تتلمذ على معظم شيوخ حلقات الأزهر.

وقضى عَلَمنا يومياتِه بين العكوف على أروقة مكتبات الأزهر، منشغلًا بدروسه وحلقاته. واهتمامٍ من جهةٍ أخرى بحركات التحرر التي كان يغذيها رجال الأزهر، لتترسخ المفاهيم الناصعة في ذهن عز الدين وليدرك أن الإسلام دينُ عزةٍ وقوةٍ وتحررٍ وجهاد.

كانت مصرُ في ذلك الوقت خاضعةً للاحتلال البريطاني المباشر بعد ثورة عرابي عام ١٨٨٢، ولم يهنأ هذا الاحتلال باستقرارٍ وأمانٍ مذ قام تيار المقاومة الإسلامي العازم على مواجهته والتصدي له، وقد عايَشَ عز الدين هذا الواقع في بداية شبابه، وفي ذات الوقت عايش هجوم المفكرين المتغربين على الإسلام فكرًا وحضارةً وتاريخًا، ورأى ذلك الصراع الدائر بين هؤلاء وبين المفكرين الإسلاميين، وأبصر المشروع الصهيوني بأبعاده، وقدّر مدى خطورته على الأمة الإسلامية، ولم تَخْفَ عليه تطلعات اليهود وأطماعهم في فلسطين.

وهو يحمل في قلبه هذا كلَّه، استمر عَلَمنا يطلب العلم في مدرسة الشيخ محمد عبده وفي مدرسة الشيخ محمد رشيد رضا الشامي المقيم في مصر لتصبح مفاهيم الجهاد والدفاع عن حقوق الأمة واضحةً تمامًا في عيني طالِبنا.

بعد عشر سنواتٍ من الدراسة في الأزهر، عاد عزُّ الدين إلى مسقط رأسه عام ١٩٠٦ ليس ليرتاح بل ليحصل على شهادة الأهلية، ولينطلق في رحلةٍ إلى تركيا يبحث عن طرقِ التدريس في جوامعها، ولينقل من أسرار هذا العلم لقريته.

القسام ينشر علمه في الناس

بعد عودته عكَفَ عز الدين على التدريس في زاوية والده، في جامعِ السلطانِ ابنِ أدهمَ قطبِ الزاهدين. وعلى خُطا والده اشتغل في تدريس أطفال البلدة قواعدَ القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن الكريم، وبعض العلوم الحديثة.

واعتلى منبر مسجدِ المنصوري الذي يتوسط البلدة ليلقيَ فيه خطبة الجمعة ويقدم فيه الدروس والمواعظ، فكان أن أحبه الناس واحترموه وكَنُّوا له كل مودة، حتى بلغ ذلك المناطق المجاورة، وهو يقدم الإسلام بفهمه الواسع الشامل، فكثُرت صداقاتُه وازداد أتباعه وعَظُم شأنه، وذاعَ صيته.

مسيرته الجهادية

وكان عزُّ الدين يعايش أحداث أمة الإسلام في كل الأمصار، وما إن دخلت القوات الإيطالية طرابلس في ليبيا عام ١٩١١، حتى قاد عَلَمنا مظاهرةً طافت شوارع جبلة تأييدًا للمسلمين هناك، وحرَّضَ الناس على التطوع لقتال القوات الإيطالية بل وجمعَ التبرعات للأسر المنكوبة، لكنه لم يتمكن من السفر إلى ليبيا لأن السلطات التركية منعته

ورفاقَه من ذلك رغم عكوفهم أربعين يومًا يحاولون الوصول، فذهبت تلك الأموال لبناء مدرسةٍ بمال المتبرعين لتعليم الأمّيين.

وما كادت الحرب العالمية الأولى تضع أوزارها، حتى وُضِعت فلسطينُ والعراقُ تحت الانتداب الإنجليزي، وسورية ولبنانُ تحت الانتداب الفرنسي، وخرج وعدُ بلفورَ المشؤومُ لإنشاء وطنٍ قوميٍّ لليهود في فلسطين وذلك في ٢ نوفمبر ١٩١٧ م.

وبتلك الأرضية الفكرية وبذلك الفقه المتين الذي كان يحمله عزُّ الدين، كان لابد أن يُعلَنَ الجهادُ ضد القوات الفرنسية التي اجتاحت سورية عام ١٩٢٠، وذلك في الساحل الشمالي للبلاد، فكان في طليعة المجاهدين الذين حملوا السلاح في الثورة (١٩١٩ـــ١٩٢٠) برفقة القائدِ عمرَ البيطارِ رحمه الله، ولأجل هذا الأمر هاجر من بلدته على الساحل، وباع بيته وسخر كل ما يملك لمشروعه الجديد؛ فاشترى أربعًا وعشرين بندقية، وانتقل بأسرته إلى قريةٍ جبليةٍ ذاتِ موقعٍ حصينٍ يُعِدُّ لما هو آتٍ.

ولكن تمكنتْ فرنسا من التغلب على ثورتِهمُ الفتيةِ لقلة ذخيرتهم وأسلحتهم، ولضعف تنظيمهم، وأصدرت بحقه حكمًا بالإعدام، وساوموه بغرض إلغاء هذا الحكم ومزيدٍ من المال والجاه على أن يتركَ السلاح ويجارِيَهم في سياساتهم فرفض. ونتيجةً لتمسكه بخيار الجهاد حكَمَ عليه الديوان العُرفي الفرنسي في اللاذقية وعلى مجموعةٍ من أتباعه بالإعدام، ولاحقه الفرنسيون فلجأ إلى دمشق ومنها إلى فلسطين. وانتهى به المطافُ في ضاحية الياجور بالقرب من حيفا-والتي كانت قاعدةً من قواعد التهويد في ذلك الحين عام ١٩٢٢م.

في حيفا خطَّ عزُّ الدين الذكرياتِ برفقة أصـــحابه، فنزل الجميع مع عائلاتهم في بيتٍ واحدٍ كبيرٍ في الحي القديم من المدينة، ذلك الحي الذي جمع الفلاحين المُهجّرين من قراهم بعد احتلال اليهود لها وتوطينها لبني مِلَّتِهم.

أمام هذا المشهد كان لابد لعبقرية عزِّ الدين أن تتفاعل وتتحرك وتعطي العطاء الحسن، فبدأ يدرُسُ كيف يحسِّـن الوضـع الاجتماعي والاقتصـادي لهذا المجتمع الصـغير الذي أصبح مجتمعه، وكانت البداية بالتصدي للأمية بقيادة الدروس والحلقات التعليمية في رحاب مدرسـةٍ ليليةٍ خصـصـها لهذا الهدف، فطرق قلوبَ الفلاحين الذين قابلوا إحسـانه ومحبته وحُسنَ خُلُقه وكرمه بكل الاحترام والمودة.

وفي هذه المرحلة كان شغلُ عزِّ الدين الشاغلُ التدريسَ، وقد عمل مدرسًا في المدرسة الإسـلامية بحيفا، وهناك كان يَبُثُّ طلابه من همته وعزيمته، يرفع درجة وعيهم بأهمية العمل لمستقبلٍ أفضلَ، ولزوم الحذر من الخطر الذي يتربص بهم مع وجود المستعمر.

فضـلًا عن ثغر التدريسِ وإعداد الجيل المسـلم القادر على تحمل أعباء المراحل القادمة، وقف عَلَمُنا على ثغر الخطابة العظيم، فكان إمامَ وخطيبَ جامعِ الاسـتقلال بموافقةٍ من مفتي القدس وزعيم الحركة الوطنية الحاج محمد أمين الحسيني رحمه الله.

ولطالما ردد عباراتِه المحرِّضـــة من فوق منبره ويذكِّر المســـلمين الفلســـطينيين: (بأن اليهود ينتظرون الفرصة لإفناء شعبِ فلسطينَ، والسيطرة على البلد وتأسيس دولتهم).

ولم يكتفِ عَلَمنا بالتدريس والخطابة بل أضـــاف لها جهودًا دعويةً جبارةً بإدارة حلقات الدروس والعلم في المسـجد اسـتغلها في إعداد المجاهدين نفسـيًا وعلميًا للقتال، وقد برع في طَرْقِ قلوبهم وترسيخ المفاهيم الراقية في نفوسهم.

جمعية الشبان المسلمين والتصدي للتنصير

ومن آثار هذا البذل والتفاني في دعوة المسلمين وإيقاظهم وتنبيههم لما يُحَاكُ لهم وكذا إعدادِهِمُ الإعدادَ اللائقَ لِما ينتظرهم، كان تأسيس جمعية الشبان المسلمين لتتصدى للجمعيات التبشيرية التي تدعو إلى تنصير المسلمين والتي قادها الإنجليز بمكرٍ ودهاءٍ كبيرين، وقد انتُخِب رئيسًا لها عام ١٩٢٨ م.

في هذه الجمعية سعى عَلَمنا لتربيةِ جيلٍ من الشباب المسلم، الذين انتشلهم من خطر الانحراف واستغلال الظروف الاقتصادية والسياسية القاهرة، وشَغْلِهم بما فيه صلاح أنفسهم ووطنهم.

وتتجلى عبقرية عز الدين أكثر في الطريقة التي كان يعمل بها في هذه المرحلة في فلسطين، ففضلًا عن الاهتمام الكبير الذي أولاه بالشارع الفلسطيني والشعب الفقير المظلوم، كان يعمل على ربطِ قيادات المدن الفلسطينية بعضِها ببعضٍ، وجذبِ شباب المناطق المجاورة، لكسبها في صفوف تنظيم الجهاد الذي بدأت تظهر ملامحُه جليةً.

ولقد كان جهد عزِّ الدينِ في الجمعية يعكس ما يحمله من حرقةٍ في القلب وإحساسٍ بالمسؤولية وعزمٍ على تغيير هذا الواقع المرير المُعَاش، فقد كان إضافةً لما يقوم عليه من أعمال التدريس والخطابة والتحريض، يلقي محاضرةً دينيةً مساء كل يومِ جمعةٍ، ويخرج برفقة أصحابه كل أسبوعٍ إلى القرى، يدعو الناس ويرشدُهم ويذكرهم بواقعهم والحلول اللازمة لتغييره. فكانت ثمرات هذه الجهود إنشاءَ عددٍ من الفروع للجمعية في كثيرٍ من قرى اللواء الشمالي من فلسطين، فتوطدت علاقته بالقرويين الذين اقتنعوا تمامًا بفكر مُلهِمهم ودعوته.

وبحكم خبرته في الخَطابة، ذلك الفن الذي برع فيه وفاق، كان يركز على طلبة العلم والمشايخ في نصحه ومواعظه، وقد ركز عليهم تحديدًا لأنهم مفاتيحُ الخير وأُسسُ البناء في المجتمع المسلم، بصلاحهم تصلُح الأمة، وبيقظته تُحفَظ الهمة، وقد حذَّرهم باستمرارٍ من مغبة إضعاف الوازع الديني في النفوس، وإخراج جيلٍ أجوَف، لا يملك من الإسلام إلا الاسم، ومن خطورة فصل الدين عن السياسة والاكتفاء بالوعظ النظري، ونبههم إلى أهمية الترفع عن النعيمِ في الحياة، في وقتٍ يعيش فيه الشعب الفقر والحاجة، ومن أهمية توحيد الخطاب الدعوي لتجييش الأمة وإعدادها نفسيًا ومعنويًا لرفض الوجود الإنجليزي واليهودي، وخشية الله من الإنفاق اللامبالي في زينة المساجد وزخرفتها في حين أن الجهاد لا بواكيَ له.

وبحكم عملِه مأذونًا شرعيًا لدى محكمة حيفا الشرعية عام ١٩٣٠، استطاع أن يصل إلى معظم فئات الشعبِ الفلسطيني واتسعت بذلك دائرة حركته الجهادية وشعبيته.

وقد نجح في هذه السبيل كونَه ركز على تأليف القلوب ونشر المحبة وإزالة الخصومات وتعميق الوازع الديني في النفوس، وكذا رفع الوعي بما يُحاكُ لهم من مؤامراتٍ من قبل البريطانيين واليهود، محذرًا من خطورة الهجرة وبيع الأراضي. ومذكِّرًا بفضل الصبر والرباط إلى أن يجعل الله مخرجًا. تحلى عَلَمنا عزُّ الدين بعقيدةٍ راسخةٍ، وخُلُقٍ حسنٍ، باللباقة والحلم، والحكمة والعقل، بالرصانة واليقين، لم يكن متسرعًا ولا مندفعًا رغم ما كان يملأ قلبه من حبٍّ للعمل وحرصٍ على الإنجاز.

لقد نجح عزُّ الدين في بناءِ حصنٍ جهاديٍّ قويّ، اعتمد في خطته لتحقيق ذلك على التربية السليمة لجيل المجاهدين، وقدرته القيادية في تفرُّس طاقات كل فرد وتوظيفها بحسب الحاجة إليها ووضعها في مكانها الملائم، وكان يختارهم من الذين يحضرون

دروســه ومواعظه، ويجتمع بهِمُ اجتماعاتٍ ســريةً ليحرضــهم ويُعِدَّهم، فأســس بهذه الطريقة خلايا جهاديةً، مستعدةً كل الاستعداد للتضحية والفداء.

إنشاء الوحدات الجهادية

وانتهت هذه الجهود في سنة ١٩٢٥ بإنشاء عددٍ من الوحدات لكل وحدة مهمتها الخاصة بها:

- **الأولى:** اختصاصها شراء السلاح وتوفير العتاد.
- **الثانية:** وحدة خاصة للاستخبارات ومراقبة تحركات العدو البريطاني واليهودي.
- **الثالثة:** وحدة خاصة بالتدريب العسكري والعمل الفدائي.
- **الرابعة:** وحدة خاصة بالدعوة للجهاد والدعاية في المساجد والمجتمعات.
- **الخامسة:** وحدة العمل الجماهيري والاتصالات السياسية.
- **الســادســة:** وحدةُ جمع المال من الأعضــاء والأنصــار، ورعاية أســر المعتقلين والشهداء.

وما إن اشتد ساق الحركة الجهادية حتى شرعت بتنفيذ عملياتها الفدائية المفاجئة ضد المســتوطنات اليهودية واعتمدت في ذلك على الكمائن والهجوم على أهدافٍ محددةٍ من اليهود حتى يضعوا حدًا لهجرتهم إلى فلسطين.

وقد تحدث الأستاذ إميل الغوري في كتابه (فلسطينُ عبر ستين عامًا) عن هذه المرحلة قائلًا: (أما الأعمال التي قام بها القســاميون فكانت من أروع ما قام به المجاهدُ في فلسطين، وعلى الرغم من كثرتها وتعدد أشكالها ومظاهرها، فإنها ظلت محاطةً بالسرية والكِتمان إلى مدًى كان معه أكثرُ الناس يجهلون مصدر هذه الأعمال، بل كانوا لا يعرفون

أبدًا بوجود حركة القســاميين، وكان من هذه الأعمال: ملاحقةُ وتأديبُ الذين يخرجون عن الشــعب ومصــالحه، مثل التعاون مع الحكومة ضــد الحركة الوطنية، والتجســس لحساب المخابرات البريطانية، أو بيع الأرا ضي لليهود أو السمسرة عليها للأعداء. وكان من أعمال القســاميين العديدةِ الواســعةِ النطاق، التصــدي لدوريات الجيش والشــرطة، وقطعِ طرق المواصلات والإغارة على ثكنات الجيش ومراكز الشـرطة، ومهاجمة حرس المستعمرات اليهودية، وزرع الألغام والمتفجرات فيها).

وقفات مع مسيرة القسَّام

إن الرجوع لتلك الصــفحات الماجدة من تاريخ حركة عز الدين القســام لَيدعو المرءَ للتعجب! فقد رفع عَلَمنا المجاهدُ راية الجهاد في فلسطين وكان عمره قد جاوز الستين! وبهذا العمر كان يتدفق عزمًا وحزمًا وحبًا للفداء. وقد كان ترك حيفا ورابَطَ في جبال جنين القريبةِ منها. إذ كانت خطته تقضــي أن يتوزع رجاله على قرى المناطق الجبلية وحين يصـبح عددهم مكتملًا، يهاجم مدينة حيفا ويسـيطر على دوائر الحكومة ومراكز الشـرطة والميناء، وحين ينتهي من هذا ويسـتتبُّ الأمر بيده يعلن قيام حكومته، وعلى ذات الخطة يعمل أعوانه في سائر المدن، فينتزعون الحكم في البلاد من أيدي اللئام.

في الجهة المقابلة حاولت الحكومة البريطانية التصــديَ لهذا المد الجهادي المخيف، ولتفاعُلِ الناس الرائع معه، فعرضــت مكافآتٍ ماليةً ضـخمةً لمن يدلي بأيٍّ معلوماتٍ عن هؤلاء المجاهدين الفدائيين، وكانت هذه نقلةً جديدةً في روتين الحياة في فلســطين، فلأول مرة يتفاجأُ اليهود ومن خلفهم الإنجليز بجهادٍ قويٍّ منظَّمٍ ومُباغِتٍ، لم يُحسَبْ له يومًا حسابٌ.

وقد انعكس هذا الذعر، بنشر شبكةِ استخباراتٍ يهوديةٍ بريطانيةٍ تراقب الحركةَ في الليل والنهار، وتصاعدت الاعتقالاتُ التي كانت تصيب كل من في طريقهم لمجرد الشبهة.

وتمكنت القوات البريطانية في نهاية المطاف من الوصول إليهم في أحراشٍ يعبد في منطقة جنين يوم ٢٠ تشرين ثانٍ عام ١٩٣٥، بعد اشتباكاتٍ عنيفةٍ بين عناصرَ من حركة عز الدين القسام وشرطتها إثرَ قتلِ أحدِ الجنود اليهود في المنطقة، فأرسلت بريطانيا أرتالَها العسكرية بقوةٍ كبيرةٍ، وهناك على ثرى تلك الأرض دارت رحَى معركةٍ تاريخيةٍ بين المجاهدين والبريطانيين الغزاة، سطَروا فيها ملاحمَ من الثبات والإقبال على الموت، بشجاعةٍ قل لها نظيرٌ.

وفاته رحمه الله

فكانت نهايتها الدموية، باستشهاد قائدهم ومعلمهم ومُلهِمهم عز الدين القسام برفقة ثلةٍ من إخوانه، وسقط جسده على أرض القتال، شهيدًا مكرمًا، قد أعذرَ عند ربه، ولم يرضَ أن يموت ميتةَ ذلٍّ على فراش الخذلان والقعود، وقد بكت قلوب المسلمين في فلسطينَ على هذه الثلة المؤمنة التي لقَّنت العالم دروسًا في الإباء والعزة والجهاد. وطبعت على صفحات تاريخ فلسطين، أننا أباةٌ لا نركع إلا لله.

نُقِل الشهداء إلى حيفا، ونُقِل الجرحى والأسرى إلى معاقل الغزاة، وأُقِيمت الصلاةُ على الراحلين بدمائهم في جامع الاستقلال، وصلاةُ الغائب عليهم في كل مكانٍ، فخرجت جموعٌ مؤلفةٌ من المسلمين تندد بالإنجليز واليهود وترثي الأبطال الفدائيين.

استشهاد القسام كان بحقٍ ثُلمةً! ثلمةٌ لا يمكن أن يتناساها المسلمون في فلسطين، وقد كان لها عظيم الأثرِ في شباب فلسطين في تلك المرحلة وبعدها، ولأنه نورٌ سطع من

وسط ركام الخذلان، فقد عدَّ المؤرخون الشيخَ عزَّ الدينِ القسام شيخَ ثوّار فلسطين بلا منازع.

وبعدَ تاريخٍ حافلٍ خطَّه عَلَمنا من سوريا لمصر لفلسطين، مضى إلى ربه مضرجًا بدمائه، ولكنه ترك خلفه إرثًا ثقيلًا وأمانةً عظيمةً، وحمل الراية من بعده إخوانُه وتلاميذه.

وفي الواقع فإن أثر حركة عز الدين القسام كان عميقًا أصاب كبد الأعداء الغزاة، وبدايته كانت قويةً ومنظَّمةً ولولا الخذلان من جوار فلسطين ومن عالَمٍ يُقال عنه إسلاميّ! لكان لهذه الثورة والمقاومة شأنٌ آخر، بل لحاضر فلسطين وساحة الصراع بِرُمَّتها شأنٌ آخر، ولكن ليقضيَ الله أمرًا كان مفعولًا.

ولِنختمَ سيرة هذا البطل، رحمه الله وتقبله، نذكر هنا شهادة الشيخِ أحمد فرج عقيلان وكان من جنود القسام في بداية نشأة الكتائب الجهادية فقد قال:" كنت شابًا فكان القسام يجمعنا في آخر الليل، فنختفي عن آبائنا وأمهاتنا للتدريب والتكوين، فكنا نبدأ التدريب دائمًا بالأذكار ثم بقيام الليل ثم بقراءة حزبٍ من القرآن، ثم بعد ذلك بالتدريب العسكري ثم نختم بالدعاء، فأمسكت بي أمي ذات ليلةٍ، فلما ضاق وقت الموعد كادت تضيق على الأرض بما رَحُبَت، فلما رأت أمي ما أنا فيه سألتني: إلى أين تتجه؟ فصارحتها ولم أجد بُدًّا من ذلك، فيقول: فخرجتْ أمي في إثري، فلما رأت ما نحن فيه تأثرت به تأثرًا شديدًا، فجاءت من الغد تحمل حُلِيَّها، فقالت: خذ هذا و سلمه للشيخ عز الدين يعينه على الجهاد في سبيل الله، ومن ذلك الوقت بدأت مشاركة النساء في الجهاد في فلسطين".

فالحمد لله أن جعل اللّه لفلسـطينَ ولأمة الإسـلام عزَّ الدينِ القسـام يذكر بواجب الجهاد وبضـرورة الثبات على الدين القويم وعزة الإسـلام مهما يكن الثمن، فإما حياةُ حرٍّ كريمٍ أو ممات حرٍّ شهيد.



مالكوم إكس

"لا أحد يمكن أن يعطيك الحرية، ولا أحد يمكن أن يعطيك المســـاواة والعدل، إذا كنت رجلًا فحقق ذلك لنفسك."

مالكوم إكس

في كل زمان ومكان يُقيِّضُ الله لهذه الأمة من يحفظ لها دينها وينتصــر لها ويضــحي لأجلها، حتى في عمق ديار الكفر، هناك في الولايات المتحدة الأمريكية في مملكة العنصرية على أصولها، برز الداعية الإسلامي "مالكوم إكس" أو "مالك شباز" الأمريكي الأصل والجنسية، والذي قيضه الله ليقوِّمَ مسيرة الحركة الإسلامية في أمريكا في أحلك الأوقات، داعيًا للعقيدة الصــحيحة ومتحملًا لأجل ذلك الكثير الكثير ومضــحيًا بالغالي والنفيس حتى لقي ربه مقتولًا غدرًا. فهَلُمَّ نتذاكر سيرته كي نفهم!

نشأته

هو مالكوم إكس من مواليد مدينة ديترويت في ٦ من ذي القعدة ١٣٤٣هـــ/ ٢٩ من مايو ١٩٢٥م نشأ في أسرةٍ من السود الأمريكيين، وكان والده قسيسًا وأما أمه فكانت هنديةً، وكان يقاسـمه هذا العش سـبعةُ إخوة. وقد تعلق مالكوم كثيرًا بوالده الذي كان يناضـل ضد العنصرية، وشاء الله أن يعرف الفتى الصغير وهو في عمر السادسة اليُتم بعد أن قُتِل والده أمام عينيه، على يد جماعةٍ من العنصـريين البيض في مشـهدٍ فظيعٍ لا يقوى على مشاهدته فتًى بقلبٍ صغيرا! فقد قامت جماعةٌ من البيض العنصريين بتهشيم رأس والده ووضعوه في طريق حافلة كهربائية دهمته حتى فارق الحياة.

وزامن ذلك أوج التمييز العنصري بين البيض والسود في أمريكا. فكَبِر مالكوم يحمل في قلبه بغضًا متجذرًا ضد البيض. وازداد هذا البغض مع ما لاقته أسرته الفقيرة بعد مقتل مُعيلها الوحيد من صــعوبةٍ وفقرٍ شــديد. لدرجة أن عملت والدته خادمةً في العديد من المنازل ولكنها كانت تُطرَد بسرعة بسبب لونها.

ولأن الجرح كان نازفًا وبالغًا، رفضت أمه كل المساعدات التي يتقدم بها البيض حفاظًا على كرامتهم. لكن الضغوط الحياتية والمسؤوليات التي حملتها على كاهلها كانت أكبر من أن يتحملها عقلها المُجهَد، فأُصيبت بمرض عقلي، ودخلت للمشفى. وتشرد مالكوم وإخوته السبعة، وأصبحوا أطفالًا تحت رعاية الحكومة التي قامت بتوزيعهم على بيوتٍ مختلفة.

استهل مالكوم حياته بالطرد من المدرسة. لأنه كان الزنجي الوحيد. وكان متفوقًا ذكيًا، فأراد المعلمون تحطيمه نفسيًا ومعنويًا، وكم سخروا منه ومن حلمه أن يصبح يومًا محاميًا.

فترك المدرسة وانتقل إلى مدينة نيويورك وعمل كسائر الزنوج في أعمالٍ شاقَّةٍ كثيرةٍ، فكان نادلًا في مطعم. ثم عاملًا في قطار. فماسحَ أحذيةٍ في المراقص. حتى أصبح راقصًا مشهورًا يُشار إليه بالبنان، وبدأ يشرب الخمر ويدخن السجائر ويدمن لعبة القمار. وغاص في حياةٍ ملونةٍ بألوان اللهو والعبث والفساد والمجون، إلى أن وصل به الأمر لتعاطي المخدرات بل والاتجار فيها، ومن ثم سرقة المنازل والسيارات. كل هذا وهو لم يبلغ الواحد والعشرين من عمره بعد. واستغرقت هذه المرحلة المظلمة خمس سنواتٍ كاملةٍ من حياته، حتى وقع هو ورفاقه في قبضة الشرطة. فأ صدروا بحقه حكمًا مبالَغًا فيه بالسجن لمدة عشر سنوات بينما لم تُجاوِز فترة السجن للبيض خمس سنوات.

هناك في سجن "تشارلز تاون" تعرف مالكوم على أولِ شخصيةٍ مؤثرةٍ في حياته وهو "بيمبي" الذي زعزع قواعد الكفر والإلحاد في نفسه ووجَّه نظره تجاه الدين وعظيمِ أثرِه على النفس. كما نصحه بيمبي بالتعلم والقراءة فحرص مالكوم على التعلم في السجن وبالفعل تعلم اللغة اللاتينية.

إسلام مالكوم وتغيير حياته

نُقِل مالكوم بعد ذلك إلى سجن "ينورفولك"(أم نيورفولك) وزاره أخوه "ويجالند" ليخبره أنه أسلم وأنه انضم إلى حركة "أمة الإسلام" بزعامة "إليجا محمد". وهي حركة عنوانها الإسلام ولكن منهجها ضلال، خُدِع فيها الأمريكيون المسلمون ابتداءً، وفي الأخير هَدى اللّه مَن هَدى وحقت الضلالة على من حقت عليه.

فقد كان إليجا محمد يدّعي أنه نبيٌّ مرسلٌ من عند اللّه للسود فقط! وقد لعبت أسرة مالكوم دورًا كبيرًا في إقناع مالكوم إكس بالدخول في الإسلام. وفعلًا استجاب مالكوم بإعلان إسلامه.

"أمة الإسلام" وأثرها في حياة مالكوم

وفي السجن وُلِد مالكوم من جديد، لقد توقَّف تمامًا عن التدخين وأكلِ لحم الخنزير، وعكف على القراءة والاطلاع والبحث إلى درجة أنه التهم مئات الكتب في شتى صنوف العلم والمعرفة فأسس لنفسه ثقافةً عاليةً مكنته من استكمال جوانب النقص في شخصيته فضلًا عن استدراك ما تميّز به من نبوغٍ وذكاءٍ في طفولته.

واستمر مالكوم حريصًا على تثقيف نفسه وعلى القراءة لأكثر من ١٥ ساعة يوميًا حتى أنه قرأ في التاريخ والفلسفة والدين. وتألقت لديه روعةُ الخطابة وبدأ في دعوة زملائه بالسجن لدخول "أمة الإسلام" واشتهر بينهم بأسلوبه الرائع في الخطابة.

كان لدخول مالكوم الإسلام تغييرٌ جذري تحسنت به أخلاقه، وسَمَتْ شخصيته، ولَفَتَ سلوكُه القويم إدارة السجن، وكذلك نشاطُه في إلقاء الخطب والمناظرات داخل السجن للدعوة إلى الإسلام. حتى صدر بحقه عفوٌ وأُطلِق سراحه وربما كان ذلك كي لا يستمر

عَلَمنا في دعوته المساجين للإسلام. وبحكم مخالطته لأنواع المساجين وقساوسة السجن، فقد كسب مالكوم قوةً في فن المحاورة والمناظرة. وكانت تجربةً غنيةً وقفزةً حقيقيةً للأمام للشاب المُلهَم والمُقبِل بهمةٍ عالية.

خرج مالكوم من السجن سنة ١٩٥٢م ولكن مَنْ خرج لم يكن ذاتَه مالكوم إكس الذي دخل السجن، لقد خرج بروحٍ جديدةٍ وكأنه وُلِد من جديد، فانطلق بتعطشٍ وشغفٍ يوسّع معرفته بتعاليم إليجا محمد، وحتى يتعلم عن كثبٍ حياة الإسلام، سافر إلى أخيه في ديترويت، وذهب إلى المسجد، فتعلم الفاتحة، وتأثر كثيرًا بأخلاق المسلمين، وفي المسجد شد بصره عبارتان الأولى تقول: "إسلام: حرية، عدالة، مساواة"، والأخرى مكتوبة على العلم الأمريكي، وهي: "عبودية، ألم، موت". فوقعت في قلبه وشعر بعمق معانيها وصدقها.

في بداية مشوار الاكتشاف للدين الإسلامي، قابل "مالكوم إكس" إليجا محمد زعيم حركة أمة الإسلام والتي انضم إليها لاحقًا، والتي كانت تَخفى عليه حقيقة ضلالها. وقبل أن يصل مالكوم لهذه الحقيقة، أصبح منشغلًا بدعوة الناس، يخاطبهم باللغة التي يفهمونها؛ فاهتدى على يديه كثيرٌ من السود، وزار عددًا من المدن الكبرى، وكان همُّه الأول هو "أمة الإسلام".

تزوج مالكوم إكس في عام ١٩٥٨م ورُزِق بثلاث بنات، سمَّى الأولى عتيلة، على اسم القائد الذي نهب روما، ثم بدأ صيته يعلو وخاصة مع نهاية عام ١٩٥٩م فقد بدأ يظهر في وسائل الإعلام الأمريكية كمتحدث باسم حركة أمة الإسلام، وظهر في برنامج بعنوان: "الكراهية التي ولدتها الكراهية"، فلمع نجمُه وأقبل عليه الناس، وتناولته الصحافة، وزاده هذا همةً فشارك في الكثير من المناظرات التلفزيونية والإذاعية والصحفية؛

فلفت إليه أبصار السلطات الأمنية أيضًا خاصةً بعد عام ١٩٦١م،وبدأت في ذلك الوقت موجةُ تعلُّم اللغة العربية بين أمة الإسلام؛ لأنها اللغة الأصلية للرجل الأسود.

فوثق إليجا محمد أكثر في مالكوم إكس وتوسَّم فيه النباهة والقيادة وقدرة الإقناع؛ فجعله في مجلس إدارة الحركة، وكلفه منصبَ إمامٍ لمعبد رقم ٧ بنيويورك. وهنا برزت قدرات مالكوم الدعوية الفائقة الذي استهدف تجمعات الناس في الجامعات والحدائق والسجون وغيرها.

اكتشاف الإسلام الصحيح

ولكن لأن اللّه مخزي الظالمين، في بداية الستينات اضطربت حياة مالكوم وتزايد قلقه بعد تنامي أخبار عن علاقات مشبوهة لزعيمه اليجا محمد. وتأكده أن زعيمهم الروحي، لديه عددٌ من الأبناء غير الشرعيين. فبدأت قناعة مالكون تترسخ في فراق صاحبه!

وتوازى هذا التغيير مع قرار مالكوم إكس في الذهاب إلى الحج، وهنا أقبل عَلَمنا على موعدِ منعطفٍ خطيرٍ في مسيرته وكان ذلك في عام ١٩٦٠م/ ١٣٧٩هـ، إذ التقى مع العلماء والمشايخ في بلاد الحرمين، وعلِمَ أن حركة أمة الإسلام خارجةٌ عن دين الإسلام بما تعتقده من ضلالات.

وتعلَّمَ الصلاة كما يجب أن تكون، فإنهم لم يكونوا يصلُّون أبدًا في جماعة أمة الإسلام. وحين رأى مشهد الكعبة المشرفة افتتن بقداسة المنظر، ومكث ١٢ يومًا رأى فيها إسلامًا مختلفًا عن الذي سمع عنه ونادى به في السنوات الماضية.

لقد شده كثيرًا منظر المسلمين على اختلاف ألوانهم، من أبيضَ وأسودَ وأصفرَ وأحمرَ، جميعُهم يجلسون جنبًا إلى جنب في الحرم المكي يؤدون العبادة ذاتها لربٍّ واحد، سواسيةً كأسنان المشط لا عنصريةَ تفرقهم ولا كِبْرَ يصنفهم.

غيّر مالكوم اسمه ليصبح الحاج مالك شباز والتقى بالملك فيصل آنذاك والذي أطلعه على الكثير من روائع الإسلام ونبهه أكثر من الوقوع في طرق الضلال، وبعدها زار عددًا من الدول الإفريقية الأخرى. ليتعلم خلال ١٢ يومًا فقط ما لم يتعلمه طيلة سنوات عمره الـ ٣٩ الماضية.

وكانت زيارة مالك شباز إلى البلدان الإسلامية بهدف تعلُّم كل ما يتعلق بالإسلام وقد زار مصر والسودان والحجاز، والتقى مع شيخ الأزهر ومع الشيخ محمد حسنين مخلوف مفتي مصر، ثم عاد لأمريكا وأعلن إسلامه من جديد، وبدأ مرحلةً جديدةً وخطيرةً وأخيرةً من حياته.

جماعة أهل السنة

بعد سنةٍ كاملةٍ عاد عَلَمنا في ١٩٦١م/ ١٣٨٠هـ، لأمريكا ولكنْ هذه المرة لنشر الدعوة والعقيدة السليمة، ورغم محاولته إقناع إليجا محمد بالحج، إلا أن الأخير رفض بتاتًا نصيحته وطرده من الحركة، ومن هنا أسس مالكوم جماعته الجديدة وأطلق عليها اسم "جماعة أهل السنة"، وأخذ في الدعوة للدين الصحيح، فانضم إليه الكثيرون، ومن أوَّلهم: والاس بن إليجا محمد نفسه.

وبهذا الإعلام، كان مالك شباز أول من أسس المذهب السني في الأراضي الأمريكية وأول من فضح ضلال إليجا محمد وحذر من دعوته، وبدأ بالمقابل بدعوة الشباب من

جديدٍ للإسـلام الحق وبالفعل استجاب له الكثيرون، وأسـلم على يديه جماهيرُ غفيرةٌ كان من بينها: الملاكم الشهير محمد على كلاي.

فأعلن إليجا محمد العِداء الحادّ لمالكوم وهدده بالقتل، فواجه حملةً إعلاميةً شـرسـةً لتشويهه، ولكنها لم تزِدْه إلا إصرارًا على المُضِي قدمًا في دعوته وهنا برز الدور القبيح للصحافة الأمريكية التي سبق وأن فتحت الباب على مصراعيه لمالكوم حين كان يدعو لعقيدةٍ فاسـدةٍ ضـالةٍ ولكن ما إن اسـتقام واتزن وبدأ يدعو لدين الله الحق، وعقيدة الإسلام السليمة، حتى أغلقتْ عليه الباب واشتركتْ مع إليجا محمد في التضييق على داعيتنا الإسلامي ومهاجمته.

اغتيال مالك شباز

تجاهل مالكوم تمامًا تهديدات إليجا واستمر في دعوته يجذب الناس إليه بعبقريته في الخطاب والدعوة والإقناع والإلهام حتى كان يوم ١٨ من شـوال سـنة ١٣٨١هـ/ ٢١ من فبراير ١٩٦٥م، وهو اليوم الذي أطلق فيه ثلاثةٌ من الشـبان السـود النار على مالك شـباز أثناء إلقائه لمحاضـرة في جامعة نيويورك، فمات على الفور، وكان في الأربعين من عمره، وكان ذلك بعد أن نشـبـث مشـاجرةٌ في الصـف التاسـع من الحضـور التفتَ إليها الجميع لينتهز الفرصةَ هنا القتلةُ ويصوبوا نحوه أكثر من ١٥ رصاصةً في صدره.

وكانت عملية اغتياله نقطةَ تحوُّلٍ فاصـلةً في مسـيرة حركة أمة الإسـلام، فقد كشـف حادث الاغتيال فسـادَ هذه الحركة وتركها الكثير من أتباعها ليلتحقوا بجماعة أهل السنة، وعرفوا الدين الحق. فكانت دماء مالك شباز نورًا للمُضَلِّلين وسبب هداية.

ولأن المكر السـيء لا يحيق إلا بأهله فما لبث أن مات إليجا محمد وبموته تغيرت أفكار الحركة، وتولى والاس بن إليجا محمد رياسـتها، وتَسَـمَّى بوارث الدين محمد، وقام بتصحيح أفكار الحركة تمامًا، وغيَّر اسمها إلى "البِلاليين" نسبة إلى بلال بن رباح.

وهكذا انتهت قصةُ رجلٍ عظيمٍ رحل بعدَ عملٍ عظيمٍ ليلقى ربه شهيدًا مخضبًا بدمائه، ولكنه ترك من خلفه أثرًا عظيمًا، ويكفي أنه أجبر الحكومة الأمريكية على الاسـتجابة لطلبه بالموافقة على إعطاء السود حق التصويت في الانتخابات وشطب كلمة "نيجرو" أي أسـود من السـجلات الأمريكية للأبد. من أقواله الخالدة. "على الوطنية ألا تعميَ أعيننا عن رؤية الحقيقة، فالخطأ خطأٌ بغضِّ النظر عمّن صنعه أو فعله".

"لا تستطيع فصل السلام عن الحرية، فلا يمكن لأحدٍ أن ينعم بالسلام ما لم يكن حرًّا".



عبد الحميد كشك

" إن لم نحيا على هذه الأرض بكرامة فمن الأفضل أن نعيش في باطنها! "

الشيخ عبد الحميد كشك

تميز بعمق إحساسه بهموم المسلمين، وشدة الحرص على تحسس الأمراض والأخطار التي تتربص بأمة الإسلام، فضلًا عن السعي الحثيث لمداواتها وتأمينها والرقي بحضارتها وإقامة عدالة الإسلام الزاهرة تستظل بها.

لا ريب أنه من أكثر الدعاة والخطباء شعبيةً في الربع الأخير من القرن العشرين كيف لا وقد حمل المسجد الذي كان يخطب فيه خطب الجمعة اسمه، وكذلك حمل اسمَه الشارعُ الذي كان يقطن فيه بحي حدائق القبة. وانتشرت شرائطه المسجلة في بيوت المسلمين في مصر وفي سائر البلاد العربية وقد جذبت المستمعين بصيرتُه وقدرته على ملامسة واقع حياتهم ومعالجة همومهم.

نشأته

وُلِد الشيخُ كشك بمصر في ١٠ مارس عام ١٩٣٣م في قرية شبرا خيت من أعمال محافظة البحيرة. فنشأ في أسرةٍ فقيرةٍ متواضعة.

أُبتلي في صغره بفقدان بصره فكان الضرير الصغير، وكان ذلك لمَّا بلغ السادسة من عمره إثر رمدٍ صديديٍّ أصابه في عينيه أفقده بصره في السابعة عشرة من عمره، لكنه حفظ القرآن الكريم ولم يبلغ الثامنة من عمره، وحصل على الشهادة الابتدائية وأردفها بالشهادة الثانوية الأزهرية التي حاز عليها بتفوقٍ وكان ترتيبُه الأول بنسبة ٩٩% ليُتِمَّ مشواره التعليمي بالالتحاق بكلية أصول الدين التي حاز على شهادتها بتفوقٍ أيضًا وجرى تكريمه على مستوى جمهورية مصر.

طرق أبواب الخطابة في أوائل الستينات حين عُيّن رسميًا خطيبًا في مسجد الطيبي التابع لوزارة الأوقاف بحي السيدة بالقاهرة وكان ممثل الأزهر في عيد العام ١٩٦١، ومن ثم اعتلى منبر مسجد عين الحياة بشارع مصر والسودان في عام ١٩٦٤ في منطقة دير الملاك فقام على ثغره المحبب، والذي برع فيه، الخطابة.

وفي عهد الرئيس جمال عبد الناصر ناله ما نال صفوف الإسلاميين من محنة الاعتقال، فأُودِع في سجن القلعة عام ١٩٦٦، ثم منه إلى سجن طرة ثم أُطلق سراحه عام ١٩٦٨ لكن بعد أن أَثخن فيه التعذيب.

شدته في الحق

ورغم الأذى والتضييق الذي عانى منه الشيخُ إلا أنه بلغ ذروة النشاط في عام ١٩٧٢ فبدأ يكثف خطبه حتى ذاع صيته وانجذبت الجماهير لحضور الصلاة عنده في حشودٍ هائلةٍ تعكس مدى تعلق الناس بخطيبهم. وما كان لمثل هذا الخطيب المفوَّه إلا أن يواجه قُوى النظام المعتدية وبدأت المصادمة على أشدها في عام ١٩٧٦ على إثر معاهدة كامب ديفيد والتي أثارت غضب واستياء عَلَمنا فاتَّهم الحكومة بالخيانة للإسلام وصَدَعَ بالحق يعرض صور الفساد في مصر في كل مجالات الحياة. فاعتُقل في عام ١٩٨١ مع عددٍ من المعارضين السياسيين فيما يُسَمى قرارات سبتمبر الشهيرة للرئيس المصري أنور السادات، وبعد عام أُفرِج عنه، لكنه مُنِع منعًا باتًا من الخطابة أو إلقاء الدروس إلى غاية وفاته، كما طُلِب منه أن يفتي بما يوافق الساسة في ذلك الوقت ولكنه أبى.

وصلت الشيخ كشك العديد من العروض المغرية ليرحل من ديار مصر، ولكنه رفضها ولم يُقدِم على الخروج إلا لأداء فريضة الحج في عام ١٩٧٣م. وكان ذلك الوقت ذهبيًا للشيخ فقد تفرغ للتأليف منذ ١٩٨٢ إلى ١٩٩٤ حتى بلغت مؤلفاته ١١٥مؤلفًا.

ميراث الشيخ الضرير

١٢ عامًا كاملة خرج بها بِدُرَرٍ وذخائرَ ما زالت تزخر بها المكتبة الإسلامية وقد ألف عن قصص الأنبياء وعن الفتاوى كما أتم تفسير القرآن الكريم ليخرج (في رحاب القرآن)، تميزت مؤلفاته بأسلوبه الأخَّاذ الذي يلامس الوجدان ويحرك المشاعر، إذا خطب أسر قلوب سامعيه وألهب مشاعرهم، إذا حذَّر وأنذر فاضت دموعهم وإذا أضحك وانبسط، انبسطت أساريرهم وضحكوا على سخريته البليغة.

ولا ننسى أن نضيف إلى جانب هذا العطاء في التأليف ما بلغ قرابة ألفي شريط كاسيت فيها أكثر خطبه التي تُعَد جملة الخطب التي ألقاها وهو يعتلي منبر مسجد عين الحياة كان ميراث الشيخ الضرير.

ورغم بعض الانتقادات للشيخ بسبب إيراده بعض الأحاديث الضعيفة والتي قد تكون أحيانًا موضوعةً، إلا أن هذا لا يمحو بحر حسناته ولا يخرج من دائرة لكلِّ فارسٍ كبوة.

لم يكن هذا الجهد من عَلَمنا بالسهل وهو يفتقد للبصرا فلنا أن نتأمل هذه الهمة المُسابِقة كيف لو أوتِيَت بصرًا سليمًا!! لقد كان الشيخ كشك يحمل البصيرة التي أنارت له الطريق، وفكرًا إصلاحيًا، تجلى في آرائه الإصلاحية للأزهر ومن أفكاره في هذا الشأن رؤيته أن يكون منصب شيخ الأزهر بالانتخاب لا بالتعيين وأهمية عودة الأزهر إلى مكانته القديمة، قبل قانون التطوير عام ١٩٦١ وألا تتعدى مجالات الدراسة فيه الكليات الشرعية وهي أصول الدين واللغة العربية والدعوة، ذلك أن الشيخ كان يرى أهمية أن تبقى الوظيفة الرئيسة للأزهر هي تخريج دعاةٍ وخطباء للمساجد ليسدوا الثغر فيما يفوق مئة ألف مسجدٍ في مصر.

ولأن المسجد لا يمكن أن يكون للعبادة فقط، فكان يحرض على أن تصبح المساجد مناراتٍ يهتدي بها الناس فكريًا واجتماعيًا، وترتقي بها الأمة في جميع المجالات.

لا شك أن المستمع لخطبه لامس ذلك الإحساس العميق والحب العظيم للإسلام والقدرة الهائلة على استخراج المعاني واستنباط الفوائد وتقديم الخطب تقديمًا جذابًا مؤثرًا هادفًا بنَّاءً. والأهم من ذلك شدة قربه من الشارع ومن الهموم اليومية للعامة، فأحبه الناس في بلاد المسلمين كافةً، وبقي اسمُه عَلَمًا تفخر الأمة بأمثاله.

ولعل السر في تميز واشتهار عَلَمنا هو أداؤه لرسالة المسجد التي كان يَعُدُّها أهمَّ رسالةٍ في قلب الأمة الإسلامية، والمجتمع المسلم، فلم يكن ينظر إليها كوظيفةٍ يسترزق منها أو منصبٍ يتطلع إليه لترقية، بل بذل جهده ووقته في أن يجعل دارًا للعبادة، ومدرسةً للتعليم، ومعهدًا للتربية، ومأوًى للمحتاجين والمساكين، وسَوطًا لتأديب الخارجين... وقد وصفه (جيلزكيبل) رجل المخابرات الفرنسي قائلًا: (نجح كشك في إعادة رسالة المسجد في الإسلام، فقد تحول مسجده إلى خلية نحل تكتظ بحشود المصلين).

ثم من جهةٍ أخرى أسلوب الشيخ في الخطابة والذي ازدان بكلماته الساخرة العميقة اللاذعة وعباراته الطريفة الظريفة الرائعة، مسنودةً ببديع الشعر وظريفه وجميل القصص ومضارب الأمثال، فكانت خطبه تطرد الملل وتشد انتباه السامع، وبهذا الأسلوب تمكن من الوصول إلى طبقات الناس كافةً على اختلاف ثقافاتهم ومعارفهم ولهجاتهم ففُتِحت له قلوبُهم ولاقت دعوتُه قبولهم.

مقتطفات من خطب الشيخ

وفيما ههنا مقتطفاتٌ من خطبه الشهيرة:

قال الشيخُ عبد الحميدِ كشك رحمه الله: (لقد التقيت بأحد رجال بورسعيد. يوم الإثنين الماضـــي ورأيته حزينًا. قلت ســـبحان الله. مالي أراك حزينًا؟ أتدرون لماذا يحزن؟ لأن الأهلي أحرز هدفًا في المصـــري. فأردت أنا الآخر أن أدخل معه في نقاش حتى أثبت له أنني لســت رجعيًا. قلت له: ماذا فعل " زيزو"؟ وماذا كان موقف "الخطيب "؟ وما رأيك الشـخصـي في "سـيد عبد الرازق "؟ وماذا تقول في " حسـن شـحاتة "؟ فقال: يا سـي الشيخ. إنك عندك معلومات تمام. فقلت: أبدًا.

ولمّا رأيت الجهل في الناس فاشيًا *** تجاهلت حتى قيل إني جاهـل

فوا عجبًا كم يدّعي الفضل ناقصٌ *** ووا أسفًا كم يُظهِر النقص فاضل).

من خطبةٍ أُلقِيَت يوم ١٩٧٨/٣/١٧م

وقال في مقامٍ آخر: (احذروا الغزو الثقافي. احذروا الغزو الثقافي الأمريكي والصهيوني عندما عرضــوا مســلســل العقاد "عباس محمود العقاد" عندما عرضــوا مســلســله في المُفسـدِيون. لم يعرضـوا لعبقريةٍ محمدٍ. ولا لعبقرية عمرَ. ولا عثمانَ. ولا عليٍّ. ولا خالدٍ. إنما أظهروه أمام شبابنا بمنظرٍ مؤ سفٍ ومخجل. العقاد كاتبٌ إ سلاميّ، كتب العبقريات، كتب عن الرسول محمد، كتب عن أبي بكر، وكتب عن عمر، وكتب عن عثمان، وكتب عن علي، وكتب عن خالد... كتب عن الله، كتب عن قضية الألوهية. ولكن لما أراد المفسديون المصــريٍّ أن يعرض العقاد لم يعرضْ لعبقرياته، ولا لكتبه الإســلامية، إنما عرضــه على أســاس أنه (حبوب)، وعلى أنه (روميو)، وعلى أنه شــابٌ مراهقٌ، يحب فتاةً اســمها " سارّة " ويحب أخرى اسمها "مَيْ" إلى غير ذلك.

عرضــوا العقاد على أنه ســاقط. على أنه "حبوب"، على أنه شــاب رقيع، لا شـغل له إلا النسـاء، إلا المشـي مع النسـاء، ليقولوا لشـبابنا: يا شـباب مصـر: خذوا القدوة من عباس

العقاد، كونوا على صلةٍ بالفتيات، وعلى صلة بالنساء. أهذا هو العقاد؟ أتلك هي القدوة؟ أهذه هي التربية؟).

وقال أيضًا: (إنني أقول بأعلى صوتي. إذا أردتم حماية الأموال العامة. فأغلقوا الخمارات، أغلِقوا شارع الهرم، أغلقِوا صحارى سيتي. أغلِقوا صالات القمار، مُروا النساء أن يخرجن محتشمات. إن شيخ الأزهر لم يستطِع حتى الآن أن يطهر ميدان مسجد الإمام الحسين مما يرى حوله، أمر بذلك فلم يسمعْ لأمره كلام... وأُقْسِم بالله لو كنت مكانه لَلَزِمْتُ بيتي حفاظًا على كرامة الإسلام. ميدان الإمام الحسين تُرتَكب فيه الجرائم باسم الدين.) من خطبةٍ أُلقِيَت في ١٩٧٣/١٢/٢١ م.

كذلك كان الشيخ قدوةً في حياته فلم يكن بذلك المتبذِّخ أو الراكض خلف مُغرِيات الدنيا بل جذب الناسَ زهدُه وتواضعُه وورعُه. هذا دون أن ننسى صموده أمام النظام وحملات الاعتقال وثباته على مبادئه لم يبدل ولم يتاجر بدينه وظلَّ آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر داعيًا إلى الله.

وفاته رحمه الله

وحين بلغ الثالثة والستين من عمره آن أوان رحيل تلك الهمة المُثابِرة، وآن لذلك الجسد أن يرتاح ولذلك البصر أن يهنأ، وقد لقي ربه وهو ساجدٌ قبيل صلاة الجمعة في الخامس والعشرين من رجب ١٤١٧هـ الموافق ٦ ديسمبر ١٩٩٦م، وهي ما نحسبها حُسنَ خاتمة، فرحم الله الشيخ العَلَم الخطيب وأسكنه فسيح جناته ورضي عنه. ولمزيد معرفةٍ بعبقرية الشيخ كشك أنصح بقراءة (قصة أيامي، مذكرات الشيخ كشك).



عبد الكريم الخطَّابي

”الاستعمار يموت بتحطيم أسواقه الاقتصادية، ويُدفَن بسلاح المجاهدين.“

عبد الكريم الخطابي

من المغرب، تستمر البطولاتُ الإسلامية في البزوغ، طيف المرابطين ودولة الأدارسة، حفيد طارق بن زياد ويوسف بن تاشفين، سليلُ مجدٍ تليدٍ أبى أن يخنعَ للغزاة الطغاة، إنه الأمير محمد عبد الكريم الخَطّابي، مَنْ حفرتْ في سيرته مواجهةُ الا ستعمار دروسًا لا تزال الأجيال المتوالية تتعلم منها وتفخر بها وتتعجب لتلك العبقرية التي حظِيَ بها عَلَمنا الصنديد.

نشأته

هناك في أحد البيوتِ الدافئة بإسلامها في بلدة أغادير في الريف المغربي شمالَ شرق البلاد في أحد أيام عام ١٣٠١هـ الموافق ١٨٨٣م وُلِد عبد الكريم، وهناك أيضًا نشأ وترعرع، وقد اعتادت أقدامه الصغيرة الذهاب في كلِّ يومٍ إلى درس القرآن واللغة العربية إلى أن اشتدت ساقُه وبلغ أَشُده فأرسله والده إلى جامعة "القرويين" في مدينة "فاس" عاصمةِ العلوم ومركز الحضارة في المغرب، فتلقى علوم الحديث والفقه الإسلامي ليبرع فيها ويتميز بها، ويُتوِّجَ هذا الصبر والبذل في سبيل العلم بأن عُيِّن قا ضيَ قضاةٍ ولم يُجاوِز الثلاثين من عمره.

في تلك الأثناء التي كان فيها عَلَمنا منشغلًا بثغره، يقضي بالعدل وينصح بشفقةٍ ويدعو الناس لله، كانت على أحد موائد اللئام تدور تفاصيلُ مؤتمرٍ، يُسمَّى مؤتمرَ الجزيرة الخضراء، عام ١٩٠٦، تحضره اثنتا عشرَ دولةً. وفي هذا المؤتمر سجل التاريخ أولَ ظهورٍ لأمريكا لتنضم إلى الاتفاقات الدولية بعد أن كسرت طوقَ العزلة ونقضت عهدها بعدم التدخل في السياسات الدولية، وهو ما عُرِف بمبدأ مونرو.

وتجمَّعت الدول الجَشِعة الطاغية، التي اتخذت من الاستعمار وسيلةً لبقائها وتعميق بطشها وظلمها، لتخرج بقرار تقسيم بلاد المغرب الإسلامي؛ تقسيمٌ يعكس تلك العقلية الشيطانية والمكر الداهي الذي امتاز به الغرب، لإذلال الشعوب وسلبها حرياتهم وحقوقهم باسم الحقوق.

فغاصت السِّكِّينة في أراضي المسلمين واقتطعت القسم الجنوبي من مملكة المغرب لتأخذه فرنسا، وانفصلت فيما بعد موريتانيا عن مملكة المغرب الكبرى. ونزلت إلى الشمال من الصحراء لتظفر بمنطقة وسط المغرب الحالي. أما إسبانيا فحازت القسم الذي يليه في الشمال وأسمته الصحراء الغربية. واقتطعت من الساحل الشمالي للمغرب أيضًا وهي منطقة الريف المغربي. ووُزِّعت بقية المدن على كل من ألمانيا وبريطانيا وهكذا تقاسم بلادَ المسلمين السارقون بكل وقاحة. وليست السرقةَ الأولى!

طريق الجهاد

لا شك أن مثل هذا الحدث العظيم قد وقع في قلوب المسلمين وعلى رأسِهمُ الشيخُ عبد الكريم الخطَّابي، الذي فزع لثغر الإعداد، والتوعية والتحريض، إلى جانبه ابنه محمدٌ ولتتجلى عبقريته النافذة، فقد عَلِم أول أسباب الانتصار، وهو وحدة الصف الداخلي، فقام بتأليف قلوب القبائل المتناحرة وتجميعهم تحت راية الإسلام، وسارع لمراسلة الخليفة العثماني آنذاك سعيًا في دحر قُوى الاحتلال.

عبقرية "حروب العصابات"

وبتفرسٍ في طبيعة المواجهة والقُوى في كِلا المعسكرين، معسكرِ الغزاة ومعسكر المسلمين، أبصر بطلنا طريقَ نورٍ يقود لباحات النصر، إنها حروب العصابات التي لا تزال

إلى يومنا الحاضر أكبرَ تحدٍّ يواجه الطغاة وأفضلَ وسيلةٍ يستعين بها الثوار على أنواع الظلم، لقد وضع عَلَمنا أسس حرب العصابات ونظمها تنظيمًا متقنًا، ودعمها باختراع نظام حفر الأنفاق الممتدة تحت الأرض، تلك الأنفاق التي تصل إلى غاية ثكنات العدو، فكان اختراعًا عظيمًا، استلهمه القادة في أصقاع الأرض، باعتراف الزعيم الفيتنامي "هوشي منه" الذي أكد أنه اقتبسه من الأمير الخَطَّابي في قتال الفيتناميين للأمريكيين بعد ذلك بسنوات.

وبهذا التخطيط الفذ وبهذه العبقرية العسكرية المبصرة، تمكن الخطابي من أن يثخن في الأعداء، وتلقى الإسبان الهزائم المتوالية، ودفع ذلك ملك إسبانيا إلى إرسال جيشٍ جرارٍ من مدريدَ تحت قيادة صديقه الجنرال سلفستري، ليتلقفه المجاهدون بقيادة بطلنا، وليسجل التاريخ معركة أنوال الشهيرة.

معركة أنوال

في أرضٍ مغبرةٍ، وتحتَ سماءٍ شاهدةٍ، التقى الجيشان بِقُوًى غيرِ متكافئةٍ، فقد كان جيش الخَطَّابي لا يتعدى ثلاثة آلاف مجاهد يمتشقون البنادق البدائية الصنع، أما جيش العدو فقد بلغ تعداده ستينَ ألف جنديٍّ بتمام عُدتِهم وعتادهِمُ العسكريِّ، فسطَّر أبطال المسلمين البطولاتِ ورُفِع ذكرُ آيةٍ عظيمةٍ تتكرر مع كل مشهدٍ يتواجه فيه الحق والباطل،" كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ"، ومكّن اللّٰه آساد الإسلام من قتلِ ١٨ ألفَ أسبانيٍّ، وأسر عشرات الآلاف، فانقلبت معركة أنوال لكارثة أنوال، يندب فيها الإسبانُ قتلاهم ومصيرهم إلى قابل الأيام.

قال صحفيّ أمريكيّ كان موجودًا آنذاك في ساحة المعارك يتابعها وهو "فانسن شين" وهو يحكي ما شهده: "دخلت على عبد الكريمِ في خندقٍ أماميٍّ والطائراتُ الإسبانية

والفرنســية تقذف المنطقة بحممٍ هائلةٍ فوجدته متبســمًا مرِحًا مُقبِلًا يقول الله أكبر ما أجمل وأحســن نفوس الصــالحين يضــرب ببندقيته الطائرات، فتعجبت من هذا الرجل الذي اســتطاع أن يحافظ على إيمانه وعقيدته في خضــم الظروف المحيطة به، وكنت أتمنى أن أمكث أكثرَ فأكثرَ مع هذا الرجل العظيم الذي تحيطه هالةٌ من الوَقار والجلال وأقارن به ســاســة أوربا التافهين المشــغولين بأمورٍ تافهةٍ فلا أكاد أجد وجهًا للمقارنة وتمنيت أن أظل أكثر مما ظللتُ مع هذه الظاهرة البشــرية الفريدة التي تأثرت بها أيَّما تأثر".

القضاء على وهم التدرج في إقامة الشريعة

وبعد هذا الانتقال الرائع من ذروة الضــعف إلى ذروة القوة، تجلت أهداف الخطابي من هذا الجهاد المؤزَّر، فقد أعلن عَلَمُنا إقامة إمارة الريف الإســلامية في شــمال المغرب الإســلامي، تلك الإمارة التي انبســطت على مســاحةٍ من ٢٠,٠٠٠ كم٢، واســتظل بحكمها نصفُ المليون من الأهالي، وعُمِل فيها بالشريعة الإسلامية، وارتقى فيها المجتمع وبرزت ملامح الحضارة الإسلامية الماجدة، فأُنشِئت المدارسُ والمستشفيات والمرافق التحتية فنَعِمَتْ الإمارة بعيشةٍ طيبةٍ، تحت سقف الإسلام العادل.

دامت خمسةَ أعوامٍ ذهبيةٍ، تعلم الناس فيها أســس دينِهمُ الإســلاميِّ الســليمة، وعرفوا طعم الحرية في توحيد خالقهم وعبادته وارتقَوا به من عصبية القبيلة إلى سَعَة الإسلام وتوحدت الصــفوف بغير عصــبياتٍ منتنةٍ، ولم يكتفِ الخطابي بهذا النجاح المحلي بل أرسل بعثاتٍ علميةً إلى دول العالم.

وما كان لمثل هذا النجاح أن يُســعِد الغرب ولا أن يرضــيَهم ومازالت مرارة الهزيمة على يديه تغص بها حلوقُهم في كل مرةٍ يشــاهدون ما آل إليه البطلُ المســلم الأشــم، وكانت

تربطهم تلك الأيام معاهدةُ هدنةٍ، فتآمروا عليه، وتربصــوا به حتى تمكنوا من أســره، وحكموا عليه بعشرين سنةً من القهر والأسر رغم كِبَر سنه. ولكنْ كان للقَدَر مقالٌ آخر.

وفاته رحمه الله

في عام ١٩٤٧، أعلن ملك المغرب محمدٌ الخامسُ اســتقلال المغرب، فحاول الفرنســيون الضغط على الملك بورقة الخطابي، وأصدر شارل ديغول أوامره بجلب الأمير الخطابي إلى باريس من منفاه بجزيرةٍ في مجاهل المحيط الهندي.

ولأن مشيئة الله غالبة، فقد مرت السفن من قناة السويس؛ وما إن و صلت للمكان وفي أثناء مرور الباخرة ببور سعيد طلب عَلَمنا النبيه حق اللجوء السيا سي من الملك فاروق، فا ستجاب له فورًا ليقيم في مصرَ بقيةَ أيامِه حتى وافته المنية في فبراير ١٩٦٣، ودُفِن في مقبرة الشهداء بالقاهرة.

أقواله المأثورة

مازالت كلمات عَلَمنا تتردد في ذاكرة تاريخ المغرب، ومنها قوله: لقد قتلنا الا ستعمار في الريف وما على الشعوب إلا دفنُه. وإذا لم تستطِع فلا عزاءَ لها. وقوله الذي أثبتت صدقَه تجاربُ مَنْ بعدَه: الاســتعمار يموت بتحطيم أســواقه الاقتصــادية، ويُدفَن بســلاح المجاهدين." فرحم الله عَلَمًا أعز الإسلام وأذل الكفار.



الأمير خطَّاب

" من عاش صغيرًا مات صغيرًا، ومن عاش لأمته عظيمًا مات عظيمًا. "

القائد خَطّابٌ

تردد اســمه في الخطب وفي الكتب وفي المقالات وفي كل جمعٍ ثائرٍ أو محرضٍ أو متفاخرٍ ببطولات المســلمين في عصــرنا، هذا إن لم نحسِــبْ عناوين الصــحافة والاستخبارات وتقارير جيوش الأعداء!

خطّابٌ عنوان الشــجاعة والقيادة، ســيرة النجاح وعلو الهمة، طريق الفلاح والجهاد، هو الرمز الذي على الأجيال أن تتذاكر ســيرته وتتفاخر بإنجازاته، وتتعظ من تضــحياته وعطاءاته.

من هو الأمير خطَّاب؟

اشتهر بالأمير خطّاب لأنه كان مولعًا أشد الولع بسيرة خليفة المسلمين عمرَ بنِ الخَطّاب رضي الله عنه، لكن اسمه الحقيقي هو ثامر بن صالح بن عبد الله السويلم العريني، من بلاد الحرمين، وُلِد عام ١٣٨٩هـــ الموافق ١٤ إبريل ١٩٦٩م في مدينة عرعر. سليلُ عائلةٍ اشــتهرت بالشــجاعة والشــهامة حتى أن جده عبد الله عُرِف في منطقة الأحســاء "بالنشمي" فورث تلك الخصال الحميدة من أصله النبيل.

أمه هي بنت إســماعيل بن محمد المهتدي، وهي تركية الأصــل ســورية المولد، هرب والدها من تركيا عند سقوط الخلافة الإسلامية واستيلاء كمال أتاتورك على تركيا ولعل هذا العِرق التركي كان حكمةً ربانيةً لِما ينتظر عَلَمنا مستقبلًا خلال سياحته في الأرض. مكث خطّابٌ في عرعر حتى انتهى من الصــف الرابع الابتدائي وعمره عشــرُ ســنوات، وتأثر بأسلوب والده في تعليم أبنائه مهارات التحمل والصبر على الشدائد، فقد حفرت في ذاكرة خَطّابٍ الصــبيِّ تلك الذكريات الرائعة لرحلاتهم الأســبوعية برفقة والده وإخوته إلى المناطق الجبلية لامتحان شدتهم وصلابتهم مقابل جوائزَ وحوافزَ مغريةٍ.

ولا تزال مشــاهد حلبات العراك والصــراع بينه وبين إخوته تتراءى في طيف طفولته حتى اشتدت سـواعدُهم وتسـربت القوة إلى وجدانهم، في هذه الآونة بدأت تظهر آثار النجابة والشجاعة على خطَّاب وتميز بصورةٍ لافتة.

ثم انتقل مع أســرته إلى مدينة الثقبة بالقرب من الدمام وهو وإخوته الأربع الذين كان في الترتيب أصـغرهم. وهكذا نشـأ خطَّابٌ في بيت يسـتضـيء بحب الإسـلام وتعظيم شــعائره يولي اهتمامًا كبيرًا بالشــريط الإســلامي والمجلة الإســلامية على غير عادة البيوت في ذلك الوقت.

وكما كان حال أكثر الشـباب في عمره، اقتصـرت أحلام خَطَّابٍ على أمل الحصـول على الوظيفة والرتبة العالية، لهذا كان يجتهد بجِد حتى عُرِف بتفوقه الدراســي وقد تخرج في الثانوية العامة في الفرع العلمي بمعدل فاق الــ٩٤ في النصف الثاني، وكانت أمنيته الابتعاث خارج البلاد، للدراســة وفعلًا تحققت أمنيته ودخل في ذلك النظام التدريبي واســتمر فيه قرابة النصـف عام فتميز من بين الطلاب في فصـله ونال إعجاب معلميه وزملائه ولكن لم تدُمْ هذه الحال طويلًا فقد قطعت أحداث أفغانسـتان طريق المسـابقة الدراسية لتنتقل بعَلَمنا إلى فضاء المسابقة العالمية.

فضلًا عن تفوقه الدراسي ونجابته الملحوظة، تميز خطَّابٌ بكرمه وجُوده الذي لا يُبارى، وقد شهد له إخوانه وأ صحابه بذلك في مواقفَ عديدةٍ لا يمكن أن تُحـصى، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، قصته مع الرجل السوداني الذي تعطلت سيارته وهو متجه إلى المطار، فلما لقِيَه خطَّاب أوصـله إلى وُجهته وتكفل بسـيارته، وكان الرجل قد وافق ولكنه أضمر الخوف على سيارته كونه لا يعرف خَطَّابًا.

وبعد أن سافر متوكلًا على الله، رجع من سفره فوجد سيارته قد أُصلِحت وبانتظار عودته، فتفاجأ من خَطَّاب، وحين طلب أن يدفع له المال الذي صرفه لإصلاحها، رفض خطابٌ رفضًا شديدًا، مع العلم أن مال التصليح كان مقترَضًا، وخرج الرجل من بيت خطَّاب ووجهه يتهلل فرحًا وعجبًا.

وكذلك تعددت مواقف الشجاعة والانتصار للمستضعفين، وكم من موقف سُجِّل له وهو ينبري بنفسه ليرد ظلمًا عمن لا يعرف، ويضع حدًا لمن يهابه الناس.

تلبية نداء الجهاد

ومرت تلك السنوات والذكريات كالسهم حين حل الموعد المصيري، فبعد أن تعلم خطابٌ اللغة الإنجليزية وأعدَّ العُدة للدراسة في الثانوية الأمريكية، في عام ١٩٨٧، وبدأت أحلامه تطرق باب الحقيقة، كان حدثٌ جللٌ يشغَل العالم في أرض أفغانستانَ المسلمة، ووصل الجهاد إلى ذروته ضد الجيش الروسي الغازي، وفي الوقت الذي كان يتوجه فيه خطَّابٌ إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليواصل حياته في التعلم وحيازة الشهادات العلمية العالية، قرر قرارًا غيَّر به مجرى حياته، لقد توجه فؤادُ خطَّاب إلى ساحات الجهاد، والتحق بأصدقائه السابقين إليها، ومنذ ذلك التاريخ لم يرجع خَطَّاب أبدًا.

المحطة الأولى: جلال آباد

وطأت قدما الشاب الصغير عند وصوله لأول مرةٍ معسكر تدريبٍ في جلال آباد في أفغانستان، فما إن شاهد جموع المجاهدين تتجهز لعمليةٍ كبيرةٍ ضد الروس. حتى انضم للمتطوعين الذين يريدون القتال معهم، وكان ما زال في السابعة عشر من عمره،

له شـعرٌ طويلٌ ولحيةٌ لم يكتمل نموها بعد. ورغم إلحاحه البالغ على القائد ليرسـله إلى الخطوط الأمامية رفض قائد المعسكر رفضًا قاطعًا نظرًا لحداثة سنة وقلة تدريبه.

ومع مرور سـتٍّ سـنواتٍ تحول هذا الشـبل الصـغير إلى مقاتلٍ وقائدٍ من أشـجع وأبرع المجاهدين الذين عرفهم العالم في القرن العشرين.

لم ينبطح أمامَ قصـفٍ، ولم يُظهر جَزَعًا أو ألمًا بعد إصـابة! خاض كل أنواع الهجوم والقتال، وواجه القوات العادية الروسـية والخاصـة، كما شـهد أكثر العمليات الكبرى في الجهاد الأفغاني منذ عام ١٩٨٨ ومنها فتح جلال آباد وخوسـت وفتح كابل في عام ١٩٩٣ وقد شـهد له رفاقه بصـلابته وصـبره وقوة احتماله الشـيء الكثير. فضـلًا عن شـجاعته ومواجهته للأخطار بقلبٍ قويٍّ، يؤمن أنَّ ما أصـابه ما كان ليُخطِئه وأن ما أخطأه ما كان ليصيبه.

المحطة الثانية: طاجيكستان

هُزِم الاتحادُ السـوفيتي وخرج الروس يجرون أذيال الهزيمة بعد أن قُبِر اسـمُ دولتهم على ثرى أفغانسـتان بسـواعد الأنصـار والمهاجرين الذين باعوا أنفسـهم لله، فما إن وضـعت الحرب أوزارها حتى عاد من عاد وبقي من بقي، ولكن خَطَّابًا التفت لنداءٍ آخر من طاجيكسـتان، فهب برفقةِ ثلةٍ من أصـدقائه إلى ذلك الثغر في عام ١٩٩٣، ومكثوا هناك سنتين يقاتلون الروس في الجبال المغطاة بالثلوج ينقصهم الذخائر والسلاح.

وهناك فقد خطَّابٌ إصـبعين من أصـابع يده اليمنى، حين انفجرت قنبلة على يده، ورغم إصـابته البالغة والمؤلمة، إلا أنه اكتفى بعلاجها بالعسـل الطبيعي، ورفض العودة إلى بيشاور لتلقي العلاج، واستمر على تلك الحال يربط أصابعه برباط لم يفارق أصابعه إلى يوم اغتياله.

وبعد رباط سنتين في طاجيكستان عاد خَطّابٌ ومجموعته الصغيرة إلى أفغانستان في بداية عام ١٩٩٥م وزامن هذا التاريخ بداية الحرب في الشيشان. قال خطّابٌ معلقًا على أخبار الشيشان على شاشات التلفاز قائلًا: عندما رأيت المجموعات الشيشانية مرتديةً عصاباتٍ مكتوبًا عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله ويصيحون صيحة الله أكبر علمتُ أنْ ثمةَ جهادًا في الشيشان وقررت أنه يجب على أن أذهب إليهم.

المحطة الثالثة: الشيشان

وبهذا بدأت المرحلة الجديدة لخَطّابٍ بالنفير إلى أرض الشيشان التي لم يسبق أن وطأتها قدمُه وكان ذلك في ربيع ١٩٩٥م مع ثمانية من رفاقه، عرف خلالها أنها ساحةٌ جِدُّ أخطرُ بكثيرٍ من الساحة الأفغانية، إذ يقول المسؤولون في الجيش الروسي طبقاً لإحصاءاتهم أن عدد الجنود الذين قُتِلوا خلال ثلاث سنواتٍ من الحرب في الشيشان فاق أضعاف عدد الجنود الذين قُتِلوا خلال عشر سنواتٍ من الحرب في أفغانستان.

في هذه الأرض الباردة كان لعَلَمنا تاريخٌ حارٌّ زاخرٌ من الجهاد والتضحيات وفيها برزت عبقريته بروزًا يدفع للإعجاب، كان القائد العربي الأول، واليد اليمنى للقائد الشيشاني شامل باسَييف في عملياتٍ كثيرة في الشيشان وفي داغستان.

وحتى نفهم طريقة تفكير خَطّاب لنتأمل كيف قام-حتى تطمئن نفسه لقرار البقاء في الشيشان-بجولةٍ بين الناس وتقمص دور مراسل تلفزيوني فكان أن التقى بعجوز طاعنة في السن سألها: ماذا تريدون من قتال الروس؟ فقالت العجوز: نريد أن نُخرِج الروسَ حتى يرجع إلينا الإسلامُ، فسألها هل عندكِ شيء تقدمينه للجهاد؟ فقالت: ليس عندي سوى هذا "المعطف" أجعله في سبيل الله. فكان وقع الجواب على خَطّابٍ عظيمًا حتى أجهش بالبكاء وابتلت لحيته وقرر في لحظته البقاء بلا رجعةٍ في الشيشان.

ولأنه رجلٌ ذو بصيرةٍ وقياديٌّ محنك، جعل القيادة بيد الشيشانيين ليحفظ الصفوف من أي فتنةٍ تُخلخِلُها، وأصبح القائدُ الفذُّ تحت قيادة جوهر دودابيف القائد الشيشاني السابق، والذي كان معجبًا بشخصيته، ولا يزال جوابه الراقي على سؤال سأله إياه خَطَّابٌ حين قال: ما هو هدفكم من الجهاد يا جوهر دودابيف؟ فقال جوهر: كلُّ طفلٍ من القوقاز هجر إلى المهجر عشرات السنين يحلم أن يرجع الإسلام إلى أرضه.

وما زال التاريخ يسجل ذلك اللقاء الأول بين القائدين، حين قال جوهر دودايف لخَطَّابٍ حين تعرف عليه أول مرة: أنت أول عربيٍّ أقابله منذ بداية الحرب فأين أنتم؟ أين حكومات الدول العربية لم تعترف بنا؟ أَوَلسْنا مسلمين. ألم نعلنها دولةً إسلاميةً وطلبنا اعتراف إخواننا في الدول الإسلامية ولكنهم إلى الآن لا استجابة. فقال خطاب: فأطرقت برأسي خجِلًا ولم أستطع الرد عليه.

ولكنه استدرك بعرض ما جاء إليه وبسَطَ للقائد الشيشاني أفكاره وخططه وبرامجه وما يملكه من خبراتٍ قتاليةٍ وعسكريةٍ، فأُعجِب به جوهر ورحب به وقدم له كل التسهيلات لينطلق في العمل. ثم اغتيل جوهر دودابيف بعد ذلك ونجا خَطَّابٌ من محاولاتٍ لاغتياله بفضل الله.

بعد سنين من الجهاد والرباط والمنافسة للقاء الله، انسحبت القوات الروسية الغازية من الشيشان في خريف ١٩٩٦م فالتفت الشعب الشيشاني لبطلهم القومي خَطَّاب ومُنِح ميدالية الشجاعة والبسالة من قبل الحكومة الشيشانية. ورتبة لواءٍ واحتفلوا به في حضره القادة شامل باسييف وسلمان روديبف.

معهد القوقاز لإعداد الدعاة

لقد تمكن خَطَّابٌ من أن يستولي على قلوب المسلمين على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم الفقهية، فقد كان سلفيَّ العقيدة والمنهج ولكنه لم يكن متعصبًا، بل ناصحًا وداعيًا إلى اللّٰه مُشفِقًا، وكان مما سعى إليه بجِدٍّ إنشاء "معهد القوقاز لإعداد الدعاة" يُلزِم فيه الراغبين في الجهاد لدورةٍ علميةٍ مكثفةٍ لمدة شهرين، فأقبل عليه النافرون يطلبون العلم والجهاد، حتى وصل عددهم إلى ٤٠٠ طالبٍ جاؤوا من التتر وداغستان وطاجكستان وأوزبكستان والأنغوش وغيرها.

ولما لاحظ عَلَمنا درجة الشوق والإقبال لدى الشباب المسلم، أنشأ دارًا لتحفيظ القرآن، ووضع برنامجًا لإعداد الدعاة، وبرنامجًا آخر لإقامة محاضراتٍ في القرى، ودورةً للتعليم الأساسي، ودورةً لرفع مستوى الدعاة، وجعلوا لهم مُفتيًا مَرجِعًا يرجعون إليه في كل ما يستشكل عليهم، وهو الشيخ أبو عمر السيف الخالدي من منطقة الدمام بشرق السعودية.

وكما قال خَطَّابٌ: رأينا أثر هذا العمل على مجاهدين في تضحياتهم وبذلهم.

عبقرية خطَّاب ونظرياته الحربية

كيف نلخص تاريخ خمسة عشر عامًا تقريبًا قضاها خَطَّابٌ في جهادٍ متواصل، في مناطقَ مختلفةٍ من العالم الإسلامي، في أفغانستان، وطاجيكستان، وداغستان والشيشان، يستمد قوة المنهج من كتاب اللّٰه وسنة نبيه ويركَنُ لخبرةٍ متينةٍ متنوعة. متقنٌ لأربعةِ لغاتٍ، العربية والروسية والإنجليزية والبوشتو، دون أن ننسى شخصيته المثابِرة وهمته المسابِقة وعزيمته التي لا تُبارى! فأخرج بعد هذه الخمسة عشر فكرًا

جهاديًا ناضجًا، لقد أصبح مدرسةً ومنهجًا جهاديًا يُقتدى به وتُدرَّس نظرياته القتالية المشهورة، وهي ثلاث:

النظرية الأولى: التربية

وأساسها إنشاء محاضنَ دعويةٍ هي أساس الدعوة والجهاد في الساحة التي ينوي العمل فيها.

النظرية الثانية: التجهيز

والتي تُعَدُّ مرحلةً أساسيةً لا غنًى عنها، فكان يجهز عَتاد السَّنة قبلَها ويعتني بدقة الترتيبات، ويدخل في هذا الطعام والسكن والطريق والاستخبارات حول العدو وكل ما هو متصلٌ بحلقة العمل.

النظرية الثالثة: القتال

لا شك أن خبرته القتالية أصبحت عِلمًا يُدرَّس في المدارس العسكرية، وقد طالب بعض الخبراء العسكريين الروس أن تُدرَّس أفكارُه العسكرية في جامعاتهم، فرغم صغر مساحة الشيشان وانكشافها تكنولوجيًا وعسكريًا، إلا أن خَطَّابًا برع في التخفي بجنوده والحفاظ عليهم ونجح نجاحًا باهرًا أن يستهدف القوات الروسية ويلحق بها الخسائر الجسيمة.

وقفات مع القائد خطَّاب

إن القيادة في نظر خَطَّابٍ مرادفٌ لمزيدٍ من التضحية، والفداء لرجاله من كلِّ خطر، وما زالت ذكريات رفاقه تتألم كلما تتذكر كيف قام خَطَّابٌ برصد الطريق بنفسه لضمان

سـلامته وأمانه وسـهر الليالي الطوال المتواليات يفكر في أمر الجرحى والمرضـى والأصـحاء على حدٍّ سـواءٍ. ويقول من عايَشَ معه الخطر: في موضـع آخر: كان القائد العام يبحث لنا عن طريقٍ سـهلٍ علينا يحافظ فيه على قُوانا وطاقتنا فعرض نفسـه للخطر أكثر من أربعِ مراتٍ كل ذلك حتى يجنبنا الإرهاق وذلك بصعودِ جبلٍ شـاهق كان يعرف أنه سـيُنهِك قوانا لو سـلكناه أولًا فحاول الإبقاء على قوانا ولكن دون جدوى، فأمرنا أخيرًا بعد المحاولات مضـطرًا بالصـعود إلى الجبل الذي تجنبه أولًا. لقد اعتنى خطابٌ كقائدٍ بكل ما يحفظ وحدة الصف وكل ما يجنبه تضييع الوقت والطاقة والجهد، وكان يكرر ملمّحًا: "عجبًا لبعض الناس سـلِم منه الملاحدة والنصـارى ولم يسـلم منه إخوته المسلمون". فيسكّن الفتنة ويقطع دابرها في مهدها.

اغتيال خطَّاب

وحين عجز الروس عن الوصـول إليه لجأوا في عام ٢٠٠٢ م لوسـيلة جبانة قذرة وهي اغتياله عن طريق دس السـم. وقد اسـتعانوا لأداء ذلك بعميلٍ لهم كان قد نجح في الاندسـاس بين المقاتلين وسـلم خَطَّابًا رسـالةً مسـمومةً مات على إثر قراءتها بعد أن لامس السم جسده. وقد اختلفت الروايات في طريقة تسميمه ولكن النتيجة الأخيرة أن الاغتيال كان نتيجةَ سُمٍّ دُسَّ له غدرًا وخيانةً، وما لبثت أن تسربت أنباء استشهاده بعد وقوع شريط الفيديو الذي صوره المجاهدون لجثمان خطَّابٍ في أيدي القوات الروسية.

رحل خطَّابٌ القائدُ الفذُّ الشجاع ولكن كلماته لم ترحل، وما زالت أجيال المجاهدين التي تتخرج في معسـكرات التدريب تردد مقولته الخالدة: "من عاش صـغيرًا مات صـغيرًا، ومن عاش لأمته عظيمًا مات عظيمًا"، فرحمك الله يا أيها القائد المسلم البطل!



أحمد ياسين

"السر يكمن في الإرادة، وإيمان الإنسان بالمبدأ الذي يسير عليه، فالدنيوي يقول: لو أن الدنيا ذهبت فقد خسرتُ كل شيءٍ، لكن الإنسان المؤمن الذي يؤمن أنه ذاهبٌ إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض يريد أن ينتقل من دنيا فانيةٍ إلى الراحة والطمأنينة والاستقرار عند رب العالمين، فهو ينتظر هذا اليوم، ويستبسل ويقاتل من أجل الفوز في هذا اليوم، ويَثْبُتُ في الميدان حتى آخر رمقٍ في حياته."

الشيخ أحمد ياسين

عَلَمٌ من أعلام فلسطين الباذلة، بل رمزُ العزيمة والثبات وحامل مشعل الجهاد والإباء، لم يُعِقْهُ الشلل عن مواصلة المسير وإرهاب أعداء الدين، فكان غصةً في حلوقهم لم يشفِ غليلَهم سَجنُه فعمدوا إلى قصفه، فكان أن أحيَوا كلماتِه وذكره.

نشأته

هو الشيخُ أحمدُ إسماعيل ياسين أحد مؤسسي حركة حماس الفلسطينية في بداياتها، كان بمنزلة عصبها الروحي والسياسي المتميز الذي قامت به صفوف المقاومة الفلسطينية، ولا ريب أنه يُصنَّف أحد أهم رموز الجهاد الفلسطيني طوال القرن العشرين.

وُلِد في قرية جورة عسقلان في يونيو/ حزيران ١٩٣٦ وهو العام الذي شهد أول ثورةٍ مسلحةٍ ضد النفوذ الصهيوني المتزايد داخل الأراضي الفلسطينية. نشأ وترعرع يتيمَ الأب فقد مات والده وعمره لم يُجاوِز خمس سنواتٍ بعدُ، فواجه الحياة منذ طفولته عصاميًا، يعتمد على نفسه ويواجه التحديات بمفرده.

استمرت حياة أحمد ياسين في ظل احتلالٍ قمعيٍّ يهوديٍّ بشعٍ لأرض فلسطين المباركة، فكان لهذا الواقع المرير بالغ التأثير في شخصية عَلَمنا.

ويكفي أن نعلم أنه حين كان يبلغ من العمر ١٢ عامًا فقط شاهد بأم عينه الهزيمة العربية الكبرى المسماة بالنكبة عام ١٩٤٨ ليخرج منها بدرسٍ بل دروسٍ أثَّرت بعمقٍ في حياته الفكرية والسياسية ورسخت في ذاكرته قاعدة العصامية كحلٍّ وحيدٍ لحل القضية الفلسطينية، وأنه لا مفر من الاعتماد على سواعد الفلسطينيين أنفسهم بعد الله لاسترجاع الحقوق والتصدي للاحتلال الغاشم.

وأن السبيل الوحيد لكسر هذه الأغلال والتخلص من العدوان اليهودي هو سبيل التوبة والأنفال، عن طريق تسليح الشعب الفلسطيني والعمل با ستقلالٍ وا ستغناءٍ عن كل ما يُسمَّى دولًا عربيةً مجاورةً أو مجتمعًا دوليًا متآمرًا دأبُهُمُ الخذلان والإتجار بالقضية الفلسطينية إن لم يكن الخيانةَ والبيعَ بثمنٍ بخسٍ.

ولنتأملْ كلمات الشيخِ أحمد ياسين، وهو يتحدث عن تلك الحقبة بوعيٍ تامٍّ حين قال: "لقد نزعتْ الجيوشُ العربية التي جاءت تحارب إسرائيل السلاحَ من أيدينا بحجة أنه لا ينبغي وجود قوةٍ أخرى غير قوة الجيوش، فارتبط مصيرنا بها، ولما هُزِمَتْ هُزِمْنا وراحت العصابات الصهيونية ترتكب المجازر والمذابح لترويع الآمنين، ولو كانت أسلحتنا بأيدينا لتغيرت مجريات الأحداث".

والتحق أحمدُ ياسين الطفلُ بمدرسة الجورة الابتدائية وواصل الدراسة بها حتى الصف الخامس، إلا أن النكبة التي ألمَّت بفلسطين وشردت أهلها عام ١٩٤٨ حرمته كغيره من أطفال حق الاستقرار ومزاولة التعليم وأجبرته على الهجرة مع أسرته المكونة من سبعة أفرادٍ إلى غزة، وقد كان ينتظرهم واقعٌ لا يقل مرارةً عن سابقه، فقد تغيرت أحوال أسرته كما حدث مع سائر المُهجّرين في ذلك الوقت، وواجه الجميع مرارة الفقر والجوع والحرمان، إلى درجةٍ أُجبِر فيها على الذهاب إلى معسكرات الجيش المصري مع بعض أقرانه ليتصيدوا ما يزيد عن حاجة الجنود يسُدُّون به رمق أهليهم وذويهم.

وفي ظل هذه الظروف القاهرة اضطر أيضًا إلى ترك الدراسة لمدة عامٍ (١٩٤٩ـــ١٩٥٠) انشغل خلالها بإعانة أسرته بعد أن عثر على عملٍ في أحد مطاعم بيع الفول في غزة، لتتداركه رحمة الله ويلتحق من جديدٍ بمقاعد الدراسة مرةً أخرى.

إلزامه الكرسي المتحرك

كثيرًا ما يجهل الناس سبب الشلل الذي عانى منه الشيخُ أحمدُ ياسين والذي أقعده في كرسـيٍّ للمعاقين، منعه تمامًا من الحركة، وفي حين تتفاوت التخمينات في سـبب هذه الإعاقة، تبقى محطة السادسة عشرة من عمر أحمد ياسين محطة ابتلاءٍ عظيمٍ، تعرض خلالها لحادثةٍ خطيرةٍ هي التي غيرت مجرى حياته تمامًا وذلك حين أُصيب بكسـر في فقرات العنق في أثناء لعبه مع بعض أقرانه عام ١٩٥٢، والذي تبينت درجة خطورته بعد و ضع رقبته داخل جبيرة من الجبس والتي ما إن نزعها حتى بات وا ضحًا أنه سيعيش بقية عمره رهين الشلل إلى آخر أيامه.

هكذا كان ابتلاء الشيخِ أحمد ياسين وهو لا يزال في عنفوان شبابه وزهرة حياته مُقبلًا بهمةٍ ونشاطٍ وعزمٍ وحرقةٍ لتغيير واقعٍ يعيشه الفلسطينيون جميعًا، وامتحن اللّٰه صبره بأن ابتلاه فضــلًا عن الشــلل التام بعددٍ من الأمراض تُعَدُّ عقبةً حقيقيةً أمام أيِّ إنســانٍ يحمل في داخله هدفًا ساميًا، لقد فقدَ البصر في عينه اليمنى بعدما أ صيبت بضربةٍ في أثناء التحقيق القاسي على يد المخابرات الإسرائيلية خلال مدة سجنه.

وأُصِيبت العين اليسرى بضعفٍ شديدٍ في قدرة الإبصار كذلك، وعانى من التهابٍ مزمنٍ في الأذن وحساسيةٍ في الرئتين وبعض الأمراض والالتهابات المعوية الأخرى فكان حقًا في امتحان صبرٍ حقيقيٍّ، ولكنه صبر و شكر وحمِدَ اللّٰه، ولم يُثنِ عزمه هذا التحدي عن مواصــلة المســير فكان من على كرســيه يعلمنا كيف تحقق الإرادة والعزيمة الصــادقة للمسلم المعاق ما لا تحققه عند السليم المعافى.

أنهى أحمد ياسـين دراسـته الثانوية في العام الدراسـي ٥٧/ ١٩٥٨ وخرج لسـاحة العمل ينشـد فرصـةً كغيره من الشـباب الذين تخرجوا من الثانوية بكامل صـحتهم ولياقتهم،

ولقد نجح في الحصول على فرصة عملٍ رغم ما لاقاه من الاعتراض في البداية بالنظر لحالته الصحية، ولكن نجاحه في إثبات قدرته على التدريس مكنه من الحفاظ على مهنته الجديدة التي أصبح غالب مدخولها يذهب لمساعدة أسرته الفقيرة.

قد يتخيل المرء يوميات رجلٍ أُصِيب بالشلل ويعتقد أن أقصى أمانيه ستكون الحلم بقدرته من جديدٍ على المشي حرًا طليقًا أو الحصول على حياة دعةٍ وراحةٍ وخدمةٍ مريحةٍ، لكن الشيخَ أحمدَ ياسين لم يكن من ذلك النوع الذي يبحث لنفسه عن حلولٍ بل كان يبحث لأمته عن حلولٍ.

بداية انشغاله بهموم الأمة

العدوان الثلاثي

فحين كان في العشرين من العمر خرج في المظاهرات التي اندلعت في غزة احتجاجًا على العدوان الثلاثي الذي استهدف مصر عام ١٩٥٦ ولم يكتفِ بالخروج للتنديد فحسب بل أظهر قدراتٍ خطابيةً وتنظيميةً مميزةً وقال كلمته يومها بلا وجلٍ، ودعا رفاقه كذلك إلى رفض الإشراف الدولي على غزة مؤكدًا لزوم عودة الإدارة المصرية إلى هذا الإقليم.

وهنا نُبصر في مشهدٍ رائعٍ كيف يمكن للمرء تجاوز كل العقبات ليصدَعَ بالحق ويؤثر في مَن حوله ويقوم لقضيته بروحه وإن قعد جسده فيُسمِعُ صوتَه ويؤثر في الجماهير ولو كان من على كرسيٍّ مُقعَد.

لا شك أن ظهور أحمد ياسين لفت النظر إلى مواهبه الخطابية التي بدأت تظهر بقوةٍ، ومعها بدأ نجمُه يلمع وسط دعاةِ غزة، وما كان لمثل هذا التطور لِيَخفى عن أنظار المخابرات المصرية العاملة هناك، والتي خشِيَت من تأثيره في جموع المسلمين

فاعتقلته في عام ١٩٦٥ ضمن حملة الاعتقالات التي شهدتها الساحة السياسية المصرية وهي حملةٌ استهدفت كل من سبق اعتقالُه من جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٥٤.

ولم تكتفِ بسَجنه بل أبقته حبيس الزنزانة الانفرادية قُرابةَ شهرٍ وهي أقسى درجة سجنٍ قد يعرفها السجين، وبعد أن أثبتت التحقيقات عدم وجود أي علاقةٍ تنظيميةٍ بين الشيخ وتنظيم الإخوان المسلمين أُفرِج عنه لكنه خرج بنفسيةٍ جديدةٍ مختلفةٍ، وقد تركت مرحلة الاعتقال آثارها التي عبر عنها بقوله "إنها عمقت في نفسه كراهية الظلم، وأكدت أن شرعية أي سلطةٍ تقوم على العدل وإيمانها بحق الإنسان في الحياة بحُرية".

هزيمة ١٩٦٧

واكب الشيخُ أحمدُ ياسين مراحل الاحتلال اليهودي لفلسطين بكل ألمٍ وأملٍ وبعد هزيمة ١٩٦٧ التي احتلت فيها إسرائيل كل الأراضي الفلسطينية بما فيها قطاع غزة وجد الشيخ نفسه أمام واجب التحريض والدعوة ورفع وعي المسلمين فصبّ طاقته في إلهاب مشاعر المصلين من فوق منبر المسجد العباسي الذي شهد خُطَبه المسعِّرة لمقاومة المحتل، وفي ذات الوقت أدرك أهمية العمل الميداني فنَشَط في جمع التبرعات ومعاونة أسر الشهداء والمعتقلين، ومع هذه الروح المعطاءة المُسابِقة رغم كل التحديات عمل رئيسًا للمجمع الإسلامي في غزة.

كان الإسلام في نظر الشيخِ أحمد ياسين منهاجَ حياةٍ، دستور حياةٍ، لا يمكن الاستغناء عنه بأيٍّ بديلٍ آخر، فكان صاحب رسالةٍ يرى الهدف بوضوحٍ شديدٍ.

ولهذا بذل نفسه ووقته وكل ما يملك في سبيل نشر هذه الدعوة المباركة إلى درجةٍ أزعج نشاطه السلطاتِ الإسرائيلية فأمرت باعتقاله في عام ١٩٨٢ ووجهت إليه تهمة إنشاء تنظيمٍ عسكريٍّ وحيازة أسلحةٍ وأصدرت عليه حكمًا بالسَّجن ١٣ عامًا، ولأن مسألة

البقاء في السجن أو الخروج منه هي مشيئةٌ ربانيةٌ فقد أطلقت إسرائيل سراحه رغم أنفها في عام ١٩٨٥ خلال عمليةٍ لتبادل الأسرى مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

حركة المقاومة الإسلامية "حماس"

خرج الشيخ وقلبه ينبض حبًا في العمل والتحدي بل لم يُثْنِ عزمَه سَجنٌ ولا قهر بل ازداد إصرارًا على تغيير واقع فلسطين النازف، واتفق عام ١٩٨٧ مع مجموعةٍ من قادة العمل الإسلامي في قطاع غزة على إنشاء تنظيمٍ إسلاميٍّ لمحاربة الاحتلال الإسرائيلي هدفه تحرير فلسطينَ واتفقوا على تسميته "حركة المقاومة الإسلامية" والذي اشتهر اختصارًا باسم "حماس"، وكانت بداياتها، في الدور المهم الذي لعبته خلال الانتفاضة الفلسطينية التي عُرِفت بانتفاضة المساجد، وهكذا انطلق عَلَمنا في العمل الذي طالما حلُم به وحدَّث نفسه بوجوبه، وحقق هدفًا ساميًا من أهدافه، واستحق لأجله لقب الزعيم الروحي لحركة المقاومة الإسلامية في فلسطين.

تصاعدت أعمال الانتفاضة وتصاعد معها قلق السلطات الإسرائيلية التي بدأت في التفكير بجديةٍ في وسيلةٍ لإيقاف نشاط الشيخ أحمد ياسين، فعمدت إلى دهم منزله وتفتيشه في أغسطس/آب ١٩٨٨ وهددته بالنفي إلى لبنان في محاولةٍ منها لتخويف الشيخ والحَدِّ من نشاطه.

ولكن لم يشهد اليهود بعدها إلا ازديادًا في عمليات قتل الجنود الإسرائيليين واغتيال العملاء الفلسطينيين فاشتاطت غضبًا وحُنقًا، وقامت باعتقاله في يوم ١٨ مايو/أيار ١٩٨٩ مع المئات من أعضاء حركة حماس. لتُصدِر بحقه حكمًا بالسجن مدى الحياة إضافة إلى ١٥ عامًا أخرى! وذلك في ١٦أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩١ في إحدى المحاكم العسكرية الإسرائيلية، وهو ما يعكس درجة الإغاظة والفتك التي سببها نشاط الشيخ

أحمد ياسين في صفوف اليهود، وقد جاء في لائحة الاتهام أن هذه التهم وُجِّهت للشيخ بسبب تحريضه على اختطاف وقتل الجنود الإسرائيليين وبسبب تأسيسه لحركة حماس وجهازيها العسكري والأمني وهذا يُعَد إعلانًا صريحًا للحرب ضد إسرائيل.

لم يكن وَقْع خبر الحكم على الأب الروحي لحماس بالهيِّن في نفوس أبنائه وجنوده، بل كان الرد صارمًا من مجموعةٍ فدائيةٍ تابعةٍ لكتائب عز الدين القسام-وهي تمثل الجناح العسكري لحماس-لأجل الإفراج عن الشيخ وبعض المعتقلين المسنين الآخرين، فنجحت في خطف جنديٍّ يهوديٍّ قرب القدس يوم ١٣ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩٢ واشترطت لإطلاق سراحه مبادلته مع الشيوخ المعتقلين بما فيهم الشيخُ أحمد ياسين، لكن السلطات الإسرائيلية عاندت بغطرسةٍ العرض وشنت هجومًا على مكان احتجاز الجندي فكانت السبب في مصرعه ومصرع قائد الوحدة الإسرائيلية المهاجِمة ومقتل قائد مجموعة الفدائيين.

حرية تشوبها السلطات الفلسطينية

لكن عملية تبادلٍ أخرى في الأول من أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٩٧ حدثت بين الأردن وإسرائيل أُفرِج فيها عن اثنين من عملاء الموساد كانت قد ألقت عليهم الأردن القبض على أراضيها مقابل إطلاق سراح الشيخ أحمد ياسين، كانت السبب في عودة حريته ولقاء أحبابه.

لكنها كانت حريةً مقيدةً بقيود السلطة الفلسطينية آنذاك، والتي كانت تختلف كثيرًا مع نشاط حماس، ففرضت أكثر من مرةٍ على الشيخ الإقامة الجبرية ومنعته من التحرك أو النشاط.

ولكن رغمَ كل هذه المضـايقات والحصـار، بقي الشـيخُ أحمدُ ياسـين يؤرِّق نوم اليهود، وخيرُ دليلٍ على هذه الحقيقة، محاولة السـلطات الإسـرائيلية اغتياله في ٦ سـبتمبر/ أيلول ٢٠٠٣ حين اسـتهدفت مروحياتٌ إسـرائيليةٌ شـقةً في غزة كان يوجد بها لكنه نجا منها ولم يُصَبْ إلا بجروحٍ طفيفةٍ في ذراعه الأيمن.

اغتيال القائد

ولكن التربص لم يتوقف عند حدٍّ معينٍ، فقد أعاد اليهود الكَرَّة، حين كان الشـيخ خارجاً من المسجد يوم الإثنين ٢٠٠٤/٣/٢٢ بعد أن أدى صلاة الفجر، وبعد أن أتم ورده الصباحي، باستهدافه بثلاثة صواريخَ كاملةٍ وجَّهتها مروحياتٌ عسكريةٌ جبانةٌ إلى الشيخ المشلول الذي بلغ السادسة والستين من العمر رغم سهولة الهدف.

في غفلةٍ قذفت. بل غيلةً قتلت. تبًا لما فعلت غدرًا وطغيانا

أخافهم وهو في كرسيه. عجبًا. فكيف لو كان يمشي في سراياناَ؟!

أخافهم وهو ذو شيبٍ وذو وهنٍ. فكيف لو كان كالشبان ريانا؟!

ليحوز مرتبة الشرف، ويموت بعزةٍ وإباءٍ رغم ضعف جسده، وليعلمنا كيف أن قوة روحه قد غلبت ألدَّ الأعداء وقهرتهم قهرًا كبيرًا، فسـلام على روحك يا شـيخُ أحمدُ ياسـين قد لقَّنت الشـباب كيف تفعل الإرادة وكيف تُشَـيَّد الصـروح وكيف تُحمَل الأمانة وتُبلَّغ الرسالةُ مهما كانت الظروف والمعوقات، جسديةً أو ميدانيةً.

هذه كانت سـيرةَ رجلٍ اتخذ من الجهاد منهاج حياةٍ، لم يمنعه عن إقامة هذا الفرض أي عقباتٍ أو تحدياتٍ جسـديةٍ أو ميدانيةٍ، لقد تمكن من إعلانها مدويةً ضـد الاحتلال اليهودي، رغم سجن جسده المشلول، و سجن بلده المحتل، و سجن أمته الواقعة تحت

هيمنة أعدائه. وبمثل ثبات الشـــيخ أحمد ياســـين تســـتمد المقاومة ثباتها بعد الله من قادتها ورموزها كما تستمد الأرض ثباتها من الجبال الراسيات.

إنها قصةُ قدوةٍ، لمن أراد أن يعتبر!

«ياسين» موتك قد أحيا عزائمنا. وزادنا ببلوغ النصر إيمانا

واللهِ واللهِ لن ننساك ما نبضَت. فينا العروق ولن ننسى ضحايانا!!

لن تنتهي سيرة الأبطال ما نقشوا. صمودهم في كتاب المجد عنوانا!



عليُّ الطنطاوي

”

إنّ لذَّات الدنيا مثل السراب، ألا تعرفون السراب؟ تراه من بعيد غديرًا، فإذا جئته لم تجد إلا الصحراء. فهو ماء ولكن من بعيد.

“

الشيخُ علي الطنطاويُّ رحمه اللّٰه.

لا شــك أن المتبحر في كتاباته لامس ذلك الذوق الأدبي الرفيع والإحســاس الروحي القريب وتلك الهمّة العالية في نصرة الإسلام وأهله ومحاربة الباطل وأهله دون كللٍ أو مللٍ، مذكراته صفحاتٌ من واقع ينبض بالحقيقة بالجمال، أو لِنقُلْ بروح الإنسان المؤمن المسابِق المجتهد، وكتابه (صــورٌ وخواطر) حلةٌ من الجمال وإبداعٌ من وحي الإنســان، تألق فيه عَلَمنا عليّ الطنطاويُّ في تصــوير الواقع وتحليل الحقائق البشــرية بمَلَكته الأدبية الراقية.

نشأته

يرجع أصــل عَلَمنا رحمه الله إلى طنطا في مصــر، ابتدأ الحياة في كنف أســرةٍ منهجُها العلم والاجتهاد، فقد كان عمّ جده الشــيخ محمدٌ الطنطاويُّ عالِمًا بالعلوم الشــرعية والرياضـيات والفلك، وورث الشــيخُ مصـطفى والدُ علي عِلم جدِّه لأمه ففاض أثره في أســرته واســتقى من معينه عليٌّ، أما والدة علي فهي رئيفةُ بنتُ الشــيخ أبي الفتح الخطيب العالم الزاهد أمين المكتبة الظاهرية في دمشقَ، وشقيقة محب الدين الخطيب الداعية والكاتب الإســلامي، فكان هذا الوســط الذي ميّز نشــأة أديبنا الفقيه وفقيهنا الأديب وسط أسرةٍ منشغلةٍ دائمًا بالعلم وتتوارثه بحرص.

أشرقت عينا علي في دارٍ صغيرةٍ في حيٍّ فقيرٍ في أطراف دمشقَ. في الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة ١٣٢٧هــ(١٩٠٩م)، وفيها نشأ وعاش شطرًا من عمره، تشرب فيها صــنوف العلم في مجالس العلم مع أبيه وتلامذته، وانكب بين صــفحات الكتب في

مكتبتهم العامرة، حتى شغله ذلك عن لعب الصبيان وهزلهم. وكَبِر وهو يُمضي جل وقته في القراءة.

جمع عليّ الطنطاويّ في دراسته بين الطريقتين: القديمة بالتلقي عن العلماء والمشايخ في حلقات العلم، والحديثة بالدراسة في المدارس والجامعات، فحضر مجالس أبيه وقرأ على علماء الشام في حلقات الجامع الأموي، ودرس في المدارس النظامية وأتمَّ تعليمه الجامعي، وتفوق في كل مراحل تعليمه. بالإضافة إلى نَهَمِه في القراءة منذ نعومة أظفاره، والذي نفعه كثيرًا وأوتي بهذا فضلًا عظيمًا.

كان لهاتين الطريقتين عميقُ الأثر في التكوين العلمي لعليٍّ الطنطاويٍّ، وبهما بنى أساسه العلمي الذي كلل مسيرته فيه بأن قرأ على كبار علماء البلد وحفظ متونًا علميةً كثيرةً وأصبح ذا رصيدٍ علميٍّ يُشار إليه بالبنان.

مسيرته النضالية

عايش علي مرحلة الحكم الفرنسي الذي أعقب معركة ميسلون التي انتهت بهزيمةٍ أليمة، وكان ذلك في تموز سنة ١٩٢٠م، وبعد سنةٍ من هذا التاريخ انتقل علي مع عائلته من دارهم الصغيرة في العقيبة إلى دارٍ واسعةٍ في الصالحية على سفح جبل قاسيونَ، فسُجّلت له أولُ خطبة في المدرسة وهو في السنة السادسة الابتدائية في الرابعةَ عشرةَ من عمره. يوم أمرت الحكومة بالخروج لاستقبال المفوض السامي الفرنسي الجديد، فخطب خطبةً حماسيةً صادمةً كان ينبض بها قلبه الصغير بوعي عقلٍ كبير، حرّض فيها الفتى الملهم على عدم الخروج لاستقبال زعيم الفرنسيين أعداء الدين والوطن، متحديًا بذلك إدارة مدرسته التي عاقبته بإنقاص علامته في الأخلاق والسلوك، وكان هذا أول عهده بالخطابة التي برع فيها طيلةَ حياته.

بعد نَيْلِ الشـــهادة الابتدائية دخل علي مكتب عنبر ســـنة ١٩٢٣م وبقي فيه حتى ســـنة ١٩٢٨م، وكانت الســـنوات الســـت التي قضـــاها فيه غنيةً بالأحداث الخاصـــة في حياته والعامة في بلده، فخلالها مرَّ بأخطر منعطفٍ مع أســـرته وهو موت أبيه رحمه الله، وخلالها كانت نهضة المشايخ والثورة السورية وبداية النضال من أجل الاستقلال.

والتي انبرى خلالها بوعيه المُسـابِق ليصـبح من قادة الشـباب الوطنيين وصـاحب كلمة مقروءةٍ ومسـموعةٍ عند أهل الشـام. وكانت هذه السـنوات هي المرحلة الأعمق أثرًا في بناء شخصيته وفكره وعلمه، وصفها بأنها كانت لنفسه كأيام البناء في تاريخ الدار.

لقد ساعدت اللغة العربية عليًا الطنطاويَّ على إبراز جمال أفكاره وقوة معتقده، ولا شك أنه تميّز ببلاغةٍ وفصـاحةٍ سـامقة كانت صـفةً ملازمةً لخطاباته وكتاباته، وذلك بسـبب حرصـه على تعلّم اللغة العربية بفنونها وأسـرارها في مكتب عنبر على يد أئمة العربية آنذاك وهم: الخطيب المفوه الشـيخ عبد الرحمن سـلام الخطيب، وإماما العربية، الشـيخ عبد القادر المبارك، والشـيخ سـليم الجندي الذين كانا مِن أكثر مَن أثّر في تكوينه اللغوي والأدبي وقد شـــهد لهما يومًا بعد وفاتهما رحمهما الله قائلا: "لقد ماتا وما أعرف تحت قبة الفلك أعلم منهما بالعربية وعلومها".

في شعبانَ ١٣٤٣هـــ(١٩٢٥م) كان الشاب عليّ الطنطاوي، وهو في السادسة عشرة من عمره، يبدأ عهدًا جديدًا في حياته، يودع فيها ســنوات الدعة والرخاء، ويبدأ ســنوات العناء والعمل الشاق الدؤوب ليحمل عبء إعالة أسرته، وفوق ذلك إكمال تعليمه.

فقد ترك لهم أبوه رحمه الله دَيْنًا كبيرًا، وكان هو أكبر إخوته ولم يعُدْ لهم من يعيلهم غيره. ورغم أن خال أبيه اســتخرج لهم معاش أبيه التقاعدي إلا أنه كان ضـئيلًا لا يكاد يغطي حاجاتهم، كما اسـتأجر لهم دارًا صـغيرة في حيِّهِمُ القديمِ بالعقيبة، وتدبَّرَ بيع كلِّ

ما في الدار من أثاثٍ وأغراض إلا المكتبة الزاخرة فقد تمسك بها عليّ الطنطاوي بكل قواه ولم يسمح ببيعها لِما فيها من كنوزٍ وذكريات عزيزة. وبدأ بذلك مرحلة جديدة من حياته تعلم فيها تحمل المسؤوليات والكدّ بساعده دون عونٍ من أحد، فخرج منها أصلب عودًا وأبصر فقهًا بالحياة. واستمر على هذه الحال حتى حصل على شهادة الكفاية (المتوسطة) فأقبل على تعلم المحاسبة ثم عمل كاتب حسابات عند تاجر أدوات كهربائية، ولكنه لم يقوَ على مفارقة مقاعد الدراسة فعاد من جديد لطلب العلم.

في سنوات مكتب عنبر برز عليّ كاتبًا وخطيبًا، وعرفته المنابر وخاصةً منبر الجامع الأموي، يقبل عليه المصلون ويهرع إليه الناس إذا دعاهم وتتجمع حوله الجموع، ويقود الناس في المظاهرات منطلِقًا من المسجد الأموي، وتستجيب البلد كلها لندائه وتُغلَق الأسواق ويتضامن معه التجار كلما حدث في البلد حادثٌ أو جدَّ فيها جديد.

لقد سجل التاريخ لعليّ الطنطاوي في ذلك الوقت خُطبًا هزت البلاد، لقد خطب في الشام ومصر والعراق ولبنان والقدس وعمان والهند وباكستان وإندونيسيا. وتحدث في إذاعة الشرق الأدنى في يافا من يوم إنشائها، وإذاعة دمشق وبغداد بعد ذلك. كان دائمًا مسموع الكلمة في الناس ولدى كل الأطراف، ذلك أنه كان يحرص على قول الحق وتحليل الواقع كما هو لا يحابي أحدًا ولا تهمه مصلحة نفسه. واستمر على مبدئه هذا حتى توفاه الله، ذلك المبدأ الذي عاهد الله عليه ووفَّى بعهده نحسبه، وهو أن يقول الحق ما استطاع فإن لم يستطع فلا يقول باطلًا أبدًا.

مسيرته الصحفية

ومن هذا الميدان الساخن للدعوة والخطابة وقيادة الجماهير وتوعيتها وتحريضها، كان لعَلَمنا دورٌ بارزٌ في ميدانٍ آخرَ موازٍ لا يقل أهميةً ألا وهو الصحافة، فعمل أديبنا الفقيه

صحفيًا سنينَ طويلة، تلك المهنة التي وصفها بأنها أحب المهن إليه إذا كان صاحب الكلمة فيها، لا ينغص عليه أحدٌ فيمنعه من نشر ما يريد أو يدفعه لنشر ما لا يريد. لقد كانت منصته الخاصة يبث فيها أفكاره ويلهِم بها قرّاءه بحرارة قلبه وشعاع همته، وقد عمل بعد عودته إلى دمشق في جريدة "فتى العرب"، وكتب في "الناقد" وفي جريدة "ألف باء" و"القَبَس" فترك فيها خير أثر.

التدريس

لم يكن علمنا مقتصدًا في البذل، فقد أقبل إلى ميدانٍ آخرَ كان أيضًا من أحب الميادين إلى قلبه ألا وهو التدريس وقد اشتغل فيه وطاف المدن والقرى في ظروفٍ قاهرةٍ وتحدياتٍ متكررة، علَّم في شتى المستويات، في المدارس الابتدائية والثانوية وفي العديد من الأمصار، في الشام وفي العراق وفي غيرها، كما علّم بعد ذلك في مستوياتٍ أعلى في الجامعات وفي الدراسات العليا وأشرف على الرسائل العلمية، كلُّ ذلك الانشغال لم يمنعْه من خوض غمار العمل في المسرح المدرسي حين تبيّنت له أهميتُه، وكما غيرُه من الميادين فقد نبغ فيه بكتابة مجموعةٍ من المسرحيات الرائعة التي أداها الطلاب بإشرافه فترك في هذا الحقل أيضًا خيرَ أثر.

أثر رحلته إلى مصر في مسيرته

ثم دعونا نقف وقفة عند مرحلة نجاحه في امتحان "البكلوريا" شعبة العلوم رغم صعوبته آنذاك، حين سافر إلى مصر مرافقًا لأخته التي كانت ستتزوج من شريك خاله محب الدين الخطيب، وكانت هذه أولَ مرةٍ يفارق فيها أمه وإخوته، كما كانت أكبر حدث مر عليه في شبابه.

ففي مصــرـ ذلك الركن من العالم الذي يضــج بمشــاغل الحياة-رافق عليّ خاله في المطبعة السلفية وقابل فيها كبار رجال العلم والأدب في مصر في ذلك الوقت، و شارك في تحرير الفتح والزهراء، وشـهد بداية الدعوة الإسـلامية المنظمة المتمثلة في جمعية الشـبان المسـلمين، التي كانت تأسـسـت حديثًا وكان خاله من مؤسـسـيها، وشـهد أيضًا الدعوة المنظمة الحقيقية التي بدأت على يد حســنٍ البنا، الشــاب الذي كان يتردد على المطبعة السلفية في أولى خطوات مسيرته.

هناك نضـج قلمه أكثر، ونبغ لسـانه أشـدَّ، وأصـبح أكثر عمقًا وهدوءً، وأبعد عن الحماسـة وأقرب إلى الرصانة. وقفَل راجعًا إلى ديار الشام حاملًا معه فكرة الجمعيات الإسلامية فأنشأ "جمعية الهداية الإسلامية" سنة ١٩٢٩م.

استكمال المسيرة العلمية

وقرر الانتســاب إلى كلية الآداب، وكانت تُســمى حينها "مدرســة الآداب العليا" وبحكم شخصيته القيادية الملهِمة، صار رئيس "اللجنة العليا لطلاب سوريا" من ١٩٢٩ إلى سنة ١٩٣١م، التي كانت ذراع "الكتلة الوطنية" في نضـالها ضـد الفرنسـيين. وأصـبح خطيبَ البلد وقائد الشباب بعد خطبةٍ عظيمةٍ ألقاها في تلك السنة، و صار نداؤه المشهور (إليَّ إلي عباد الله) كثيرًا ما يدوّي فوق منبر الأموي.

وما إن يُكلف عليّ بمهمة حتى يبدع فيها، ومما يُذكر عنه في هذا الصــدد تكليفه العمل مديرَ تحريرٍ لجريدة "الأيام" ســنة ١٩٣٠ م التي أطلقتها "الكتلة الوطنية" بإشــراف الأســتاذ عارف النكدي والتي أعطاها من وقته وجهده الثمين بإخلاصٍ وتفانٍ، لتصــبح جريدة ذاتَ شعبيةٍ مترامية في أوساط الناس، يترقبونها ويتسابقون لشراء نسخةٍ منها،

ولمّا بلغت الذروة في القبول، كان مصـــيرها الإيقاف، بعد أن ختم الفرنســـيون مقرها بالشمع الأحمر خشيةَ أن تهدد مصالحهم.

في أواخر ١٩٣٠ دخل علي كليةً أخرى في الجامعة وهي كلية الحقوق، وكان قد ســـجل فيها قبل ذلك بســـنتين بعد نجاحه في الثانوية الأولى على أن يُتِمَّ الثانوية الثانية بعد ذلك. ليدفعنا لتأمل أية همةٍ مُســـابِقةٍ كانت تجرف عَلَمنا عليًا وأيّ أهدافٍ متعددة كان يرنو للوصول إليها عَلَمنا الذكي!

إنتاجه الفكري والدعوي

بدأ عليّ في رعاية إرث عطائه مبكرًا، ففي ســـنة ١٩٢٩م، قام بنشـــر "رســـائلُ في ســـبيل الإصـــلاح" التي كانت أول ما نُشِـــر له، وكان في العشـــرين من عمره، وهي تمثل رســـالةً حملها طيلة حياته، في سبيل الإصلاح كان لها بالغ الأثر.

ثم نشر بعدها مجانًا على ميزانية المتطوعين "رسائل سيف الإسلام" والتي تحمل نداء ليّنًا رزينًا للعودة إلى الإسلام.

كما أصـــدر كتابه الأول "الهيثميات" ســـنة ١٩٣٠م، وهو في الحادية والعشـــرين من عمره، نســـبةً لكنيته أبي الهيثم التي كان يوقِّع بها كتاباته، والطريف أنه كان أول من تَســـمَّى بهذا الاسم في دمشق ولم يكن مألوفًا بين الشاميين قبل ذلك.

وفي ذات السنة نشر كتاب "بشار بن برد" مما جمعه من محاضراته على طلاب "الكلية العلمية الوطنية". وحين طرق أبواب ســـنة ١٩٣١م أصـــدر مجلة "البعث" وذلك قبل أن يكون ثمةَ حزبٌ بهذا الاســـم، أصـــدرها وحده أولًا ثم بالتعاون مع "جمعية التهذيب والتعليم". على شـــرط أن يكون التحرير بالكامل على علي الطنطاوي، ثم حين أصـــبح

يشاهد خرقًا للاتفاق وبدأ كلُّ مَنْ لديه بعض الجهد في إخراج المجلة يحاول أن يصبح كاتبًا فيها، آثر أن يوقِفَها.

وفي ذات السنة كانت الدعوة إلى العقال، تلك الدعوة التي أثارت ضجةً كبيرةً في الشام وكتب عليّ الطنطاوي رسالة "نداءٌ إلى الشبان المسلمين" دعا فيها إلى لبس العقال للتصدي لحملات التغريب في اللباس، ولحفظ الهوية العربية الإسلامية في بلاد المسلمين، ولبس بنفسه الكوفية والعقال والعباءة وتبعه في ذلك كثيرون، وقد علّق على هذه المرحلة بأسلوبه البارع في كتاب ذكرياته، ولكنها دعوة لم تستمِرَّ كثيرًا فخمَدت إلا أن أثرها بلغ قلوب الناس.

وفي أوج هذا الانشغال بمشاريع العطاء، فُجِع عليّ برحيل والدته، والذي كان له عظيم الأثر في نفسه، فخيّم الحزن على قلبه وتحجر الدمع في مقلته، ولكن لم يؤثّر حبه لأمه وعمق مصابه لفقدها، في مبادئه ومعتقداته الإسلامية التي طالما حمل لواء الدفاع عنها، فقد ثبت ثباتَ الجبال أمام عائلته التي أصرت على اتباع تقاليدَ بدعيةٍ لإجراء مراسم العزاء، ورفض رفضًا قاطعًا الاستسلام لها، وأخذ إخوته ورحل بصمتٍ يحمل جرح رحيل أمه في قلبه وينكِر مُنكَرَ بدعةٍ كانت ستكون في بيته.

وكما هو حال أكثر حاملي الرسالة، مرت على علي أوقاتٌ عجاف، شعر فيها بضيقٍ شديد، تتضح جليًا من خلال مقالةٍ له نشرها بعنوان "شهادة ليسانس للبيع" عرض فيها بيع شهادته بالتكلفة، فكان لها صدًى واسعٌ وعلق عليها كثيرون.

ورغم تزاحم الأعمال والإنجازات في البرنامج اليومي لعليّ، لا نتعجب أن يكون أقدم في تلك السنة على إنشاء المجمع الأدبي الذي اقترح اسمه بنفسه، بمبادرةٍ من منير العجلاني، ليكون موازيًا للمجمع العلمي الذي صار فيما بعد مجمع اللغة العربية.

ثم أنشأ الزياتُ مجلة الرسالة في مصر، ولم يكن علي ليدَّخر همته فيها، فأقبل يكتب بحبره الملهَم وحسه الأدبي الرفيع، وبعد برهةٍ من الزمن، التقى بصاحبها الزيات واقترب أكثر منه حتى صار بمنزلة الأب أو الأخ الكبير له.

ومن أراد الاستمتاع بذكريات علي في سنة ١٣٥٣هـ (١٩٣٥م) فلْيقرأ عن رحلته التي سافر فيها إلى الحجاز حيث استكشف مع من معه طريق السيارات للحج، واستغرقت الرحلة ثمانية وخمسين يوما قطعوا فيها خمسة آلاف كيلومتر على رمال الصحراء ولم يصلوا إلا بعد انتهاء الحج، وقد دوَّن عليّ مغامراتهم خلالها، وأسهب في وصف سلسلة العقبات والصعوبات التي لم تكن في الحسبان، بأسلوبه الشيق والبديع. وما إن قفَل عليّ راجعًا إلى الشام، حتى بلغه خبر وفاة شيخ الشام الشيخ بدر الدين الحسني وقد انتُخب لنعيه، فاعتلى منبر الأموي، ذاك المنبر التاريخي الذي تواترت أجيال الأبطال من المسلمين عليه، فخطب في حشدٍ هائلٍ من الناس الذي اجتمعوا لحضور جنازته رحمه اللّٰه، فكانت خطبةً مشهودةً وكان يومًا مشهودًا.

وأكمل عَلَمنا مسيرته في الشام بالعودة للتدريس من جديد، في مدرسة المهاجرين في دمشق.

تصديه لدعوى القومية

لقد عاش عليّ بتلك الروح المتألقة سنينًا وهو أعزب، فجاوز الخامسة والعشرين ولم يتزوج، ذلك أنه لم يكن يملك مَؤونة الزواج، ثم لأنه كان منشغلًا طوال الوقت في حربٍ دائمةٍ بلسانه وقلمه مع أذناب الفرنسيين والفاسدين والماسونيين المسيطرين على وزارة المعارف، الأمر الذي جلب عليه العداوة حين قَوِيَتْ دعوة القومية العربية وسادت وزارة المعارف. في تلك الأيام المشحونة، انبرى عليّ لنقد الدعوة القومية العربية أشدَّ

الانتقاد، رافعًا لواء الإسلام وداعيًا لِأُخُوَّة الإسلام، فكان الثمن أن نُقِل وكل من كان في صفه إلى مناطق الأكراد في الشمال. وحين أذِن الله، تزوج عليّ الطنطاوي من عائدة ابنة القاضي صلاح الدين الخطيب وهي قريبته من جهة أمه، جدُّها لأبيها الشيخُ أبو الفرج وجده لأمه الشيخ أبو الفتح شقيقان.

إطلالة على المناصب التي تقلَّدها

ولم تزِدْه الحياة الزوجية إلا قوةً وصلابةً في مواجهة الصعاب. ومن ميزات تألقه، براعتُه في القضاء، ذلك الميدان الذي لم يرْضَ إلا أن يخوض غماره بتفوقٍ وجدارة، وله فيه قصصُ إرادةٍ وعزيمةٍ رائعة، حتى تقلد منصب قاضي دمشقَ واستمر فيه مدةَ عشر سنواتٍ كاملة، أبلى فيه بلاءً حسنًا وأتقن فيها وأحسن، وكانت قصة تقلدِه القضاءَ شيقةً ماتعةً سردها بالتفصيل في كتاب ذكرياته.

لم يكن علي الطنطاوي يشارك كثيرًا في المؤتمرات التي انعقدت في ذلك الوقت، وتُسجَّل له مشاركةٌ في سنة ١٩٥٣م في المؤتمر الإسلامي في القدس، وقد اختير رئيسًا لإحدى اللجان الثلاث التي انتخبها المؤتمر، وهي لجنة الدعاية لفلسطين، فزاروا باكستان والهند وسنغافورة والملايا وإندونيسيا. وكان له سجلٌّ طويلٌ من الذكريات الطيبة فيها.

انتقل عليّ في سنة ١٩٦٣م إلى السعودية حيث قضى فيها بقية عمره حتى وافته المنية فيها، أي أنه قضى فيها ستًا وثلاثين سنة وقد عرف فيها نوباتِ ألم وتعب كان يشكو منها جسده بين الحين والآخر. وفي السعودية أُوكِلَتْ له مهمةُ إدارة برنامج التوعية الإسلامية، فكان يطوف على الجامعات والمعاهد والمدارس في أنحاء المملكة، يلقي الدروس والمحاضرات.

ثم في عام ١٩٦٧م بدأ برنامجه الشـــهير في الرائي (التلفزيون) الســـعودي بعنوان "نورٌ وهداية" الذي عرفه فيه جمهور عريض من المشـاهدين داخل وخارج السـعودية، ودام قرابةَ ربع قرن بنجاح. وكذلك بدأ برنامجه في الإذاعة السـعودية "مسـائلُ ومشـكلات"، وفيما بعد برنامج رمضـــان في الرائي "على مائدة الإفطار" وقد اقترب من قلوب المسـلمين اقترابًا عجيبًا لسـلاسـة حديثه وصـدق منطقه وفصـاحة لسـانه وقدرته على إيصال الفائدة برفقٍ وحبٍّ ونصحٍ وعلم.

زار عليّ الطنطاوي ألمانيا وبلجيكا وهولندا في عام ١٩٧٠م، ليشارك هذه المرة في مؤتمر اتحاد الطلبة المســلمين في مدينة كيســن الألمانية، كما زار المركز الإســلامي في آخِن الذي يرأسه الأستاذ عصامُ العطار، صهرُه وزوجُ ابنته الشهيدة-بإذن الله-بنانُ رحمها الله، واســتغل رحلته في مدن ألمانيا وبلجيكا وهولندا في لقاء الشــباب المســلم لمحادثتهم وإلهامهم.

ولا شــك أن أقســى محطة مؤلمة ألمَّت بعلي مذ فتح عيونه في هذه الحياة، كانت في عام ١٩٨١م يوم استشهدت ابنته بنان غدرًا في دارها بألمانيا، الأمر الذي تسبب في نزفِ جرحٍ لم يندمل أبدًا، فلأول مرة في تاريخ عَلَمنا، يمضــي عليه خمسُ ســنواتٍ كاملةٍ من بعد الحادثة قبل أن يســتطيع أن يتحدث عنها، أو يعبر عنها بقلمه ورحل للقاء ربه وجرحُه لا يزال نازفًا في صدره.

وعودة لذكريات عليّ، فقد تفرغ لها في محرم ١٤٠٢هـــ (١٩٨١م) ليكتبها بطريقة شـيقة، يتحدث على سـجيته، يســتطرد تارةً ويقبض تارةً أخرى، يفصِّـل هنا ويســتدرك هناك، لكنها متســلســلةٌ وزاخرةٌ بالمواقف والأحداث، وكانت تحمل تأريخًا غنيًّا لحقبة ما بعد سقوط الدولة العثمانية في بلاد الشام وما حولها، واستغرقت كتابتها ثمانيَ سنوات إلى

أن ضعُفت همة علي الشيخِ وثقُل عليه إتمامها، فختمها عام ١٩٨٩م.وكانت كتابتها نزولًا عند رغبة أحبائه وتشجيعهم اللامتناهي.

حصل عليّ على جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام عام ١٩٩٠م وهو على عتبة اعتزاله، لكن قلبه استمر حتى بعد الاعتزال حيًا ينبض بآلام أمته وآمالها، يتابع أحداثها ويعايشها، وكان من آخر مشاركاته لقاء أُجري معه حول مأساة مسلمي كوسوفو فذكَّر برسالة الإسلام وأُخوَّة الإسلام وعزيمة الإسلام كما كان دأبه.

وفاته

لقِيَ علمنا ربه بعد مسيرة عطاءٍ ومسابقة، في يوم الجمعة الرابع من ربيع الأول ١٤٢٠ الموافق ١٨ حزيران (يونيو) ١٩٩٩م. فرحمه الله وأجزل له الأجر والمثوبة عن الإسلام والمسلمين.

مضى علي-أديب الفقه-شيّعه حبٌ عظيم وآلام نداريها

وشيّعته نفوس طالما شربت من نبع حكمته ما كان يرويها

وشيّعته قلوبٌ نبضها أمل في الله أن يسكن الجنات باغيها.

اللهم أسكن الجنات باغيها.



مروان حديد

"

هنالك كلبٌ نصيريٌّ اسمه صلاح جديد وكلبٌ منسوب لأهل السُّنة اسمه مصطفى طلاس، يريدون أن يذبحوا الإسلام في هذا البلد ونحن نرفض ونحارب أن يُمسَحَ الإسلام ونحن أحياءٌ!

"

مروان حديد

ثقيلةٌ هي الكلمات التي ستُخَط لتلخص تاريخًا ماجدًا زاخرًا بالتضحيات، وأنّى لتلك الكلمات أن تَفيَ عبقريةً فذّةً حملها قلبُ مسلمٍ واحدٍ، لقّن الأجيال كيف تكون عزة الإسلام، وكيف تُنصَر المبادئ؟! وكيف يُقهَر الطغاة؟! مروانُ حديد اسمٌ ارتبط بالبطولةِ والفداء، بالشجاعة والإباء، بالعلم والدعوة والجهاد، سليلُ عائلةٍ شاميةٍ عريقةٍ، عُرِفت بتجارتِها ومشاريعها العريضة، وفي ذاتِ الوقت بالتواضع والزهد.

في حماة مولده

أبصرت عينا مروانَ النور لأول مرةٍ في حماةَ عام ١٩٣٤ ونشأ وترعرع على أرضها، فنَهَل العلم من المستوى الابتدائي إلى الثانوي في مدارسها ليتوّج رحلة طلبه بالنجاح في الثانوية العامة الفَرع العلمي عام ١٩٥٥، درس بعدها في كلية الزراعة في جامعة عين شمس عام ١٩٥٦ في مصر وتخرَّج فيها في عام ١٩٦٤، بعد أن قضى فيها ثماني سنواتٍ طِوالًا راوحت بين الدراسةِ والاعتقال في معتقلات الاستخبارات المصرية.

لكنها لم تُثنِ هِمته عن تحصيل العلم والدراسة مرةً أخرى في كلية الآداب جامعة دمشق قسم الفلسفة ليحصّل شهادة البكالوريوس عام ١٩٧٠. كان مروانُ صاحب همةٍ ونشاطٍ، يكِدُّ في كل المناحي، حتى أنه قبل التزامِه الحقيق تولى منصب مسؤول مالي عن التنظيم الاشتراكي في الثانوية قبل دراسته في الجامعة.

نقطة التحول

كان مقتل الشيخ حسنٍ البنا في مصر نقطة التحول الكبرى في مسار حياة مروان حديد، دفعته بقوةٍ للجنوح إلى البحث والتنقيب في فكر هذا الرجل الذي أرّق نوم

أعداء الدين، لينضم بعدها لتيار الإخوان المسلمين ويصبح أكثر تمسكًا بالإسلام وتعاليمه والدعوة إليه.

وما لبث أن لمع نجم مروانَ مع جماعة الإخوان المسلمين، من جهةٍ لشدة عطائه وبذله في باب الدعوة للإسلام، ومن جهة أخرى لاشتدادِ صلابته بعد خبرته المتمرسة مع رجال المباحث في مصر.

التقى مروانُ بسيد قطب واتفق معه في فكره وأهدافه، كما كان يشترك معهم في ذلك زملاؤهم في ذات الجماعة، لكن هذا الفكر كلفهم ثمنًا باهظًا، فقد تعرضوا لحملات الاضطهاد والقمع في عصر الرئيس المصري جمال عبد الناصر، وهو ما دفع بمروانَ لإعلان العِداء له كونَه استعمل على مصر يدًا من حديد وخاصةً مع دعاة الإسلام، ويبدو أن تجربة مروانَ في مصرَ صقلت مواهبَه وقُدُراته على مواجهة الصعاب، والتعامل مع السلطة الحاكمة المستبدة وأجهزتها استخباراتها الطاغية فكان لها الأثر لاحقًا في مسيرته.

قوةُ شخصيته وصَدْعُه بالحق

اشتَهر بقوة شخصيته وثباته على المبادئ والصَّدْع بصوتٍ عالٍ دون أدنى خوف، ويُذكَر أنه وجَّه رسالةً لمؤتمر قمة رؤساء الدول العربية الذي عُقِد آنذاك في مصر، كتب فيها بكل وضوحٍ واختصارٍ إلى عبد الناصرِ وإلى كل المؤتَمِرين "يجب أن تحكموا بالإسلام" ولم يكتفِ بذلك بل أضاف إلى الرسالة اسمه وعنوانه في تحدٍّ واضحٍ، أدركت خطرَه أجهزةُ الاستخبارات المصرية، فوضعته في مراقبة دائمة. وهو ما يعكس تجذُّر قناعات مروان حديد في قلبه وكيف فقِهَ حقيقة لا تأخذْ المسلم في الله لومة لائمٍ، وأن العاقبة دومًا للمتقين.

في الشام

على الضفة الأخرى، الأحداث في سوريةَ لم تكن بعيدةً عن هذا الاحتقان، والذي ازدادت أعراضـه بعد انقلاب ١٩٦٣، حين تربَّع حزب البعث على عرش السـلطة وبدأ يغرز مخالبه في جسد الشام ليُحكِم قبضتَه بلباس التقية.

تقيةٌ لم تكن لتَخفى على مروان حديد الذي كان يتابع تفاصـيل الوضـع في سـورية بانتظامٍ ويسـافر لها كل عطلةٍ صـيفيةٍ، وهو مما دفعه بقوة للتحذير من هذا النظام الجديد بلسـانه المُلهَم وحسّـه المرهَف وصـدقه في التبيان والإفهام فكان نِعم الداعية والنذير.

لقد استشعر مروانُ خطر هذا النظام، وأبصر من بعيد مستقبل أهل السنة في المنطقة برُمتها، وكان مركز نشاطه في بيته ومسجده في حيّ البارودية، وانتشرت محا ضراته التوعوية ودروسه المحرِّضة، تنساب بالحِكم والدرر التي اكتنزها مروانُ خلال مسيرته الدعوية وخبراته الميدانية، تفضـح مكرًا دُبِّر بليل، تَحيكه النوايا البعثية الطائفية، وتنفذه أيادٍ آثمةٌ لم تعرف لربِّها قدْرًا، فوجد خير اسـتجابةٍ من شـباب الشـام، والتهب الحماس وقام بشجاعة وإباء، وهانت في أعينهم مواجهة الموت أو أنواع اللئام.

اعتقاله من قِبَل النصيرية

هذا الصـدع بالحق أدى كعادة الطغاة إلى اعتقال مروان حديد من قبل قوات النظام البعثي النصـيري الذي أدرك بدوره مدى تأثير مروان في عمق الشـعب السـوري، فأعلن محاكمته بطريقة علنية، يقاضـيه فيها مصـطفى طلاس وصـلاح جديد، من كبار رجال النظام في ذلك الوقت، أولهما محسوب على أهل السنة والثاني على النصيرية ولكنهما متفقان في الإثم.

ثباتٌ في المحكمة

ومن أبرز المواقف التي سجلها التاريخ لقوة شخصية مروانَ ودرجة استهانته بأعدائه، وبصيرته بحقيقة الانتصار على الظالم، ما دار بينه وبين القاضي صلاح جديد حين سأله: لماذا حملتم السلاح وتمردتم على الدولة؟ فكان جواب مروان يشِعُّ بيقينٍ تامٍّ بعدالة قضيته:

هنالك كلبٌ نصيريٌّ اسمه صلاح جديد وكلبٌ منسوب لأهل السُّنة اسمه مصطفى طلاس، يريدون أن يذبحوا الإسلام في هذا البلد ونحن نرفض ونحارب أن يُمسَحَ الإسلام ونحن أحياءٌ!

فاغتاظ القاضي ورد بغضبٍ: "أنت عميل". فرد مروانُ بإباءٍ: "عميلٌ لله عز وجلّ، أما العميل فهو رئيس حزبكم ميشيل عفلق الذي قبض تسعةً وسبعين ألف جنيه من عبد الناصر". قال القاضي: "أنت مأجور؟"" فرد مروان بعبارةٍ جامعةٍ لامعةٍ: "أنا مأجور من الله".

ثم ختم قوله: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ.

الإعدام مصير من يقول الحق

بعدها نطق طلاس بالحكم قائلًا: "إن المحكمة حكمت عليك بالإعدام شنقًا حتى الموت"، فرد عليه مروان بلا ترددٍ ولا وجلٍ:

واللّه يا مسكينُ لو عرفتُ أن بيدك الموتَ والحياةَ لعبدتك من دون اللّه. كلماتٌ صارمةٌ فجَّرت قاعة المحكمة بالتصفيق الحاد وأمواج الصراخ والسخرية من المحكمة

والاستهزاء بها، فقُطِعت الكهرباء وأُوقف البث الإذاعي المباشر. وحكموا عليه بالإعدام هكذا بلا خجلٍ!

كلفت مروانَ هذه الكلمات الجريئة و هذا الموقف الذي لا يُبارَى، الحكم بالإعدام مع مجموعةٍ من رفاقه، واقتيدوا إلى السجن وهم يبتسمون بسعادةٍ أذهلت الحضور وألهمتم، وجوههم تعلوها البهجةُ كأنهم حازوا المطلوب، وحين سُئِلوا عن سر هذا الرد السعيد، قالوا: إنها الجنة.

مروانُ يصف مرحلة سجنه

ما عشت أيامًا في حياتي ألذ على قلبي وأطيب على نفسي من تلك الأيام التي كنت أنتظر فيها أنا والشباب تنفيذ حكم الإعدام. و ظل مروان وصحبه يرددون: الروح ستشرق من غدها وستلقى الله بموعدها. وكأنهم يبصرون مِن خلف هذا الظلام نور الخلود ومنتهى الإيمان.

لم تنتهِ قصة مروانَ هنا

بل كتب الله له قدْرًا لم يكن في الحسبان. فقد توجه شيخٌ من مشايخ حماة وهو الشيخ محمدٌ الحامد إلى رئيس الحكومة آنذاك أمينٍ الحافظ الحموي، وحذره من عواقب قتل مروانَ، ومن ردة فعل أهل حماةَ، فأقنعه بإصدار حكمٍ بالعفو عنه، وقد كان الأقسى على مروان فحين فُكَّ قيده وأُخرِج من السجن، قال للشيخ محمدٍ بدل أن يشكره على منحه حريته:

سامحك الله حرمتنا من الجنة

وما كان لمثل هذا الأشم إلا مواصلة المسير ليقود انقلاب ١٩٦٦ ويُعتَقل مرةً أخرى على أيدي النصيريين مع جمعٍ كبيرٍ من العلماء والشباب في سوريا لكن أُفرِج عنهم في أثناء حرب ١٩٦٧.

وقد كان لسنة ١٩٦٧ تأثيرٌ كبيرٌ في مروان حديد، خاصةً بعد تسليم الجولان الحصين، فقد دفعه بعد الهزيمة إلى النشاط الجهادي ضد إسرائيل، فالتف لتحريض الكثير من الشباب وانتهز الفرصة في الإعداد للقتال وحمل السلاح، ليؤسس في مدةٍ قصيرةٍ نواة العمل العسكري ضد النظام النصيري في سورية في أروع مستويات التنظيم والإعداد والقيادة الراشدة، فقد اجتمعت الأسباب كلها لنجاح هذا البناء، وكفى بقيادة مروان سببًا. في الوقت الذي كان مروان يردد فيه:

لَموتٌ في طاعة الله خيرٌ من حياةٍ في معصيته

وكانت خطبه ومحاضراته تبث روح التحريض في نفوس الشباب وتلهب أنفاسهم لفداء دينهم وقضيتهم، كانت أعين الاستخبارات النصيرية ترْقُبُه عن كثبٍ.

وكما كان يتوقع مروانُ وكما كان يحذر دومًا من ذلك المكر الذي ستُعريه الأيام، كشف النظام النصيري عن نواياهم في عام ١٩٧٣، حين أخرج البعثيون دستورهُمُ الجديد وأُلغِيَتْ فيه المادة التي تؤكد أن سوريةَ دولةٌ إسلاميةٌ. تغييرٌ أثار غضب الشعب السوري ونِقمته على النظام، واشتعلت معه غَيرة الخطباء وعلى رأسهم مروان حديد في المسجد وفي التجمعات، حتى جُمِعت البيعات على الموت!

ولكن الخوف من الاعتقال والتعذيب وسياسة النظام في البطش والتنكيل، دفعت الناس للتخفي والحذر من خُطَب مروانَ، خوفًا على أنفسهم من الورطات الأمنية.

محاولة الاعتقال

على إثر ذلك تعرض مروانُ لمحاولة اعتقالٍ في أوائل شـــهر آذار ١٩٧٣، لكنهم لم يفلحوا في إلقاء القبض عليه ومنذ ذلك الحين اختفى مروانُ وانكبَّ على العمل بســرية، يجمع السلاح ويؤسس قوةً تمكنه من مواجهة النظام البعثي النصيري المستبد.

لقاءٌ مع عزَّام

تحركاته كان أكثرُها في دمشــق لمدة ســنتين ونصــفٍ تقريبًا، انشـغل خلالها في إتقان العمل والأخذ بالأسباب، جميع الأسباب وإن صَغُرت، وهناك أيضًا التقى الشيخ عبد اللّه عزام رحمه اللّه، الذي زار ســوريةَ في تلك الحقبة، وهو الشــيخ المجاهد العالم الخطيب المفوَّه الذي قال يصــف مروانَ عند لقائه به: نظرت إلى وجهٍ ليس من أهل الدنيا أبدًا، صافٍ صفاءً عجيبًا، النور يشِعُ، أول كلمة قالها لي-هو يعرفني من أيام فلسطين، كان قد جاء معنا-يا أبا محمد: ألم تشتَقْ إلى الجنة، كانت تلك آخر كلمات سمعتها منه

في هذه الأثناء لم يغِبْ مروانُ عن ذاكرة النظام البعثي النصيري الذي كان يوظف جميع طاقاته لاعتقاله من جديدٍ وإعدامه.

ولكن الأقدار تسري بمشيئة اللّه لا بمشيئة بشرٍ! ورغم حياة المطاردات والتربصات، عقدَ مروانُ زواجه على فتاةٍ تحمل ذات مبادئه وتقدّر ظروفه وتبذل نفســها في خدمته، وكان ذلك في أواخر عام ١٩٧٢، وبقي على هذه الحال حتى دَهَمَته قوةٌ من المخابرات النصـيرية في صـبيحة يوم ٣٠ حزيران ١٩٧٥ ولكنها لم تتمكن من اعتقاله إلا بعد معركةٍ بطوليةٍ وقع فيها بعد أن اســتنفد جهده في مقاومتهم، واعتَقلتْ زوجته المرابطة معه أيضًا.

الاعتقال ولقاء حافظ الأسد

لم يكن اعتقال مروان حديد بالحدث الهيِّن، بل كان حدثًا عظيمًا في ســوريا، فقد ذهب إليه الرئيس حافظٌ الأسد بنفسه، يقول له:

يا مروانُ دعنا نفتح صفحةً جديدةً مع بعضٍ، عفا اللّه عما مضى، لن نحاسبك على شيءٍ بشرط واحد أن تترك السلاح.

وما خرجت مثل هذه الكلمات من رئيسٍ يتمتع بقُوى البطش والطغيان إلا لهيبةً ألقاها اللّه على عبده مروانَ، وكم من أســيرٍ أمام ســجَّانه هو الرئيس بل هو الملك، فالعظمة تكون بالإباء والثبات على المواقف، وإن ضَعُفت حيلة البشر، لأن قوة الإيمان هي أقوى من كل القُوى في هذه الأرض، ويكفي أنها وحدها كافيةٌ لجلب الســكينة التي لن يقدر على شرائها أغنى وأقوى الناس سلطةً في هذه الأرض.

فماذا كان رد مروانَ المســتنيرِ بنور العلم وصـفاء الغاية على سـلطان جائر، إنها الحكمة في الخطاب ووضــوح الرؤية والغاية من مســيرة التضــحية، قال مروانُ: وأنا موافقٌ بشــرط واحد، أن تســاعدني على قيام الدولة الإســلامية في ســورية. بعبارة قصــيرة مقتضبة، فتولى حافظٌ الأسد مَخْزِيًّا وخرج.

مروان يُهدِّد في الاعتقال

ومشــهدٌ آخرُ ســجله التاريخ لهذا المؤمن المجاهد، حين دخل مروانُ على المجلس العسكري الذي ضـم ناجي جميل قائد القوات الجوية ومصـطفى طلاس ومجموعةً من الضباط النصيريين الكبار بعد اعتقاله، فابتدرهم مخاطِبًا كأن لسانَه السيفُ مسلَّطًا على رقابهم:

ويلَك يا كلبُ يا ناجي جميل، هل ستظن أننا سنتركك حيًا؟! أوصيت الشباب أول ما يبدؤون بكم أنت ومصطفى طلاس، لأنْ على ظهوركم يا كلابُ أذلنا هؤلاء النصيريون، وانتهكوا أعراضنا، وأما أنتم أيها الضباط النصيريون، فقد أوصيت الشباب أن يقتلوا منكم خمسة آلاف.

فارتجت أقدام الحضور رعبًا ومهابةً من رجلٍ أسيرٍ أعزلَ، ليس إلا لأنَّ فيه قوةً كادت تحطم عنادهم واستكبارهم في الأرض، فهبَّ ناجي جميل يصيح مستغيثًا جنده: خذوا هذا المجنون، ارفعوه، أبعدوه عني، فأبعدوه على عجلةٍ ليرسلوه إلى محاكم التفتيش ولكن ليس التي عرفتها الأندلس بل التي ضجت لأنين أسراها سوريا وبكت على قتلاها الأجيال بعد الأجيال منذ تولت عائلة الأسد النصيرية مقاليد الحكم في الشام، وهناك تفننوا في إذاقته كل صنوف الإذلال والمهانة والقهر.

حتى قال شهودٌ عرفوه بضخامة بنيته وصلابة جسده: قد أنهكه التعذيب فأضحى أقرب إلى الهيكل العظمي، ورغم أن جسده قد خار وقُواه قد انطفأت إلا أنه ردَّد بنفسٍ أبيةٍ لمن أراد أن يسعفه: "أنْقُل عنّي وقل للناس أن هؤلاء الكلاب، لم يحصلوا مني على كلمةٍ واحدةٍ تُشفى بها صدورُهم". فيا لَثباتِ هذا الرجل...!

تعذيبٌ في الاعتقال

ومع استمرار ليالي التعذيب الطويل وأيامه، ساءت حالة صحة مروان إلى درجة يئست السلطة المعتدية منه فأرادت أن تُخفيَ جريمتها في مستشفى حرستا العسكري، حيث نُقِل واستُدعِيَ أخوه الدبلوماسي كنعانُ بأوامرَ من حافظٍ الأسد، ليقنع الناس أن مروانَ ضحيةٌ لإضرابِه عن الطعام، لا لتعرُّضِه لأبشع أنواع التعذيب والقهر، وعن أي طعامٍ يتحدثون وقد كان المستشفى يقدم بقلةً وهي ملوثةٌ بالبول والغائط وما لا تقوى حتى

الحيواناث على أكله، فكانت نفسه تعافه وتصده عن أكله، ولكن الداعية المجاهد حين رأى من أخيه كنعانَ إصرارًا على تناول الطعام وعلم عنه ما علم من تضييعه لفروض دينه و سبيل نجاته، تنبَّه بقلبٍ مشفِقٍ على أخيه أكثر من إشفاقه على نفسه، فمصيبة خسارة الدين أعظم من مصيبة الجوع أو الفقر والعوز، فقال لأخيه:

سآكل بشرطين لا ثالثَ لهما: أما الأول فأن يكون الماء من حماة وأما الثاني فأن تعدني أن تصلي

فقبِل كنعانُ الشرط: الأكل مقابل القيام بفرض الصلاة، وأكل مروان وشرب ماء حماة، وصلى كنعان موفيًا بالوعد!

وكل كسرٍ فإن الدين يجبره... وما لكسر قناة الدين جُبرانُ

وفاته

وما إن بدأت صحة مروان تتحسن، وما إن استرجع القدرة على الحديث مع أهله حتى فُجِعوا فيه في مساء أحد الأيام حين عثروا عليه ينازع الموت وهو يشير لهم بإصبعه إلى رقبته، ليكتشفوا الحقيقة المؤلمة وطبيعة البشر المجرمين، لقد أُعطِي مروان حقنةً في عنقه تسببت في حالة هبوطٍ مفاجئٍ في الضغط، وبدأت روحه تنسَلُّ من جسده المثخن بجروح التعذيب ومعارك الحياة، متخلصةً من أثقال دنيا لطالما كابدَث فيها الصعاب لتنصر الحق وتُبطِل الباطل وتبلغ الأمانة وتدعو إلى الله، وارتقت روحه في سجن المزّة العسكري سيئ السمعة، وذلك في شهر حزيران من عام ١٩٧٦. وحُمِلت جثة مروانَ الشهيد، الذي كان قبل اعتقاله ذا بنية جسدية ضخمة يصل طوله ١٩٠ سم ووزنه١١٠ كغ، ولكن بجثةٍ مختلفةٍ، لا تتعدى ٣٥ كغ فقط! وصدق الله حين قال (لا يرقبون في مؤمنٍ إلَّا ولا ذمةً).

وحتى ندركَ كيف يؤثر الرجل الراسـخ الإيمان في عدوه، فحتى بعد موته، لم يُسـمَح لأهله بدفنه في حماة، ودُفِنَ في دمشق في مقبرة الباب الصغير، ثم ورغم أنه كان ميتًا، جرى الدفن تحت حراسـة الأمن المشـددة وليته انتهى معه ذلك الرعب الذي خيّم على قلوب الظَّلَمة، بل استمرت الحراسة، حتى على قبره شهورًا يعتقلون كل من يزور القبر.

لطالما ردَّد مروانُ مقولة بلالٍ رضـي اللّه عنه: (غدًا نلقى الأحبة، محمدًا وصـحبه) ونحسبه كان في شوقٍ لها بعد هذا الطريق الشاق وهذه الأمانة الثقيلة.

أبرز نجاحاته

ولعل من أبرز نجاحات مروانَ التي حققها، فضـلًا عن تاريخه الدعوي والتعليمي والتحريضـي للأمة، كان نجاح الحركة الجهادية خلال حياته نجاحًا عظيمًا، فقد كانت تتميز بالقبول والتنظيم ووضـوح الرؤية وثبات المبادئ والاعتزاز بالإسـلام واستـحقار الطغاة وحب الموت في سبيل اللّه.

ورغم أنها تراجعت بعد موته رحِمَه اللّه، ربما للأخطاء العسكرية التي وقع فيها مَنْ بعدَه أو للتحديات التي مرَّتْ بها، إلا أن زرْعَه كان قدوةً يُقتدَى بها، ومثالًا ناجحًا يعكس نجاح سبيل الدعوة الذي يغذي جذوة الهداية، ويمهد للصحوة ويبسط الطريق مخضرًا للأمة حتى ترتقي لمراتب الحرية والعزة وإن تضـرج بالدماء، يكشـف كيد العدو الضـعيف، وهوان الطغاة أمام رجالات الحق!

إيمانٌ وثباتٌ على الحق

قصة مروانَ جمعت خليطًا من المعاني والحِكَم، لخصتْ لنا كيف صنع الإيمان من مسلمٍ واحدٍ، حين حمل همّ هذا الدين وواجه أعتى الطغاة، لم تأخذْه في ذلك لومة لائمٍ، ثم

تُظهر لنا كيف يكون الطريق الصحيح حين تزوَّد بالعلم والدعوة لمرحلة الإعداد والعمل الجهادي، فكان أن برع في تأسيس قوةٍ في قلب الأمة المستضعف، أحيث الأملَ من جديد، وأما ثباتُه إلى آخر رمقٍ، فكان دلالةً على مدى تجذُّر ذلك الإيمان بقضيته.

ولا يعكس ذلك إلا صدقًا لامسه أهلُ الشام تجلَّت آثاره على تاريخهم وحاضرهم وغَدِهم، ما زال يُذكَر معه اسم مروان حديد، حتى في آخر المعارك التي تدور رحاها اليوم على أرض سوريا المباركة، فقد استجاب أبناؤها لنداء مروانَ الذي أطلَقه في سماء الشَّام ومن خلف زنازين الظُّلم منذُ الستِّينات، وفقَهوا أخيرًا أن خلع النظام النصيري واجبٌ وفرضٌ، وأن الإعداد الجهادي والقوة هي أفضل طريقة للخلاصِ من المجرمِ، وإن سالت دماءٌ فلن تكون أغلى مِن دماء المسلمين الذين قُتلوا عدوانًا وظلمًا.

رحل مروان بعد أن خطَّ على جدار الزمن أنا شيدَ رائعةً ما زالت دفعات المجاهدين التي تتخرَّج في كل حينٍ في معسكرات سوريا اليومَ تردِّد بعض أبياتها على ألسنة جنودها، فمن ينسى (يا راحلين عن الحياة وساكنين بأضلعي) ومن ينسى (هل تسمعون توجعي وتنهُّد الدنيا معي؟!) ومن ذا ينسى (لا تحزنوا يا إخوتي إني شهيدُ المحنةِ)، فسلامٌ على روحك في الخالدين، يا شهيد المحنة مروان حديد.



المُلّا عمر

"

إنّ الله تعالى قادرٌ على كل شـــيءٍ، ولا فرق عند الله تعالى بين قوة أمريكا وقوة نملة، فليسـمعْ الأمريكيون وحلفاؤهم بأنّ الإمارة الإسـلامية ليسـت مثل نظام ظاهرشـاه الذي سَيَفِرّ أميره إلى (روما) و سيستسلم جنودُه لكم، بل هذا النظام هو في الحقيقة جبهاتٌ قويةٌ للجهاد، فحتّى لو سـيطرتم على المدن وعلى العاصـمة أيضًـا، وأسـقطتم الحكومة، فإنّ المجاهدين سيكمنون لكم في الأرياف والجبال، فماذا ستفعلون آنَئذٍ؟؟!

"

المُلا عمر

هل يمكن لأحدٍ أن يتخيل حياة عَلَمٍ في عصــرنا هي أشــبه بحياة الصــحابة والتابعين رضــي الله عنهم، إن كان ينبغي أن نضــرب مثلًا لهذا الواقع فإنه دون شــكٍ واقعُ عَلَمنا، المُلّا عمر، إنها قصةٌ أسطوريةٌ وقعت أحداثُها في القرن العشرين، نعم في أرض خراسان الأبية، هناك ســطّرَ علمنا، قصــة الإباء والاعتزاز بالإســلام، أقام إمارةً إســلاميةً قويةً، جابهت جيوشًــا كافرةً عَتِيةً، ولم ينتهِ الصــراعُ على ثراها ولن ينتهيَ إلا بنصــرٍ عزيزٍ من الله مؤزَّرٍ. هنا في هذه الســطور، نخطُّ ســيرةَ رجلٍ عظيمٍ من رجالات المســلمين حُقَّ لأمتنا أن تفخر به، وحُقَّ لأجيالنا أن ينتفعوا من عبقريته، وحُقَّ للكفار أن يندبوا حظهم لمواجهتهم عملاقًا جهاديًا مثلَه

من هو عَلَمنا؟ من هو المُلا عمر؟

هو المُلا محمد عمر المجاهد ابن المولوي غلام نبي بن المولوي محمد رسول بن المولوي باز محمد، أبصــرت مقلتاه النور لأول مرةٍ في عام ١٩٦٠م في كنف أســرةٍ مُتدينةٍ معتزةٍ بإســـلامها على ثرى قرية (چاه همت) بمديرية (خاكريز) من ولاية قندهار. وهي ذات القرية التي وُلِد فيها والدُه وتلقى فيها تعليمه على يد علمائها، والتي اشــتغل فيها في حقلَيْ الدعوة والتدريس فعُرِف بين العامة كشخصيةٍ علميةٍ واجتماعيةٍ مُصلِحة.

يســود أفغانســـتانَ نظامٌ قَبَليٌّ متين، وكان عَلَمنا ينتمي إلى فخذ تومزي من قبيلة (هوتك) البشــتونية، وتُعَدُّ هذه القبيلة أحد الفرعين الرئيســيين للبشــتون. قد برز منها أبطالٌ مجاهدون وقادةٌ وطنيون من ذوي الرأي والتدبير في تاريخ أفغانستان المعا صر من أمثال القائد الإسلامي الشهير الحاج ميرويس خان. والغازي الكبير (الحاج ميرويس خان) والذي يلقبه الأفغان احترامًا له بلقب (بابا) وهو يعني (الجدّ) و(الزعيم الكبير)

وهو من حرّر أفغانستان من الحكم الصفوي الظالم عام (١٠٨٨) هـ الموافق (١٧١٢م)، وأسّس فيها للأفغان حكومةً إسلاميةً سُنيةً مستقلّةً قوية.

وهكذا فإن عَلَمنا سليلُ أجدادٍ علماءَ ومجاهدين، أوقفوا حياتهم لخدمة دين اللّٰه تعالي وتدريس العلوم الإسلامية وتربية المسلمين دينيا وفكريا، ولذلك كان لهم قبولٌ واسعٌ في نفوس الناس، وكانوا يحظَون بالشرف والمكانة الاجتماعية العالية في مجتمعهم.

وحين بلغ المُلَّا عمر عامين انتقلت أسرته من مديرية خاكريز إلى قرية (نودي) في مديرية (دند) من هذه الولاية، وانهمك والده في الدعوة والتدريس حتى وافته المنية في عام ١٩٦٥م، ودُفِن في مقبرة طالبان القديمة الشهيرة في مدينة (قندهار).

وبعد هذا الابتلاء الذي ألَمَّ بأسرة عَلَمنا الصغير طرق باب اليُتم وهو لا يزال غضًا طريًا، فانتقلت أسرته بعد ذلك من مديرية(دند) في قندهار إلى مديرية(دهراود) في ولاية (أرزگان)، وهناك بدأ المرحلة الأولي من حياته في كفالة عمّيه المولوي محمد أنور والمولوي محمد جمعة.

بدأ عَلَمنا يشق طريقه في فضاء التعليم والدراسة، وحين بلغ الثامنة من عمره، دخل المُلَّا محمد عمر المجاهد المدرسة الابتدائية الدينية في منطقة (شهركهنه) من مديرية (دهراود) والتي كان يشرف عليها عمّه المولوي (محمد جمعة)، واستهلها بالدراسة الإسلامية الابتدائية، وهناك نهَلَ من العلوم الأولى وكان بلا شكٍّ لعميه وخاصة للمولوي محمد أنور الدور الهام في تعليمه وتنشئته التنشئةَ الإسلاميةَ المستقيمة.

وأفاد المُلَّا محمد عمر المجاهد من أسرته ونشأته وتربيته وتعليمه المباشر على يد العلماء والمربِّين وأصحاب الفكر النيّر، وهو ما صنع منه رجلًا بأرضيةٍ فكريةٍ دعويةٍ إصلاحيةٍ جهاديةٍ واسعة.

أتم الملا دراسته الابتدائية والمتوسطة بتفوق، وحين بلغ الثامنة عشر من عمره بدأ بدراسة العلوم الشرعية العليا وفق المنهج السائد في تلك المنطقة، إلا أنّ دراسته لهذه المرحلة انقطعت في عام (١٩٧٨م) بسبب الانقلاب الشيوعي ووصول الشيوعيين إلى سدّة الحكم في أفغانستان.

وهكذا من أسرةٍ مجاهدةٍ تعتني بالعلم، خرج الملا محمد عمر وإخوانُه وأعمامُه يحملون راية الجهاد كمهنة تربَّوا عليها، وقد استشهد أربعةُ أفرادٍ من أسرته، وكان عمّه الملا محمد حنفية أول الشهداء في اليوم الأول للهجوم الأمريكي على أفغانستان بتاريخ ٧/ ١٠/ ٢٠٠١م في القصف الجوي الأمريكي الظالم.

حياة الجهاد

سيطر الشيوعيون على الحكم عن طريق الانقلاب العسكري، حين كان الملا محمد عمر المجاهد في العشرينات من عمره فكان رد فعل عَلَمنا وأمثاله من طلاب العلم التوقف عن الدراسة والالتحاق بجامعة الجهاد لأداء مسؤوليته الشرعية تجاه أمته. فبدأ جهاده في مديرية دهراود من ولاية (أرزگان) في جبهات (حركة الانقلاب الإسلامي).

وهنا برزت عبقرية فارسِنا، ولامس الناس شجاعته وأُعجِبوا بقيادته الماهرة، واشتهر اشتهارًا واسعًا على مستوى ولاية (أرزگان)، وقد قام بدورٍ فعّالٍ في كثيرٍ من العمليات الجهادية في مختلِف ساحات هذه الولاية، وبسبب شهرته الجهادية وقيامه بعملياتٍ موفّقة حاز على قبولٍ واسعٍ وثقةٍ كبيرةٍ بين المجاهدين آنذاك.

ومن معركةٍ لأخرى ومن امتحانٍ لآخر كسب المُلّا محمد عمر ثقة إخوانه المجاهدين، وقد عُيِّن قائدًا عامًّا لمعركة شملت عملياتٍ هجوميةً موحّدة في مديرية دهراود ضدّ الشيوعيين وجاء هذا التعيين برضا مختلف جبهات المجاهدين. فأبلى بلاءً حسنًا،

وجُرح فيها جرحَه الأول، واســتمر عَلَمنا في خوض المعارك الكثيرة وجهًا لوجهٍ مُقبلًا غيرَ مدبِرٍ لأكثر من ثلاث سنوات ضدّ الروس والشيوعيين إلى جوار إخوانه المجاهدين في تلك المنطقة.

رأى أصحابه فيه القدرة على القيادة رغم صغر سنه، وذلك لما لمسوه من نضوجٍ في العقل وخبرةٍ في الميدان و شجاعةٍ وتحملٍّ للمسؤولية، وكذا قدرتُه على النجاح في كل دورٍ جهاديٍّ يُكلَّف به، ساعده في ذلك لياقتُه البدنيةُ الجيدة.

وقد قاده إخلاصُــه وإتقانُه وبذلُه المتواصــل في ميدان الجهاد، إلى أن فُوِّضَــث إليه مســؤولية جبهةٍ جهاديةٍ مســتقّلةٍ من قِبَل تنظيم (حركة الانقلاب الإســلامي) بقيادة الشيخ المولوي (محمد نبي المحمدي).

مواقف من بطولته

لقد برع المُلَّا محمد عمر المجاهد في قيادة عملياته الجهادية في الزمان ما بين ١٩٨٣م إلى ١٩٩١م في المناطق التابعة لمديريات (ميوند) و(ژري) و(پنجوايي) و(دند) والتي عُرِفت بمعاقل المجاهدين ضــدّ القوات الروســية، وكانت تشــهدُ كلَّ يومٍ معاركَ بين المجاهدين والقوات الروسية، وكذلك في مناطق (شهر صفا) والساحات التابعة لمدينة (قلات) مركز ولاية (زابل)، وكان يشترك في كل تلك العمليات بنفسه.

كما برع المُلَّا محمد عمر المجاهد في اســتعمال قاذف (R.P.G) بمهارةٍ خاصــةٍ فكان سلاحه المفضل الذي اشتهر به.

أُصِيب المُلَّا في الجهاد ضــدّ الروس والشــيوعيين بضـع مرات ولكن أقساها كانت تلك التي فقد فيها عينه اليمنى.

ســـجل التاريخ في صـــفحات جهاد المُلَّا عمر العديد من المواقف المؤثرة والفعالة في الميدان برفقة إخوانه، ومنها أنه في إحدى المعارك ضـــدّ القوات الروســـية في منطقة (محلّه جات) القريبة من مدينة قندهار أحرق المُلَّا دبّاباتٍ وسـيـاراتٍ كثيرةً للعدوّ برفقة صـاحبه الملا عبيد اللّٰه-لذي صـار فيما بعد وزيرًا للدفاع أيام حكومة الإمارة الإسـلامية ونائبًا لأميرها بعد الغزو الأمريكي-ومن كثرة الســـيارات والدبابات المحترقة في قوّات العدوّ كان الناس حين ينظرون من بعيدٍ إلى الرتل المحترق في اليوم التالي يظنون أنّ قوات العدوّ مازالت لم ترحل، مع أنّ العدوّ كان قد فرّ من الســـاحة، وخلّف وراءه عددًا كبيرًا من الدبابات والآليات المحترقة.

وفي يومٍ من الأيام في زمن الجهاد ضدّ الروس كان المُلَّا عمر مع صاحبه (المُلَّا برادر -الذي صـــار فيما بعد أحد نواب أمير الإمارة-في منطقة (ســـنگ حصـــار)، وكان يمرُّ رتل الدبابات الروســـية على طريق قندهار-هرات، وكان مع عَلَمنا قاذفٌ واحدٌ وأربعُ قذائفَ فقط لقاذف (R.P.G)، فبدأوا المعركة ضدّ رتل القوات الروسية بتلك القذائف الأربعة فقط، وأحرقوا أربع دباباتٍ وآليات للعدوّ.

ويقول الملا برادر الذي رافقه في أثناء ذلك، إنّ الدبابات الروســـية التي أحرقها المُلَّا محمد عمر المجاهد قد نسِيَ الإخوة عددها لكثرتها.

كانت هذه المرحلة في المواجهة مع الروس مليئةً بمواقف الشجاعة والبطولة في سيرة عَلَمنا، وقد أُثقِلت سيرتُه الجهادية لدرجة أنْ حاز على لقب البطولة بلا منازع.

مرحلة الحرب الأهلية

وفي عام ١٩٩١م حين سقطت حكومة (نجيب) الشيوعية وبدأت بعدها الحرب الأهلية توقّف الملّا أيضًا مثل بقية المجاهدين المخلصين عن العمل العسكري، ولم يوجه سلاحه ضد مسلم، ولم يشأ أن يدخل في مستنقع الفتنة، فاعتزل ذلك كله وفتح مدرسةً دينيةً أهلية بجوار مسجد الحاج إبراهيم في قرية (گيشانو) من منطقة (سنگ حصار) في مديرية (ميوند) بولاية (قندهار)، وبدأ بإكمال دراسته الدينية مع عددٍ من إخوانه المجاهدين بعد حياةٍ مضنيةٍ لأربع عشرة سنةً أمضاها في الجهاد.

في الواقع كانت هذه مرحلةً مظلمةً في تاريخ أفغانستان فبعد التضحيات العظيمة من الشعب الأفغاني الذي قدم مليونًا ونصف مليونٍ من الشهداء، اشتعلت فيها نيران الحروب غير الهادفة بين المنظمات المقاتلة في جميع أرجاء البلد بما فيها العاصمة (كابل) وهكذا خيم على البلد ظلام الهَرْج والفساد الذي لم يعرِف مثلَه الأفغانُ في حياتهم، فصارت أرواحُ الناس وأموالُهم مهددةً في كل حين، ونصبَ قطّاعُ الطرق حواجزَ على المسالك والشوارع في كل مكانٍ في البلاد لفرض المُكوس والإتاوات وفق أهوائهم على عامة الناس، بل ولم يمتنعوا عن هتك الأعراض والسرقة والنهب أيضًا.

ونُهِبت الممتلكات كما نُهِبَت غنائم الجهاد والثروات الطبيعية نهبًا لم يُرَ له مثيلٌ فيما سبق.

وهكذا فإن الشعب المسلم المجاهد الذي جاهد لأربعَ عشرةَ سنةً لم يواجه خطر ضياع ثمرة جهاده فحسبُ، بل أحدقت به الأخطار والتهديدات في حياته اليومية أيضًا. وأصبح الفساد الاجتماعي، والقتل، والنهب، وأنواع الظلم والوحشة ومصائب المسلمين

عنوان تلك المرحلة، وفي ازديادٍ وفوضى. فكان هذا الواقع المرير المفجع سبب قلق المجاهدين المخلصين الذين لم ينحرفوا إلى شهوات الدنيا والنفس.

وكذلك كانت حالُ المُلا محمد عمر المجاهد الذي كان يعيش مع بعض إخوانه المجاهدين في مديرية (ميوند) من ولاية (قندهار) خاصةً وهو يشاهد الحواجز الجائرة وقد نُصِبَت في كل مكانٍ على طول الطريق الممتد بين (قندهار) و(هرات)، بسبب إيذاء المسلحين المُفسِدين ونهبهم للمسافرين المظلومين من النساء والعجزة، وكانت تُنتَهك أعراضُهم وتُزهَق أرواحُهم.

ولمّا لم يردعْهم رادعٌ تزايد عدد الحواجز إلى درجة لا يمكن تصورها، حتى أنّ التجار الذين كانوا ينقلون البضائع من (هرات) إلى الحدود الباكستانية كانوا يخشَون المرور على الطريق العام في (قندهار)، فكانوا ينزلون أموالهم في مديرية (ميوند) خوفًا من تسلط المسلحين، ثم ينقلونها إلى مديرية (بولدك) الحدودية عن طريق الصحراء يتحملون في سبيل ذلك العناء الكثير مقابل الوصول بأمان.

وبقي الملا يراقب أحوال مدينة (قندهار) والتي تقاسمها المسلّحون فيما بينهم، واغتصبوا فيها ممتلكات بيت مال المسلمين، فضلًا عن الأراضي الحكومية التي يبنون لأنفسهم عليها المتاجر والأسواق. ولأنهم نفوسٌ دَنِية، فلطالما نشب الخلافُ والقتال بين صفوفهم ويؤدي هذا التصادم والاقتتال إلى زهق أنفس العامة من الناس بكل هوان.

حركة طالبان

فكان هذا المشهد المُريع وهذه الأوضاع المأساوية السبب الأول وراء قيام المجاهدين المخلصين-نحسبهم-بتنظيف الساحة الأفغانية من هذا الخَبَث، ولهذا السبب عقد الملا

محمد عمر المجاهد وإخوانه المجاهدون أول مجلسٍ للشورى مع علماء المنطقة المعروفين في منطقة (زنگاوات) من مديرية (پنجوايي) وقد طلب المولوي سيد محمد المعروف بـ(المولوي پاسني)-الذي كان قاضيًا لعموم المجاهدين في ولاية قندهار في زمن الجهاد ضدّ الشيوعيين-من الملا محمد عمر المجاهد في ذلك المجلس أن يعلن انتفاضةً ضدّ هذا الفساد، مؤكدًا أن جميع العلماء والطلاب الموجودين في المجلس يقفون معه ويؤيدونه.

ومن هذا المجلس وضع المُلَّا محمد عمر المجاهد لَبِنة الأساس لحركة طالبان الإسلامية. فكان اليوم الخامس عشر من شهر محرَّمٍ الحرام من عام ١٤١٥ هـ نقطة انطلاق الحركة التي أعلنت الكفاح ضدّ الفوضى والفساد.

وما إن انطلقت الحركة بخُطَى منظَّمةٍ ورؤيةٍ واضحةٍ وتربيةٍ إسلاميةٍ مستقيمةٍ حتى فرح الناس ورحبوا بها وسهلوا طريقها، وبدأ أول الغيث بتطهير مدينة (قندهار) وتوالت المناطق الأخرى بعدها تنفي خَبَثها وتزدان بشريعة ربها.

وحين تمكنت الحركة من بسط سلطتها على غالب البلاد اجتمع عددٌ كبير من العلماء وكان يبلغ عددهم ١٥٠٠ عالمًا وأعلنوا تأييدَهم لإمارة الملا محمد عمر المجاهد في الاجتماع الذي عُقِدَ بتاريخ ١٥/ ١١/ ١٤١٦هـ في مدينة (قندهار) وهناك بايعوه أميرًا للمؤمنين واشتدت قوة الإمارة وانتظمت أمورها أكثر، لتسيطر بتاريخ ٦/ ١٣٧٥/٧ هـ على العاصمة الأفغانية (كابل) وهكذا أحكمت الإمارة الإسلامية سيطرتها على ٩٠% من البلاد بما في ذلك الولايات الرئيسية والشمالية.

واعتمدت الإمارة نظامًا إسلاميًا يقوم على نور الشريعة الإسلامية يُقدَّم فيه العلماء في صف القيادة والشورى، ولا يُقضى إلا بإشارة منهم فقدمت للعالَم نموذجًا حيًّا للنظام

الإسـلامي بعد غيابٍ طويلٍ وظهر اسـمُ أمير المؤمنين بعد حرمانٍ طويل، فحفظ البلاد من التقسـيم ونظم إداراتها المالية والحياتية، وجرى تقوية جيشـها، الذي أدخل البلاد في مرحلة أمنٍ واستقرارٍ أمثلين.

ولابدَّ أن نشـير هنا أن هذا النجاح كان عالميًا بحق، فقد فشـلت جميع الجهود المبذولة مما يسمى أممًا متحدةً في تحقيق الا ستقرار في أفغانستان آنذاك ووقفت تتفرج على مشـهد الدمار والفوضـى وتُكرِّر ذات عبارات القلق! بينما جهود حركة طالبان بقيادة إمامها المُلَّا عمر، علَّمت العالَم كيف يكون النجاح وإرساء الأمان حتى في أحلك الظروف وأسوأ الأوقات.

والحقُّ أن هذا النجاح قد أغاظ قوى الكفر المستكبرة في العالم، فكان أولُ ردِّ فعلٍ منهم اتخاذَ موقفٍ عدائيٍّ تجاه الإمارة الإسـلامية، وبدأ مرحلة التمهيد لاجتياح البلد الوحيد على الأرض الذي كان يعمل بالشريعة الإسلامية ويقيم الحكم الإسلامي في ذلك الوقت بولاءٍ للمؤمنين وبراءٍ من الكافرين حسب شهادة كبار العلماء في العالم الإسـلامي وفي بلاد الحرمين.

وقد خرجت التقارير في وقتٍ لاحقٍ تؤكد أن مشـروع غزو أفغانسـتانَ كان موضـوعًا على طاولات النقاش والقرارُ فيه محسومٌ قبيل هجمات أيلول/سبتمبر على أمريكا.

إضاءات على شخصية وحياة المُلا عمر

تمتع الملا كشـخصـيةٍ قيادية بمواصـفاتٍ خاصـة. فقد كان لا يحب الظهور ولا يكثر من الحديث إلا لأمرٍ ذي بال، وإن تحدث لامس الناس حديثًا رصـينًا عاقلًا مدروسًـا متأنيًا بصـيرًا، ومِن كلماته خلال الحملة الإعلامية الأمريكية التي اشـتعلت في بداية الهجوم الأمريكي لحرب الإمارة الإسـلامية ما قاله المُلَّا بروحٍ مطمئنةٍ مبصـرةٍ عارفةٍ بسـنن

الأرض وظلم أهل الكفر، وواثقةٍ بنصــر الله، باختصــارٍ هي كلماتٌ من قلب الحكمة، قال المُلا عمر:

(إنّ الله تعالي قادرٌ على كل شـــيءٍ، ولا فرق عند الله تعالي بين قوة أمريكا وقوة نملة، فليسمعْ الأمريكيون وحلفاؤهم بأنّ الإمارة الإ سلامية ليست مثل نظام ظاهر شاه الذي سَيَفِرّ أميره إلى (روما) و سيستسلم جنودُه لكم، بل هذا النظام هو في الحقيقة جبهاتٌ قويةٌ للجهاد، فحتّي لو سيطرتم على المدن وعلى العا صمة أيضًا، وأ سقطتم الحكومة، فإنّ المجاهدين سيكمنون لكم في الأرياف والجبال، فماذا ستفعلون آنئذٍ؟؟!

إنكم ستُقتَلون مثل الشيوعيين في كل مكان، اعلموا أن إحداث الفوضى أمرٌ سهلٌ ولكن القضـاء على الفوضـى وإقامة النظام أمرٌ صـعبٌ للغاية. إنّ الموت حقٌّ وسـيتذوقه كلُّ إنســانٍ لا محالةَ، فأن يموتَ المرء ذليلًا في خســارةٍ للإيمان برفقة أمريكا خيرٌ أم أن يموت مسلمًا مؤمنًا عزيزًا؟!)

لقد فقَهَ الناسُ قول إمام الجهاد المُلَّا عمرُ، بعد أربعَ عشـرَة سـنةً حين شـاهدوا هزيمة أمريكا على أرض أفغانســتان، رغم ما حشـــدته من أرتال القوى بما فيها قوات الحلف الأطلسـي الجرارة، كل هذه القوى وقفت عاجزةً أمام جنود الملا محمد عمر شـبه العُزَّل، فكانت حقًا هزيمةً من العيار الثقيل.

وخرج الملا عمرُ أيضًا في بيانٍ إذاعيٍّ آخرَ في بداية الهجوم الأمريكي يقول لشعبه: (إنّ الأسلحة يمكنها أن تقتُل، ولكن لا يمكنها أن تصرف القتل عن أصحابها).

وصدقَ الملا، فقد شاهد العالم جثث الغزاة تُنقل في صناديق الموت إلى ديارها ولم تُغنِ عنها تلك الترسـانةُ المتطورةُ من الأسـلحة، ولم تضـمن لها الحياة، لقد قُتِل الأمريكيون وجُرِحوا وأُسِروا تمامًا كما كان يحدث مع جنود الإمارة، ذلك أن الله قال:

إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ.

وإذا أردنا وصـف حياة المُلّا عمرَ باختصـارٍ فهي عملٌ كثيرٌ وكلامٌ قليل، حياةٌ خاليةٌ من التكلف والظهور، هكذا كان عَلَمنا على الفطرة والبسـاطة في كل مظاهر حياته، بسيطٌ في ملبسـه في طعامه في حديثه في أمور حياته كلِّها، وكأنه رجلٌ من عصـرٍ قديم لم يعِشْ معنا على ذات الكوكب، لقد كُرِّه إليه التكلفُ والمتكلفون، وحُبِّب إليه من اتصـف بالتدبير والإخلاص والجدّية.

اعتادت نفسه على تحمّل المشاكل والمصائب فيُحسِن الصبر ويحسن التفكير لتجاوز الأخطار والعقبات. لم يعرف جنودُه فيه خوفًا ولا اضطرابًا ولا قلقًا، إلا غضبًا لدين اللّه وحُرُماته، كان شديد القدرة في ضبط سلوكه وأعصابه، في كل الحالات والظروف التي يمر بها رغم حجم الضـغوطات التي مر بها هذا العملاق. إنها بلا شـكٍّ سَـكينةُ الإيمان واطمئنان المؤمن.

عُرِف باحترامه العلماء والكبار، الذين عرفوا فيه الوقار، والحياء، والأدب، والاحترام المتبادل، والمواسـاة، والرحمة والإخلاص. وكذا عزيمةً لا تُبارى في جميع الأعمال، والتوكل على الله تعالي وحده، والرضا الصادق بالقدر خيرِه وشره.

أحبه شـعبه واتبعه بإرادةٍ واختيار، لا لمنصـبٍ أو مالٍ بل لسُـمعةٍ طيبةٍ وثقةٍ عظيمة. يسـمَعُ له جنودُه ويطيعونه ويضـحون بأنفسـهم لأجله لِما رأوه منه من إخلاصٍ وتفانٍ وأمانةٍ في قيادتهم.

ولا شـك أن الاهتمام بقضـايا الأمة الإسـلامية احتل جزءًا كبيرًا من فكر أمير المؤمنين الملا عمر، فقد كان شـديد التألم لحال المسـجد الأقصـى قبلة المسـلمين الأولي وقضية

فلسطين، ويعُدُّ تحرير المسجد الأقصى من أيدي اليهود مسؤوليةً شرعيةً لكل مسلم، وهذا حاله مع كل بلاد المسلمين أينما حل بها ألمٌ، ولم يكتفِ في هذا الميدان بالأُخوُّة والمواساة، والإيثار، والتعاون في حدود الشعار فقط، بل أثبت التزامه بهذه القيم في ميدان العمل أيضًا في كل وقت.

حاول بعض المشوِّشين الطعن في عقيدة عَلَمنا، وقد أقرت إمارتُه وكل من عرفه أن عقيدة الملا محمد عمر المجاهد تتبع منهج أهل السنة والجماعة، وهو من مقلّدي المذهب الحنفي، يُبغِض الخرافات والبدع، ولا يحب الاختلافات المذهبية والفكرية والتنظيمية بين المسلمين، ويوصي إخوانه المجاهدين والمسلمين جميعًا بالوحدة الإسلامية والتضامن الفكري فيما بينهم، ويرى الوحدة على أساس العقيدة بين المسلمين من أهم لوازم العصر، ويري أن اتّباع السلف الصالحين والأئمّة المجتهدين في ضوء القرآن والسنة هو العاملُ الوحيد لفلاح الأمّة الإسلامية.

ورغم ما بلغه المُلا محمد عمر المجاهدُ من شهرةٍ ومحبةٍ بين قومه وفي العالم الإسلامي، ورغم ما يحمله من اسمٍ كبيرٍ، كأميرٍ للمؤمنين وقائد إمارةٍ إسلاميةٍ ممتدة، بقي من الناحية المالية من أفقر حكام أفغانستان المعاصرين وأقلّهم إفادةً من أموال بيت مال المسلمين. لأنه لم يوظف يومًا وجاهته الجهادية في سبيل حاجاته الدنيوية، وخلال إمارته العامة على أفغانستانَ بقي لا يملك حتى بيتًا للسكن فيه، ولا يملك حساباتٍ أو ممتلكاتٍ في أيةِ بنوكٍ خارجية.

وحين فرض مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة العقوباتِ الاقتصاديةَ الظالمة من طرفها وحكمت بتجميد الأرصدة والحسابات المالية في البنوك الخارجية لقادة طالبان كان المُلّا محمد عمر المجاهد بصفته أمير إمارة أفغانستانَ الإسلامية وهو أعلى شخصيةٍ

في الإمارة لا يملك أيّ حسابٍ ماليٍّ باسمه الأصلي أو باسمٍ مستعارٍ في أيّ بنكٍ لا في الداخل ولا في الخارج.

وفي أيام حكم الإمارة الإسلامية حين تعرّض منزله لهجماتٍ خطيرةٍ وتسببت تلك الهجمات في استشهاد عددٍ من الأفراد بمن فيهم أفرادٌ من أسرته قام المسؤولون في الإمارة الإسلامية ببناء سكنٍ له ومقرٍّ للإمارة الإسلامية بقصد تأمين أمنياته في الجزء الشمالي الغربي من مدينة (قندهار) بالقرب من جبل (بابا صاحب) في المكان الذي لم تكن حولَه بيوتٌ لعامّة الناس، وذلك المنزل أيضًا كان ملكًا لبيت مال المسلمين ولم يكن بيتَه الشخصي.

ويذكرُ له جنودُه تاريخ ١٩٩٦م حين لُقّب بلقب أمير الإمارة الإسلامية حينها أطرق رأسه وأجهش بالبكاء فابتلّ رداؤه من الدموع، وفي نهاية الاجتماع خاطب العلماء الحاضرين في خطابه التاريخي فقال لهم: (أيها العلماء! إنكم لِعلمِكُمُ الشرعي تُعَدُّون ورثةَ النبي صلّي الله عليه وسلم، إنكم اليوم وضعتم هذه المسؤولية العظيمة على عاتقي، فإنّ مسؤوليتي عن الاستقامة على هذا الأمر أو انحرافي عنه في الحقيقة ترجع إليكم.

فيا أساتذتَنا ويا أيها العلماء الوقورون! فإن وقع منّا تقصيرٌ أو انحرافٌ في تحمّل أمانة المسلمين هذه فإن تقويمي وإصلاحي هما من مسؤوليتكم الشرعية، فيجب عليكم أن تُرشدوا في ضوء علمِكُمُ الشرعي هؤلاء الطلاب إلى الاستقامة والسير على طريق الحق.

فإن وقع من هؤلاء الطلاب أيُّ تقصيرٍ أو انحرافٍ عن تطبيق الأحكام الشرعية وأنتم تعلمونه ثم تسكتون عنه فإنّ المَلامة عند الله تعالي ستكون على عاتقكم، وإنني سوف أقاضيكم عند الله تعالي يوم القيامة).

قد لا يتخيل أحدٌ أن أمير المؤمنين المُلّا عمر بهذا الجدية وهذه الاستقامة لا يعرف الابتسامة! بل شهد له من عرفه بالدعابة أيضًا، فلا يتعالى على أحدٍ مهما كان أصغر أو أقلّ منه، وتعاملُه مع أصحابه لا يخرج عن دائرة الحب والشفقة والإخلاص والاحترام. ولا شك أن غالب حديث مجالسه كان عن الجهاد.

برنامج المُلا عمر اليومي

ورغم الملاحقات والمطاردات الغربية له، فإن ذلك لم يؤثر على وظائفه العادية وعلى تنظيمه ومراقبته للشؤون الجهادية بصفته زعيمًا للإمارة الإسلامية، فقد كان برنامجه اليومي كالتالي: يبدأ نهاره بالعبادة وبتلاوة القرآن الكريم، وحين تتيسّر له الفرصة يستغلّها في مطالعة التفاسير المتعدّدة وفي مطالعة الأحاديث الشريفة.

ويتابع مراقبة الشؤون الجهادية ضدّ الغزاة بجدّيةٍ تامّةٍ، ويصدر الأوامر بخصوص ترتيب وتنسيق الأمور الجهادية والعسكرية إلى القادة الميدانيين بطريقته المعيّنة، ويقوم بتقييم الانتصارات الجهادية ضدّ الغزاة، والأمور الأخرى عن طريق الإعلام الجهادي ووسائل الإعلام العالمية، ومن هذه الطرق يتعرّف على الأحداث اليومية في البلد والعالم. فهذه الأعمال تمثل المشاغل الأساسية اليومية لديه.

ومن بين أهم البيانات التي أصدرها الملا عمر خلال إمارته، بيانٌ أشاد فيه بصفقة تبادل خمسة معتقلين من حركة طالبان في سجن غوانتانامو مقابل إطلاق الحركة سراح جنديٍّ أميركيٍّ في آخر مايو/أيار ٢٠١٤، ووصفها بأنها "نصرٌ عظيم". وهو ما يعكس درجة إيمانه بأهمية فكاك الأسرى المسلمين ودرجة تعظيمه لكرامة المسلم.

ويتجلى ذلك في رفضه تسليم الشيخِ أسامةَ بنِ لادنٍ لقوات الغرب الغازية، بسببٍ واحد هو أنه لن يسلم مسلمًا لكافرٍ، فكان الثمن أن كان الأمير الأول الذي خسر مُلكه في سبيل نصرةِ رجلٍ مسلمٍ واحدا! قال يومَها: "الشيخُ أسامةُ بن لادن مسلمٌ مهاجرٌ إلى أفغانستان، وهو ضـيفٌ على الأفغان، وإخراجه أو تسـليمه مخالفٌ للإسـلام، ولِعادات الشـعب الأفغاني، وفوق ذلك فإن الإمارة الإسـلامية والشـعب الأفغاني لو غيَّروا موقفهم من الشيخِ أسامةَ فستترتب على ذلك مشاكلُ كثيرةٌ، وسيخسرون الكثير، والشيخُ أسامةُ بن لادن لا يعمل ضد أحدٍ من أرض الإمارة الإسلامية، وقد طلبنا منه ذلك، واطمأننا إلى أنه يلتزم به حتى لا يضر بعلاقات الإمارة الإسلامية مع الدول الأخرى"

وقد وصـفه الشـيخُ أسـامةُ بعد طول معرفةٍ وقد بايعه: "المُلّا محمد عمر هو الحاكم والأمير الشـرعي الذي يحكم بشـريعة الله في هذا العصـر، وأثنى على قراراته العظيمة، التي كان من آخرها قرار تحطيم الأصـنام، ومنع زراعة المخدرات، والوقوف بكلِّ عزةٍ وإباءٍ في وجه حملة الكفر العالمية، وما هذه المواقف إلا بعض مواقفه الإسـلامية التاريخية التي تؤكد صدقه وثباته على الطريق".

في أكتوبر من العام ٢٠٠١، قامت الولايات المتحدة مدعومةً من قِبل بلدانٍ أخرى بغزو أفغانسـتانَ؛ لرفض حركة طالبان تسـليم أسـامةَ بن لادن المتعاون مع الحركة فدفع هذا الولاياتِ المتحدة لتصـنيفها حركةً إرهابيةً واسـتُبعِدتْ حركةُ طالبان من دفة الحكم، ولجأت الإمارة لحرب عصـاباتٍ طويلة الأمد تنال من عدوها يومًا وينال منها يومًا آخر، ولكن وصل حالهم اليوم إلى سيطرةٍ جديدةٍ على مساحاتٍ شاسعة وبقاء اسم الإمارة صامدًا في وجه كل مَكرٍ صليبيٍّ حاقد.

وفاة المُلا عمر رحمه الله

تُوُفي المُلَّا عمر إثرَ مرضٍ أ صابه، وقد أخفَتْ إمارةُ أفغانستان الخبر سنتين، خشيةَ أن تتزعزع وحدةُ الصف أو أن يستغل العدو لحظةَ الحزن، وبقي الخبر مَخفيًا مدةً من الزمن حتى أُعلِن في بيانٍ رسميٍّ، بعد أن ضجت الساحة الإعلامية بالخبر عقب تسريباتٍ استخباراتيةٍ باكستانيةٍ له، وحمل الراية بعده مُلا أختر منصور والذي استشهد بقصفٍ صليبيٍّ جبانٍ ليمسك الراية بعده إلى لحظة كتابة هذه السيرة المُلَّا هبةُ الله، ولا تزال الإمارة قائمةً ومستمرةً في كفاحها مقتديةً بسيرة مؤسسها وأميرها ومستلهِمةً دروسه في الصبر والثبات واليقين وطلب العزة أو الشهادة.

رحمك الله يا مُلا عمر وأبدلنا عنك بألف عمر.



عبد الله عزَّام

يا معشــر النســاء! إياكنَّ والترف؛ لأنَّ الترف عدو الجهاد، والترف تلف للنفوس البشــرية، واحذرْنَ الكماليات، واكتفين بالضـــروريات، وربِّين أبناءكنَّ على الخشـــونة والرجولة، وعلى البطولة والجهاد. لِتَكُنْ بيوتُكن عَرِينًا لأســودٍ، وليس مزرعةً للدجاج الذي يُسَــمَّنُ ليذبحه الطغاة، اغرسْـنَ في أبنائكن حبَّ الجهاد، وميادين الفروسـية، وسـاحات الوغى، وعِشْنَ مشاكل المسلمين، وحاوِلْنَ أن تكُنَّ يومًا في الأسبوع على الأقل في حياةٍ تشبه حياة المهاجرين والمجاهدين، حيث الخبز الجاف، ولا يتعدى الإدام جرعات من الشاي.



الشيخ عبد الله عزام

عبقريةٌ سـامقةٌ لامعةٌ اقترن اسـمها بالعلم والجهاد، بالتفاني واليقين، تشِـعُّ روحه بتلك السكينة التي حفرتها سنين الهجرة والرباط فيها، وترتسم على ملامح وجهه تلك الثقة بوعد اللّٰه، ذاع صيته واشتهرت سيرته وأعلنت الأجيال بفخرٍ حبها ومودتها له، إنه شيخ المجاهدين وإمام المهاجرين، الدكتور عبد اللّٰه عزام، مَن ملَكَ حبُّ الجهاد حياتَه ونفسه ومشاعره وقلبه وكل أحاسيسه فترجم ذلك أفعالًا ما زالت منقوشةً على صفحات تاريخ خراســان وما زال طيفها يمتد إلى باحات الأقصـــى، هو الفلســطيني الذي هاجر ملبيًا النداء، إلى أرض أفغانســتانَ فسـبق بصـدقه أقرانه وكُتِب اسـمه كإمامٍ مجددٍ في زمانه وصارت كلماته خالدات.

نشأته

أبصرت عيناه النور لأول مرة في عام ١٣٦٠هـــ، في أرض جنين بفلسطين المحتلة، هناك ترعرع في مشـــهد عدو محتل وقهر لا يُحتَمل؛ فنَمَتْ معه عزة المســلم الأبي وتوثقت معه عقيدة الولاء والبراء. نشأ في بيئةٍ إسلاميةٍ نقيةٍ، وقد تربت نفسه منذ الصغر على حب الصـلاة والقرآن وكل ما هو من قبيل الاسـتقامة، كان يحمل همّ أمته منذ طفولته، فسـقاه باهتمامٍ برفقةٍ صـالحةٍ إلى أن التقى الشـيخين المربِّيَيْنِ "فريز جرار" و"شـفيق أسـعد"، فانضـم إليهما حين كان الثلاثة يحلمون بالحرية والنصـر ومجد للإسـلام قد دُنِّس!

لقد أسَـرَّ عَلَمنا آثار طفولته المكلومة خلال محنة الاحتلال في قلبه وهو مقبلٌ على مدرسـة الحياة وعمَّقها أكثر في ذاكرته حين أدرك أهمية التنشـئة الإسـلامية للطفل مع كل مرحلةٍ يمر بها، فخرجت منه حين بلغ أشُـده كلماتٌ مديدةٌ ثمينةٌ، تؤكد على أهمية

التربية الدينية منذ الصغر لتكوين وعي وشخصية الفرد المسلم الذي قد يصبح مجاهدًا أو عالمًا أو قائدًا أو صاحب هدفٍ سامٍ.

لِنَطوِ صفحات طفولة وشباب عَلَمنا إلى أن بلغ مستوى الجامعة، ولنلقِ نظرة فيما بعدها، لقد كان الشيخ عبد الله عزام بحقٍ ماجدًا خلال حياته العلمية، ناجحًا في تحقيق أهداف همته الذهبية، حاز على شهادة الماجستير من جامعة الأزهر عام ١٩٦٩م، وتوَّج مسيرة طلب العلم بالحصول على شهادة الدكتوراة في عام ١٩٧٣م.

مسيرته لنصرة الدين والأمّة

معاركه ضد اليهود

وفي ذات الوقت الذي كان يُسابِق فيه طالبًا عازمًا في مضمار العلم كان يسابق أيضًا لنيل المراتب الجهادية العالية في مضمار الحرب، فقد شارك خلال سنين دراسته في العديد من المعارك ضد الاحتلال اليهودي تشهد له معركة" الحزام الأخضر " عام ١٩٦٩م ومعركة " ٥ يونيو" عام ١٩٧٠م.

أُسَر المعتقلين

كما زاحم برنامجه اليومي بنشاطٍ بارزٍ في نصرة الأسرى خلال إقامته في مصر، وما زالت أُسَر المعتقلين من جماعة الإخوان المسلمين تتذكر مساعداتِه السخيةَ التي طرقت أبوابهم حين كانوا في أشد الحاجة إليها وفي وقت أطبق فيه ظلم النظام الحاكم عليهم دون أدنى رحمةٍ، واستمر دأبه في قرع كل أبواب الخير والمسابقة، وما إن يرتحل إلى أرضٍ حتى يزرعَ فيها ألوان البذل، ففي الأردن عمل في وزارة الأوقاف،

فأحيا روحَه حقلُ الدعوة والوعظ، واشـــتغل أيضًـــا بالتدريس في الجامعة الأردنية، فكانت أجواؤه علميةً مِعطاءةً بحتةً.

أفغانستان

ومع ما كان يحمله الشـــيخ من حبٍّ للجهاد ومع ما رأته عيناه من ظلمٍ واضـــطهادٍ لأهل فلسـطين المحتلة، كان ثمة في ذلك الزمان صـراعٌ من ذات النوع تدور رحاه على أرض أفغانستان أمام أخطبوط الروس العسكري، حين كان يُسمَّى الاتحاد السوفييتي، والذي اجتاح الأرض المسلمة وعاث فيها فسادًا وتدميرًا ففزع المسلمون وفزع معهم الشيخ عبد الله عزام لينفِر مقبِلًا غير مدبر ملبيًا نداء النصـــرة، وليُخَلَّدَ اســـمُه في كثير من المعارك ضـد الصـليبيين الروس، كان من أشـدها وأشـرسـها معركة" جاجي" في شـهر رمضان عام ١٤٠٨هـ_١٩٨٧م.

وكيف لا يشارك عَلَمنا في جهاد المسلمين هناك وهو صاحب مقولة: "رحابةُ الإسلام لا ضـيقُ الوطنية. الإسـلام لا يعرف تلك الحدود المتوهَّمة التي فرضـها المحتل الصـليبي علينا. لا فرقَ بين قطرٍ إسـلاميٍّ وآخرَ فوطن المسـلم دينه، وجنسـيته عقيدته. وطني الإسلام لا أفدي سواه وبنوه أين كانوا إخوتي".

لم ترضَ همةٌ كهمة عبد الله عزام مجرد المشـــاركة في حمل الســـلاح بل قرَنَها بدعوةٍ وتحريضٍ على القتال، لقد كان يحمل فكرًا نيّرًا وعبقريةً نادرةً وفَّق بها بين الجهاد العملي والفكري فبات المؤثر الفعلي في أجيال المجاهدين، ففضـــلًا عن المشـــاركة الميدانية في سـاحات القتال سـعى الشـيخ لاسـتقبال واحتضـان الشـباب المجاهدين العرب المهاجرين إلى أفغانستان.

إسهاماته في الإعلام وخدمة المجاهدين

وقادته بصيرته لتأسيس "مكتب خدمات المجاهدين" ليكون مؤسسة إغاثية جهادية متخصصة بالعمل داخل أفغانستانَ فضلًا عن إنشاء خمسة مستشفياتٍ لخدمة المرضى. إنجازاتٌ لم تكن لتُزَهِّده عن اقتحام العالَم الإعلامي فقد سابق لتأسيس مجلة "رسالة الجهاد" التي اعتاد الناس على إشراقتها في كل شهرٍ تعطر الأجواء بعبق الجهاد وأريج الدعوة. كما قام بتأسيس مجلة "نشرة لهيب المعركة" وهي أسبوعيةٌ تتناول آخر المستجدات على الساحة الأفغانية.

فاقتحم بذلك خندق الصحافة وخلّد بصمته فيه. إننا نتحدث عن عَلَمٍ لم يترك مضمار سباقٍ إلا ونثر فيه من بريق همته وعزمه وحسن تدبيره وبصيرته، فترك خلفه إرثًا علميًا تلخِّصه عناوين كتبه المنتشرة. منها كتاب العقيدة وأثرها في بناء الجيل. وكتاب الإسلام ومستقبل البشرية وكتاب آيات الرحمن في أفغانستان وكتاب الدفاع عن أراضي المسلمين أهم فروض الأعيان وكتاب اِلحَق بالقافلة.

من كان يعتقد أن الوقت لا يكاد يكفي إلا للجهاد الميداني فقد غابت عنه همة الشيخ عبد الله عزام، تلك الهمة التي ضربت لنا مثلًا في بركات الإقبال والإحسان والزرع في شتى الميادين لبذور الخير والاجتهاد، ففي حين كان يسابِق في المجال العسكري بامتشاق السلاح وبالرباط، كان يقرِنُ ذلك البذل بسَبقٍ عِلميٍّ وإعلاميٍّ.

تجلت عبقريته في سعيه الجاد والحثيث لإقامة الدورات التدريبية والمعسكرات لإعداد المجاهدين وإنجاحها وكذا فتحِ المدارس وإقامة المراكز التربوية لتهيئة جيلٍ مقبلٍ قادرٍ على تحمل تكاليف الطريق، ففاز-نحسبه-بأجره وأجر من علَّم ودرَّب.

لا شك أن مثل هذا السجل الحافل بالإنجازات هو السبب وراء حيازة عَلَمنا اسم الأب الروحي للحركات الجهادية التي انطلقت بعد ذلك تواجه قُوى الصليب والباطل، وتنتصر للمستضعفين المسلمين، بعد أن قُبِرت إمبراطورية الإلحاد السوفيتية في أرض أفغانستان العَتية بسواعد المجاهدين.

ولا يكاد يُفتَح معسكرٌ من معسكرات التدريب الجهادية إلا وتتردد فيه كلمات هذا الأب والمربي الحاني على أبناء أمته والناصح والمشفق الأمين لإخوته، وتفعل تلك الكلمات مفعولها السحري في قلوب المتدربين المقبلين، فينظرون لما هو آتٍ بعين البصيرة واليقين، ويشتد عزمهم وتَقوى إرادتهم وتقتدي خطواتهم برجلٍ أراد الله له البقاء حيًا في قلوب الأجيال المجاهدة من بعده.

لقد كان الشيخ كما كان يصف حال المؤمن حين قال: "المسلم كالنبتة الطيبة أينما غرس أثمر. أيًا كان مكانك، أيًا كانت إمكاناتك تستطيع أن تخدم الإسلام وأن تؤدي واجبك نحوه".

إشراقة على شخصية عزَّام

تميّز عَلَمنا بشخصيةٍ قويةٍ عارفةٍ تكسوها أخلاق العزة والإباء لا تأخذه لومة لائمٍ أمام كلمة الحق أو النهي عن المنكر وقد طُرِد يومًا من الجامعة الأردنية بعد أن هدد أحد الصحفيين الذي قام برسم كاريكاتيرٍ يستهزئ باللحى التي هي عنوان المسلم الملتزم، ليعلِّم الناس كيف يكون الانتصار للمبادئ والتضحية لأجلها.

وتجلت قوة شخصيته وصلابة معدنه خلال المعارك والقتال، وهو يلقي دروسًا في الجرأة والشجاعة بينما يتقدم الصفوف داعيًا الموت للإقبال تدفعه أشواق اللقاء ومعانقة السماء، ومازالت محاضراته التاريخية المُلهِمة التي حبّرها بتجربته وخبرته

في ميادين النزال، ومواجهة قُوى العدوان، تتكرر في فضـــاء العالم الجهادي تتوارثها الأجيال وتنبهر لصدق كلماتها العقول وتقتدي بتحريضها العجيب القيادات.

علّم الناس الزهد والتقشـف في سـبيل أن تعيش المبادئ وتُزهِر الأهداف فقد ترك حياة الرفاهة والترف وأوصـــى بذات الأمر وهو مدركٌ كلَّ الإدراك أن المطالبة تعني الالتزام بالمطلب قبل كل الناس، ومن عرف ســـر ذلك الاســـتعلاء على فتات الدنيا في ســـبيل الانتصار في الدنيا والآخرة، عرف وَقْع تلك الوصايا التي خطها شيخنا لِمَن بعدَه وخص فيها النســـاء تحديدًا كحاضـــنةٍ أولى لرجال المســـتقبل قائلًا: "يا معشـــر النســـاء! إياكنَّ والترف؛ لأنَّ الترف عدو الجهاد، والترف تلف للنفوس البشــــرية، واحذرْنَ الكماليات، واكتفين بالضروريات، وربِّين أبناءكنَّ على الخشونة والرجولة، وعلى البطولة والجهاد.

لِتَكُنْ بيوتُكن عَرِينًا لأســـودٍ، وليس مزرعةً للدجاج الذي يُسَـــمَّنُ ليذبحه الطغاة، اغرسْـنَ في أبنائكن حبَّ الجهاد، وميادين الفروسية، وساحات الوغى، وعِشْنَ مشاكل المسلمين، وحاوِلْنَ أن تكُنَّ يومًا في الأســـبوع على الأقل في حياةٍ تشـــبه حياة المهاجرين والمجاهدين، حيث الخبز الجاف، ولا يتعدى الإدام جرعات من الشاي".

كان متســـامحًا مع إخوانه، محبًا ودودًا خدومًا تحمَّل بلا شـــك الكثير في ســـبيل دعوته وجهاده، ومثلُه لا يمكن حصر جميل خصاله وكريم فِعاله وحسن وصاله وتواضع نفسه وَجُود محبته للمســـلمين إلا بالتعمق أكثرَ في عبقريته الفذة، ولعل أنفاســـه التي ترددت مع نشـــيد (ينام أخي على زندي أظلله بأهدابي وفي عيني ينام أخي.) وهو يلقيها بذلك الألم والإخلاص، تعكس صـــورة تلك الروح الزاخرة بالمحبة لإخوانه والمُشـــفِقة الرفيقة الرهيفة مع ما تُظهره من بسالةٍ وشجاعةٍ وصلابةٍ وإقدامٍ في ساحات القسوة.

كان الشـيخ يقرب منه كل مُسـابِق في مضـمار الجهاد والعلم لتتوحد صـفوف العاملين وتبارك جهودهم لأنه أدرك أن قبة النصـر لابد لها من وحدة صـفٍ، وأنه لابد من تضـافرٍ وتنسـيقٍ وفتحٍ للطريق أمام أكثر الهمم بذلًا وسـعيًا لنصـرة المسـلمين ولهذا كان في مسيرته يحفظ لذي الحق حقه ويكرم ذا المكانة والشأن في الأمة، فلا يستصغر جُهدًا مهما صغُر ولا ينكر معروفًا من باذلٍ وإن لم يَعرِف صاحبه، فكان بذلك أقربُهم إلى قلبه أكثرَهم عطاءً لدينه وأمته ليُقِرَّ عَلَمنا قاعدة " رباط الدين أثمن من رباط الدم".

لقد ولّدت خبرة الرباط وممارسـة الجهاد والاحتكاك المباشـر مع جموع المجاهدين والنفسـيات البشـرية المختلفة، خبرةً لا تُضاهى لدى الشـيخ عبد اللّه عزام ليصـبح بلا منازعٍ الطبيب النفسـي العارف بأمراض الجهاد وسـبل علاجه، ومن أبرز كلماته الخالدة التي تعكس درايةً عميقةً بأمراض السـاحة الجهادية، مقولته عن التربية الجهادية أنها لازمةٌ قبل حمل السلاح؛ لأن من يحمل السلاح دون تربيةٍ يتحول من مجاهدٍ إلى قاطع طريقٍ أو لِصٍ مسـلحٍ. وقد ركز في جهاده الفكري على وضـع أسـس التربية الجهادية وحرَصَ على اعتمادها اعتمادًا رئيسـيًا ووحيدًا على المنهج الرباني وعقيدة التوحيد الصافية، والتي لا تكون إلا بالقرآن والسنة وما أجمع عليه السلف الصالح.

وفاة القائد

ولكن في ذات الوقت الذي كان فيه الشـيخ عبد اللّه عزام يكِدُّ ويسـابق الزمن لتحصـيل أكبر قدرٍ ممكنٍ من النفع للمسـلمين والإنجاز لأمته، كانت أعينٌ ماكرةٌ غادرةٌ تترصـده وتنوي قتله، أعينٌ علمت مدى تأثيره وأهميته في جمع الأمة وإيقاد الهمة وتحريض المؤمنين، فتعقبته في طريقه وكَمَنَت له ليسـتشـهد الشـيخ مع أبنائه في باكسـتانَ إثر انفجار سيارته في ١٤١٠/٤/٢٥هـ الموافق لـ ٢٤ /١٩٨٩/١١م. وهو في شعلة نشاطه وعطائه.

ولتختم الشــهادةُ حياته، موقِّعةً على صــفحات أقواله وأفعاله الصــادقة كما نحســبه، وليتراءى على مشــهد اغتياله طيفُه يحدثنا عن نفســه قائلًا: "لقد ملك حبُّ الجهاد على حياتي ونفســي ومشــاعري وقلبي وأحاســيســي، إنَّ ســورة التوبة بآياتها المحكمة التي مَثَّلت الشِّـرْعَةَ النهائية للجهاد في هذا الدين وإلى يوم الدين، لَتعتصـرُ قلبي ألمًا وتُمزِّق نفسي أسًى وأنا أرى تقصيري وتقصير المسلمين أجمعين تجاه القتال في سبيل الله".

هذه قصــة بطلٍ من أبطال الإســلام في زمنٍ قريبٍ، تشــربت كلماته من دمائه وأعيت همئُه مَنْ بعدَه، وسـرَتْ تعابيره في أجسـاد السـامعين، فأزهرت أرواحها، وأحيتها بحب الجهاد وأشــعلتها بقوة الإقبال، فلتفخر أمتنا بأمثاله وحُقَّ لها أن تفخر. ســلامٌ عليك يا إمام المجاهدين في برزخ الشهداء الخالدين، كما نحسبك، ونسأل الله تعالى أن يتقبلك.

خبَتْ مصابيحُ كنا نستضيء بها. وطوَّحت للمغيب الأنجم الزهر

واستحكمت غربة الإسلام وانكسفت. شمس العلوم التي يُهدى بها البشر



أبو مصعب السوري

"فكثير من جماعات الصحوة تفوق تنظيراتها الفكرية إنجازاتها العملية أضعافا مضاعفة، كما أن العالِم يعلم أضعاف ما يحتاجه عمليا، وفي المقابل فإن العامي مأمور شرعا بأن يعود لأهل الذكر في أمور دينه صغيرها وكبيرها، ولكن العجيب أن بعض العلماء إذا نزلت النازلة المعضلة نزع العمامة وغاص بين الكتب، وشرع ينظر في المصالح والمفاسد ويقلب النظريات والآراء، ويضرب أخماسا بأسداس. وبينما هو في هذه الحالة المشفقة يرمق بعض العامة من بعيد فيراه مطمئن البال هادئ الروع واثق العزيمة يشير إلى المخرج إشارة المفطور على الإسلام، كالحمام يرى النور فيحلق نحوه، وتحته من لا يزال ينظر تارة إلى الخريطة وأخرى إلى البوصلة وقد غفل بانشغاله بهذه العلوم عن طلوع الصباح."

الشيخ عمر عبد الحكيم (أبو مصعب السوري)

حديثنا في هذه الصفحات، عن عَلَمٍ أسطورةٍ وباحثٍ معجزة، جمع بين الفنون والمواهب كلها ليصبح بلا جدال صاحب سيرةٍ مدهشةٍ في عصرنا، إنه القائد العسكري، والخبير الاستراتيجي، والمحلل السياسي، والمنظِّر الميداني، والمؤرخ العربي، والإعلامي الصحفي، والعالِم الشرعي والمخطط الذكي، ومهندس حرب العصابات، والباحث في قضايا أمته، والمجاهد والمعلم والرياضي، كل هذا إن بحثتَ عنه وجدتَ عنوانه الشيخ أبا مصعب السوري بلا أدنى مبالغة.

لا يمكن أن نقدر وزن الرجل إلا إذا قرأنا له واستمعنا له وعرفنا سيرته بدقائقها، وقد امتاز عَلَمنا بنبوغٍ وتميّز نادرَيْن، ولعل أكثر ما يبرز ذلك براعتُه في التخطيط ورسم الحلول في مواجهة الأعداء وطرق ضربهم وردّ عدوانهم وخاصةً قدرته الفائقة في قراءة مستقبل الساحة والصراع بين قوى الغرب الكافر والعالم الإسلامي.

لقد قدم أبو مصعب السوري تنظيراتٍ تُخَط بماء الذهب، حدد فيها مواطن الضعف والقوة لدى العدو، ووصف وصفًا عجيبًا طريق النصر المنتظر للتخلص تمامًا من أغلال الغرب الكافر المسيطرة على عالَمنا الإسلامي. من قرأ له شعرَ بأنه مطالَب كما كل مسلم بتحمل المسؤولية في نهضة هذه الأمة، لقد تمكن من تحديد أمراض الساحة والجماعات العاملة فيها وقدم العلاج الأنجع لتجاوز الأخطاء والعقبات والعثرات، في سبيل توحيد جهود جميع أبناء الأمة لتحقيق الهدف المنشود.

برزت عبقرية أبو مصعب من خلال محاضراته وتسجيلاته وكتبه والتي ظهرت فيها شخصية الباحث المتمرس الذي جال الأرض بحثًا عن الحقيقة، الذي لم يكتفِ بالبحث عنها من خلال النظر والتقليب في صفحات الكتب والمؤلفات بل نَشَدها بتقليب النظر

في ملكوت السماوات والأرض، وانتقل بهمته السامقة يتفرس ساحات المواجهة ويقابل الشخصيات المؤثرة ويدرس الظواهر والعوامل التي أدت بأمتنا للضعف وكذا تلك التي ستؤدي لعودة مجدها من جديد.

نشأته

هناك في شارع أقيول في مدينة حلب شمال غرب سورية من بلاد الشام العريقة، وُلِد عَلَمنا في فجر يوم ١٧ ربيع الأول (١٣٧٨هـ)، في صيف (١٩٥٨) واشتهر بلقب أبي مصعب السوري أو عمر عبد الحكيم ولكن اسمه الكامل هو مصطفى بن عبد القادر بن مصطفى بن حسين بن الشيخ أحمد المُزَيِّك الجاكيري الرفاعي. من أحفاد الشيخ أحمد الرفاعي صاحب الطريقة المشهورة، ويصل نسبه إلى الإمام يوسف بن الإمام موسى الكاظم، وصولا إلى السبط الشهيد الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، فهو قُرَشِي النسب وذلك بحسب شجرة نسب أسرته المثبتة لدى النسابين في مدينة حلب الشهباء.

أما في حلب فتُعرَف أسرتُه بكنية (ست مريم) نسبة إلى جدة الأسرة (مريم) وكانت سيدةً فاضلةً ذاتَ قدر في الشام وهي زوجة الشيخ أحمد المزيك رحمهم الله جميعًا. أما أمُّه فهي ابنة الحاج محمد نصار. وهم من أسرةٍ مصرية الأصل، كان جدهم قد حضر مع حملة إبراهيم باشا إلى حلب زمن العثمانيين ثم استوطنها.

نشأ أبو مصعب في عائلة محبة مؤمنة رعَتْه رعايةً طيبةً، وانطلق يتعرف على هذا العالم من نقطة البداية ألا وهي التعليم، فتدرج في سلم الدراسة حتى وصل كلية الهندسة الميكانيكية في جامعة حلب التي تخرَّج فيها في سنة ١٩٨٠.

مسيرته الجهادية

تنظيم الطليعة المقاتلة

وفي تلك الحقبة عايَشَ عَلَمنا ما ألمَّ بسورية وما عرفته من تجييشٍ للجهاد، فالتحق أبو مصعب مُسارِعًا في (١٤٠٠هـــ -١٩٨٠) بتنظيم الطليعة المقاتلة الذي أسسه آنذاك الشيخ الشهيد مروان حديد رحمه الله.

مدرب عسكري في الأردن

ولكن مع انتكاسة الثورة الجهادية السورية، هاجر أبو مصعب إلى الأردن والتحق هناك بجماعة الإخوان المسلمين وعمل مدربًا في الجهاز العسكري للتنظيم في قواعده في الأردن، وفي معسكراته في بغداد (١٩٨٠-١٩٨٢) وعُرِف أيامَها باسم أبي العبد.

واستغل الفرصة في تلقي عددٍ من الدورات العسكرية على يد ضباط فارين من الجيش السوري في الأردن وأيضًا تلقى تدريبًا لدى الجيش العراقي في بغداد والنظام المصري في القاهرة خلال صراع النظام العراقي والمصري مع النظام السوري.

جماعة الإخوان المسلمين

واختار أبو مصعب لنفسه تخصصًا خطيرًا في علم هندسة المتفجرات، وحرب عصابات المدن والعمليات الخاصة. وقد برع ميدانيًا في هذا الاختصاص، وفي أثناء معارك حماة سنة ١٩٨٢، عينت جماعة الإخوان المسلمين المقيمة في بغداد الشيخ أبا مصعب عضوًا في القيادة العسكرية العليا بإمارة الشيخ سعيد حوى ونائبًا للمسؤول عن منطقة شمال غرب سوريا.

ولكن ارتباط الشــيخ أبي مصــعب مع جماعة الإخوان المســلمين لم يدُمْ طويلًا، فأعلن انفصاله عن الجماعة إثر دمار مدينة حماة وانهيار برنامج المواجهة مع النظام السوري. ويرجع سبب هذا الانفصال احتجاج الشيخ على إبرام جماعة الإخوان التحالفَ الوطنيَّ مع الأحزاب العلمانية والشـــيوعية والفرع العراقي لحزب البعث! والذي لم يكن ليقبلَه لأسـبابٍ عَقَديةٍ منهجية، كما أنه كان يشـتكي الفسـاد وسـوء الإدارة لدى الإخوان الذي وجده أبو مصــعب ســببًا في دمار حماة وإجهاضًــا للثورة الجهادية وهو ما لم يغفره للجماعة فرحل عنها آسفًا، وقد فصَّل هذا الواقع المؤلم في كتابه المشهور الذي أرَّخ فيه تلك التجربة السورية ودروسها.

العودة إلى سوريا

انطلق بعدها عَلَمنا الباحث إلى فرنسـا لإتمام دراسـته هناك عام (١٩٨٣ــــ١٩٨٥) ولكنه ما لبث أن قطع دراسـته ليعود لسـورية اسـتجابةً لدعوة الشـيخ القائد عدنان عقلة لإعادة بناء الجهاد في ســوريا لكنها محاولة باءت بالفشــل واعتُقل الشــيخ عدنان عقلة-رحمه الله-ومعظم من تبقى من الطليعة، وهنا تفرغ الشيخ أبو مصعب لمحاولة تكوينِ تنظيمِ جهاديٍّ سـوريٍّ جديد سـنة (١٩٨٥) لكنه بدوره لم يرَ النور، ثم هاجر إلى إسـبانيا واسـتقر فيها.

أفغانستان

محاولة أبي مصــعب تكوين تنظيم جهادي في ســوريا قادته إلى أفغانســتان جامعة الجهاد في العالم الإسـلامي في عصـرنا، وذلك سـنة (١٩٨٧) كونَها أرضًـا توفر سـاحةً للإعداد ولجمع المعونات لانطلاقة العمل الجهادي.

ولا شـــك أن رحلته لأرض خراســـان أَثْرَتْ علاقاته ومعارفه كيف لا وقد التقى بشـــيخ المجاهدين وإمام المهاجرين العرب، الشـيخ الشـهيد عبد الله عزام الذي تعرف عليه في بيشـاور-باكسـتان، والذي أقنعه بالانضـمام إلى الجمع العربي والجهاد الأفغاني ليضـع خبرته في مجال تدريب الجمع الناشئ. فهاجر إلى هناك ووجد لنفسه موطئَ قدم.

كانت هذه المرحلة للشيخ أبي مصعب مرحلة العطاء والبذل في الجهاد العربي الأفغاني فقد عمل في مجالات التدريب المختلفة وخاصةً في مجال هندسة المتفجرات والرماية والقتال القريب، وكان الشيخ حاصلًا على درجة الحزام الأسود في رياضة (الجودو) في فرنسـا سـنة ١٩٨٤في أثناء دراسـته فيها فأحسـن توظيف هذه الرياضـة في سـبيل الله وتدريب المجاهدين.

ولأنه مفكرٌ باحث، فقد حاضَــرَ في الفكر الجهادي بصــورةٍ بارعة ودرَّس مادة حرب العصــابات في معســكرات المجاهدين العرب فكان أن نال إعجاب طلابه وتلامذته، كما شارك ميدانيًا في الجهاد الأفغاني ضد الروس والشيوعيين خلال ١٩٨٧ـــ١٩٩١م ولأنها كانت أرضيةً خصبةً للجهاد اجتمع فيها المجاهدون العرب من كل الأمصار، وبرزت فيها شـخصياتٌ قياديةٌ ملهَمة ذاع صـيتُها وأرعبت الأعداء، وأدَّتْ خليطًا رائعًا من البطولات والتضحيات والإيثار والتنافس في سبيل الله، التقى الشيخ أبو مصعب بالشيخِ أسامة بن لادن وكان من المقربين منه، والعاملين معه.

والتقى أيضًـا مع سـيد إمام الشـريف المعروف باسـم الشـيخ عبد القادر بن عبد العزيز صـاحب كتابَيْ "العمدة" و"الجامع"، وقد اسـتفاد منه في تحصـيله الشـرعي الذي دأب عليه. وكان الشـيخ أبو مصـعب يحرص على عرض كتاباته عليه. وقد ذكر عَلَمنا مرةً أنه لم ينشر كتابه (التجربة السورية) إلا بعد عرضه على الشيخ عبد الله عزام، ثم مراجعته

وقراءته من قبل الشيخ عبد القادر بن عبد العزيز وإجازته له بنشره. كما أجاز له أيضًا نشر "البيان الأول لدعوة المقاومة الإسلامية العالمية".

كما أفاد خلال رباطه في هذه الأرضية الخصبة للعمل الجهادي من العديد من مشايخ وكُتَّاب ومفكري التيار الجهادي الذين أمُّوا الجهاد الأفغاني آنذاك، كالدكتور أيمن الظواهري، والشيخ عمر عبد الرحمن، والشيخ رفاعي طه، وغيرهم من المفكرين والكُتَّاب والعلماء في التيار الجهادي.

كان للقراءة والبحث الأثر البالغ في تطوير مهارات ومَلَكات عَلَمنا، وقد كان يردد كثيرًا (آمنت بالقراطيس، نحن أصحاب القراطيس، ذهب العلماء وحُصِرْنا، وبقيت القراطيس) إشارة إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مؤمني آخر الزمان بقوله: (وجدوا قراطيس آمنوا بها) فكان يقضي أكثر وقته منكبًا على الدراسة والمطالعة في كتابات الشيخ الشهيد سيد قطب، والشيخ عبد الله عزام، وعباقرة المسلمين أينما وجدوا وقد تأثر بهذه العبقريات في منهجه وكتاباته.

ولم يشغله اختصاصه وميوله عن الاهتمام بالجانب الشرعي فكان محبًا لكتب ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم. واهتم بتراث أئمة السلف. وأئمة الدعوة النجدي، وغيرهم.

و ما يثير الإعجاب أن همة عَلَمنا لم تتوقف عند المثابرة في ميادين الجد والرباط ومواجهة الأعداء والصعاب، بل رغم شدة انشغاله في أثناء وجوده في باكستان وأفغانستان في الجهاد والتدريب والتدريس، سجل الشيخ في جامعة بيروت العربية في قسم التاريخ-بالمراسلة-وكان يدرُس مناهجه حتى في أثناء تواجده في الخط الأول، فبارك الله في اجتهاده. ونجح في الحصول على شهادة (ليسانس) في التاريخ سنة (١٩٩١) م من فرع الجامعة في عمَّان_الأردن.

جولته الأوروبية

هاجر الشـيخ إلى إسـبانيا سـنة (١٩٩١) م ثم منها إلى بريطانيا بعد مدةٍ وجيزةٍ وذلك بهدف مساعدة الإخوة الجزائريين استجابةً لدعوة الشيخ قاري سعيد الجزائري الذي عاد من أفغانستان إلى الجزائر ليشارك في تأسيس الجماعة الإسلامية المسلحة.

فمكث أبو مصعب في لندن خلال (١٩٩٤ــــ١٩٩٧) م وعمل مع الخلية الإعلامية الداعمة للجهاد في الجزائر. وحرر في نشـرة الأنصـار الجزائرية وغيرها من نشـرات الجماعات الجهادية التي كانت تصـدر من أوروبا خلال ذلك الوقت وخاصـةً نشـرة الفجر الليبية ونشرة المجاهدون المصرية. ولكن بعد الانحراف البشع للجماعة الإسلامية المسلحة في الجزائر وتورطها في دماء المسـلمين بل وحتى المجاهدين، بعد أن وقعت ضـحية الاختراق الاستخباراتي الفرنسي والجزائري، أعلن أبو مصعب براءته من قيادتها براءة تامة وقرر على إثر ذلك تفرغه للعمل الأدبي والصحفي المستقل.

كان عَلَمنا يحمل عِلْمًا ثقيلًا وتجاربَ كثيرةً ويجيد أكثر من لغةٍ أجنبية فأحسن توظيفها بإنشـاء مكتب دراسـات صـراعات العالم الإسـلامي وذلك في لندن سـنة (١٩٩٦) ونجح المكتب نجاحًا رائعًا وقد نفذ مشـروع مقابلتين صـحفيتين مع الشـيخِ أسـامة بن لادن، الأولى للقناة التلفزيونية الرابعة في(BBC) والثانية مع شبكة (CNN) وكان يتجهز لإتمام دراسته العليا في الصحافة والعلوم السياسية في بريطانيا.

ولكنه تعرض إثر ذلك لضغوط من أجهزة الأمن البريطانية؛ وكان هذا أحد أسباب هجرته إلى أفغانسـتان في سـنة (١٩٩٧) إثر نجاح طالبان في إقامة الإمارة الإسـلامية، وهناك مكث إلى تاريخ سقوطها في ديسمبر (٢٠٠١).

العودة إلى أفغانستان

أسس أبو مصعبٍ في أفغانستان خلال تلك المدة (١٩٩٧-٢٠٠١) معسكر الغرباء في قاعدة قرغة العسكرية الشهيرة في كابل بالتعاونٍ مع وزارة دفاع الطالبان. وبايع أمير المؤمنين مُلا محمد عمر في قندهار في محرم (١٤٢١هـــــــ٢٠٠٠م) وكوّن مجموعةً مجاهدةً عملت ميدانيًا مع طالبان، فقاد مجموعته و شارك ميدانيًا في الجهاد إلى جانب قوات الطالبان، كما عمل مع وزارة الإعلام، وكتب في جريدة الشـريعة الناطقة الرسـمية باسـم الإمارة الإسلامية، وشارك في إعداد برامج إذاعة كابل العربية.

ولم يكتفِ بهذا النشـــاط فأضـــاف إليه تأســـيس مركز الغرباء للدراســـات الإســـلامية والإعلامية وأصدر مجلة قضايا الظاهرين على الحق، كما ألّف عددًا من الكتب والأبحاث والمحاضرات وأطلق درته (دعوة المقاومة الإسلامية العالمية) الرائعة، وبدأ ببرنامج بثه عبر كتاباته وتسجيلاته إلى خارج أفغانستان، من مركز ومعسكر الغرباء في كابل.

ولكن شاء اللّٰه أن يُدَمَّر معسكر الغرباء بالكامل في أكتوبر ٢٠٠١. إثر قصفٍ أمريكيٍّ جبان، قادته الولايات المتحدة خلال هجومها على الإمارة الإسلامية نقمةً على أحداث سبتمبر التي نالت من كبريائها وغطرستها فضلًا عن وزارة دفاعها المعظَّمة.

دعوة المقاومة الإسلامية العالمية

وإثر سقوط الإمارة اعتزل أبو مصعب وتفرغ على مدى السنوات الأربع الماضية لصياغة (نظريات ورسائل دعوة المقاومة الإسلامية العالمية) وعددٍ من الأبحاث الأخرى.

ثم قرر عَلَمنا في ديسـمبر ٢٠٠٤ إنهاء عزلته الفكرية ليسـتأنف نشـاطه الفكري والميداني، لمتابعة نشـر وبناء دعوة المقاومة الإسـلامية العالمية التي بثّ فيها الكثير من عبقريته.

وجاء هذا القرار إثر إعلان وزارة الخارجية الأمريكية مذكرةَ بحثٍ واعتقالٍ بحقه وتخصيصها مكافأةً ماليةً للقبض عليه.

لم تكن هذه المذكِّرة لتمنع أبا مصعب من الحركة، وشاء الله أن تعتقله السلطات الأمريكية مصادفةً في باكستان في عام ٢٠٠٥م ولأنها تعلم مدى إجرام الأنظمة العربية في ذلك الوقت، رحّلته إلى سوريا ضمن برنامج الترحيل السري لوكالة المخابرات الأمريكية.

الإنتاج الفكري

لأبي مصعب مؤلفاتٌ كثيرة، أبرزها الموسوعة الضخمة "موسوعة المقاومة الإسلامية" في ستة أجزاء، وكتابه أفغانستان والطالبان ومعركة الإسلام اليوم، وكتابه ملاحظاتٌ حول التجربة الجهادية في سوريا، وكتابه أهل السُّنة في الشام في مواجهة النصيرية والصليبية واليهود، وكتابه المسلمون في وسط آسيا ومعركة الإسلام، وكتابه باكستان "مشرف"؛ المشكلة والحل والفريضة المتعينة، وكتابه مختصر شهادتي على الجهاد في الجزائر.

لنلاحظ ذلك التنوع في المواضيع التي ألَّف فيها عَلَمنا، لاطلاعه على واقع هذه الأمصار وشهادته الحية على أحداثها وتطوراتها، بالإضافة إلى عددٍ من الشرائط الصوتية منها «قراءة في التجربة السورية» و«دروس في نظرية حرب العصابات» و«واقع المسلمين. الأزمة والمخرج» و«الجهاد هو الحل».

ولعل أبرزَ حدثٍ جعل أنظار العقلاء تتجه لبحوث أبي مصعبٍ والإذعان لعبقريته هو تلك الأحداث التي توالت إثر سقوط الإمارة الإسلامية في أفغانستان، إذ أن تنظيرات أبي مصعب بدت وكأنها تخرج من حيز الكلام إلى حيز التنفيذ، وهو ما يُسمى بخطة

أبي مصعبٍ السداسية التي تنبأ بها، والتي بدأت أول مرحلة فيها في عام ٢٠٠١ بضرب أميركا في عقر دارها، ثم جاءت المرحلة الثانية وهي استدراجها إلى بلاد المسلمين. لتليها المرحلة الثالثة من ٢٠٠٧ إلى عام ٢٠١٠ ببناء القاعدة الصلبة في العراق لتكون منطلقًا لخلخلة الأوضاع الأمنية في بلاد الشام.

ثم تأتي المراحل الثلاث الأخرى التي ستكون على إثر وقوف الأنظمة الوظيفية التي صنعتها الهيمنة الغربية في العالم الإسلامي، جنبًا إلى جنبٍ مع القوات الغازية وتذمُّر الشعوب منها، وهو ما يبرر إسقاطها وإقامة حكومات موالية لفكر القاعدة والجهاديين الإسلاميين بديلًا لها، وهذا ما يوافق ثورات الشعوب العربية وما شهده العالم من أحداث الربيع العربي التي لم تُحسَم بعدُ إلى حين كتابة هذه السطور وهي المرحلة الرابعة. ومن ثم حسب تخطيط أبي مصعب، تأتي مرحلة الإعداد الشامل وهي المرحلة الخامسة، لنصل إلى المرحلة السادسة في العام ٢٠٢٠ وهي المواجهة المباشرة مع العدو إذ سينقسم المشهد إلى فسطاطين أحدهما مسلمٌ والأخر صهيوصليبي كافر.

وقد تفرس الباحثون والنقاد في هذه النبوءة التي خطط لها أبو مصعبٍ السوري ورفاقه في درب الجهاد، فوجدوا لها دلائلها الشرعية القوية ومبرراتها الموضوعية الواقعية والتي يراها بعضهم مبرراتٍ معتبرةً ودامغةً بطريقة شديدة المنطق والترتيب والمنهجية والأهم من ذلك أن هذه المبررات هي ذاتها مسوغات الجهاد منذ انطلاقته في السبعينيات. ودعونا نلقي نظرةً على طريقة و صف أبي مصعبٍ السوري، في إحدى محاضراته كيف توسعت الحركة الجهادية حين يقول: "عام ١٩٩٠ خلال حرب الخليج كان في بيشاور كل الطيف الإسلامي من الصحوة إلى التيارات الجهادية. وجاءت مواقفُ الحكومات العربية والمشايخ والشعوب تجاه تلك الحرب فأحدثت ما يشبه الزلزال بيننا. ومع قيام النظام العالمي الجديد تبين أن ما طرحته الصحوة الإسلامية قد

أفلس ولا بد من طريقةٍ جديدةٍ تقارِبُ طريقة النظام الجديد في مواجهتنا؛ وعندها كتبتُ بيانًا من أجل قيام المقاومة الإسلامية العالمية. ورُمِز لهذه الدعوة بالمقدسات الثلاث أي الكعبة والأقصى والمسجد النبوي قابعةً خلف رماحٍ تحمل صلبانًا ونجومًا سداسيةً بإشارة إلى احتلال الصليبيين واليهود لهذه المقدسات الثلاث إما مباشرًا أو غيرَ مباشرٍ من حوالي ٥٠ إلى ٦٠ عامًا، وحمل البيان دعوةً صريحةً للإرهاب في بقاع الأرض ضد هذا النظام الجديد".

اختلفت المصادر في تحديد مصير عَلَمنا، وفي حين تعلنُ بعض المواقع الإعلامية إطلاق سراحه في مطلع عام ٢٠١٢م، إلا أن مصادرَ أخرى معتمِدةً على شهادات رفقاءَ له في السجون السورية، أكدت أن بعض السجناء شاهدوه في عهدٍ قريبٍ في سجون التعذيب وقد تغير جسده من شدة البطش والتنكيل، ومن هذه الشهادات من يجزم أن الشيخ أبا مصعب قد استُشهد على أيدي النصيريين ولم يعد له وجود. وفي الواقع وإلى لحظة كتابة هذه السيرة، ليس هناك من مصدرٍ موثوقٍ يستطيع أن يجزم بمصير عَلَمنا الباحث، أحيٌّ هو أم ميت! وأيًا كان حاله، فإن عبقريةً بمثل بذله لا يمكن لأمتها أن تنساها أو تستغني عن إرثها، ولا شك أن القتل لأمثاله حلمٌ عزيزٌ عنوانه الشهادة في سبيل الله، وأن الأسر بحق أمثاله قهرٌ مريرٌ عنوانُه صبرٌ جميلٌ و(أليس الله بكاف عبده).



عمر عبد الرحمن

”

إنني مطالَب أمام ديني وأمام ضميري أن أدفع الظلم والجبروت، وأَرُدَّ الشبهة والضلالات، وأكشف الزيغ والانحراف، وأفضح الظالمين على أعين الناس، وإن كلفني ذلك حياتي وما أملك. أنا لا يرهبني السجن ولا الإعدام، ولا أفرح بالعفو أو البراءة، ولا أحزن حيث يُحكَم على بالقتل، فهي شهادةٌ في سبيل الله، وعندئذٍ أقول: فزتُ وربِّ الكعبة، وعندئذ أقول أيضًا: ولست أبالي حين أُقتل مسلمًا على أيٍّ جنبٍ كان في الله مصرعي.

“

الشيخ عمر عبد الرحمن

لنا أن نتأمل شيخًا مريضًا ضريرًا في ظلمات سجون الغرب الحقيرا منذ سنين طوال، لا لتهمةٍ واضــحةٍ بل لهِمةٍ مُثابِرة، خلقت الرعب في نفوس الكافرين، فمن يكون يا ترى؟ وأيُّ سرٍّ حمله هذا الشيخ حتى يخشاه الغرب كل هذه الخشية المتواصلة!

نشأته

إنه الشـــيخ عمر عبد الرحمن من مواليد ١٩٣٨/٥/٣ في الجمالية مركز المنزلة محافظة الدقهلية، نشـأ في بيئةِ إسـلاميةِ محافِظةٍ وفي أسـرةٍ فقيرة، لم يرَ الشـيخ عمر النور إلا لأشهرٍ قليلة بعد ميلاده إذ أصيب بالعمى منذ كان رضيعًا، وهذا ما يُعَد تحديًا قاصمًا في مســيرة عَلَمنا الضــرير لكنه لم يمنعه من المواصــلة والتميز وقد بدأ ذلك بإتمام حفظ كتاب الله وهو في الحادية عشر من عمره.

انتقل مع أسرته إلى دمياط وفيها تلقى علومَه الأزهرية الابتدائية والثانوية وأقبل على العلم ينهل من معينه حتى تدرج في مراتبه، ليلتحق بكلية أصــول الدين التي تخرج فيها عام ١٩٦٥ م بتقديرِ امتيازٍ مع مرتبة الشـــرف، فعُيِّنَ من قبل وزارة الأوقاف إمامًا لمســجدٍ بقرية في الفيوم، ثم حصـل على شـهادة الماجســتير، فعُيِّنَ مُعيدًا في الكلية، واستمر في الخطابة متطوِّعًا.

جهاده بالبيان

كان يعتلي منابر المســاجد ليلقي خطب الجمعة والأعياد والتي جذبت لها قلوب العباد حين خاطبهم بصـدقٍ ودعاهم بعلمٍ وصَـدع فيها بالحق لا يخاف لومة لائم، كان يحرص على تعليم الناس دينهم وفي ذات الوقت كشفَ أساليب ومؤامرات أعدائهم لهم وفضحَ

المنافقين فجلب عليه حتمًا أعين أجهزة الأمن واعتُقل كما كان يُعتقل كلُّ أعضاء وقيادات جماعة الإخوان المسلمين آنذاك.

ومما جاء في مذكِّرة اعتقاله "أنه نال وتعرض لشخص الرئيس جمال عبد الناصر ووصفه أنه فرعون مصر واتهمه بالكفر والإلحاد لأنه أحضر الروس الملحدين إلى هذا البلد الذي يمتلئ بالمقدسات". لقد كانت حقيقةً ولكنه سُجن بِسببها وهو محتسِبٌ أجرَ كلمةِ حقٍّ عند سلطانٍ جائر.

لبث الشيخ في السجن حتى عام ١٩٦٨ ثم أُفرِج عنه ولكن جرى فصله من جامعة الأزهر.

لكنَّ همته قادتْه بعد خروجه للحصول على شهادة الدكتوراه في موضوع "موقف القرآن من خصومه كما تصوِّره سورة التوبة".

ولابد أن نقف عند وفاة الرئيس المصري جمال عبد الناصر في أيلول سبتمبر ١٩٧٠ فقد أُعيد اعتقال الشيخ عمر مرة أخرى ثم أُفرج عنه في ١٩٧١/٦/١٠ وذلك إثر ما يسمى ثورة التصحيح التي قرر فيها الرئيس أنور السادات الإفراج عن الإخوان المسلمين ليقضيَ على منافسيه من أنصار الرئيس السابق والماركسيين، الذين أحكموا قبضتهم على مقاليد الأمور سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا وثقافيًا لعله يحفظ عرشه.

بعد خروجه من السجن، توجه شيخنا الضرير إلى العمل خارج مصر خلال الزمن من ١٩٧١ إلى ١٩٧٨ واشتغل في مجال التدريس في المواد الخاصة بأصول الدين وعلم الحديث.

فتخللت السنوات السبع التي غاب فيها عن مصرَ زياراتٌ كان يقوم بها للقاء أهله وتلاميذه يستغلها في دعوتهم ورفع درجة الوعي لديهم وتلقينهم بعضًا من روح

الجهاد. وقد كان هذا الجو السائد في محافظات الصعيد من خلال الجماعات الإسلامية التي انتشرت في مصر تنشُد التغيير لواقعٍ مريرٍ مُعاش.

تأسيس الجماعة الإسلامية

وما إن عاد الشيخُ الضرير إلى مصر حتى لقيَ اهتمامًا من الإسلاميين الذين كانوا يحملون مشاريع تغيير عن طريق الجهاد وذلك لثقتهم في غزارة علم الشيخ وقدرته على الإفتاء والنصح والإرشاد. ومع أواخر السبعينات جرى تأسيس الجماعة الإسلامية في مصر بإمارة الشيخ عمر. فكان أن أُدرج اسمُه مباشرةً على قائمة المطلوبين للاعتقال واعتُقل.

ومن أعجب ما سجله التاريخ في سيرة عَلَمنا الضرير، كان ما حدث معه بعد اغتيال السادات حين اتُّهم في قضيتين: الأولى خاصةٍ بتنظيم الجهاد، باعتباره المنظر الوحيد والزعيم الروحي له، والثانية لتحريضه المصلين في الفيوم للتظاهر والتخريب والاعتداء على رجال الشرطة وسياراتهم.

وقد صدرت الأحكام في القضيتين بالبراءة، فقد وقف الشيخ الضرير لوحده مدافعًا عن نفسه أمام لجنة قضاة المحاكمة، ولم يستعِن بمحامٍ كباقي المتهمين، بل ترافع هو عن نفسه والآخرين وتمكن من نصرة مشروعية التنظيم والجهاد. ولم يقف عند هذا الحد بل وجه التحذيرات للقاضي من عذاب اللّه وعقابه وعاقبة الظلم الوخيمة.

لم يُقدِمْ الشيخ الضرير على أكثرَ من كلماتٍ صارخة في وجه الظلم والاستبداد، استمدها بسندها وقوتها من شريعة اللّه، فلم يقدر أحدٌ أن يرد حجته وبرهانه، ولكنه واجه مراقبةً مستمرةً ومضايقةً متصاعدة، وخلال الثمانينات ازداد الأمر حتى وصل إلى تقييد حريته وتعرُّضه لحملاتٍ متكررةٍ ومنعِه من مغادرة محل إقامته في الفيوم

إلى محافظات الصـــعيد، وكذلك منعه من إلقاء الخطب في مســـجد الشـــهداء بالفيوم، وأصبح عمر عبد الرحمن محط أنظار الباحثين في الجامعات ومراكز الأبحاث السياسية والاستراتيجية فضلًا عن محبيه. ثم لنتأمل كلماته الخالدة هذه التي يلخص فيها فكره وأحلامه: "إنني مطالَب أمام ديني وأمام ضميري أن أدفع الظلم والجبروت، وأَرُدَّ الشبهة والضـلالات، وأكشـف الزيغ والانحراف، وأفضـح الظالمين على أعين الناس، وإن كلفني ذلك حياتي وما أملك. أنا لا يرهبني الســـجن ولا الإعدام، ولا أفرح بالعفو أو البراءة، ولا أحزن حيث يُحكَم على بالقتل، فهي شـــهادةٌ في ســـبيل الله، وعندئذٍ أقول: فزتُ وربِّ الكعبة، وعندئذ أقول أيضًـا: ولســـت أبالي حين أُقتل مســـلمًا على أيٍّ جنبٍ كان في الله مصرعي".

داعٍ في أمريكا

أمضى الشيخُ عمرُ سنواتٍ طوالًا وراء القضبان وهو صابرٌ محتسب، وبعد أن أُفرِج عنه ببضـــع ســـنواتٍ توجه إلى الولايات المتحدة الأمريكية، فعزم على الدعوة لله وبعد أن حصـل على الإقامة الدائمة هناك وقف على ثغر الإمامة فخطب المسـلمين ونصـح لهم ودعاهم لله.

لكن العمل الدعوي على أرضٍ خاضت الحروب تلو الحروب ضد الإسلام والمسلمين كان لابد فيه من مضـايقاتٍ لكل داعيةٍ أو شـيخٍ ينادي ربي الله! وقد اعتُقِل الشـيخُ عمر عام ١٩٩٣ م وحَكَمَ عليه قاضٍ يهوديٌّ بالسَّـــجن مدى الحياة. ووجه له القاضـــي تهمًا كثيرةً منها التآمر والتحريض على قلب نظام الحكم في الولايات المتحدة. والتآمر والتحريض على اغتيال الرئيس المخلوع حسـني مبارك والتآمر على تفجير منشـآتٍ عسـكريةٍ وكذا التآمر والتخطيط لشن حرب مدن ضد الولايات المتحدة.

والمضحك المبكي في قضية يُحكَم فيها على متَّهمٍ بالسجن مدى الحياة أن الدليل الذي قدمته المحكمة ليس إلا شهادةَ مُخبِرٍ مصريٍّ من جهاز أمن الدولة المصرية في وقتٍ يعلم الجميع العِداء الذي تُكِنُّه الحكومة المصرية للشيخ الضرير ويعلم جيدًا أن هؤلاء المُخبِرين هم وسائلُ قذرةٌ يستعملها النظام لتنفيذ مخططاته وتمرير أهدافه.

الإقامة الجبرية

وسُجِن الشيخ ظلمًا، وحرك هذا الظلم بعض الضمائر الإنسانية لا أقول المسلمةَ بل الغربيةَ، وكانت الناشطة الحقوقية "إلين ستيورات" ترى في سَجن الشيخ ظلمًا وواجبًا يدفعها للدفاع عنه، وقد اجتهدَتْ كثيرًا في مساعدة الشيخ فتعرضت للاتهام من قبل دولةٍ تزعم في دستورها أنها تدافع عن الحرية والعدل والمساواة، فكان أن سُجِنت عمدًا وزورًا.

ولم تكن هناك بعد هذا من معلوماتٍ تصل عن الشيخ عمر إلا عن طريق المحامي "رمزي كلارك" الذي كان يُسمَح له بمكالمةٍ هاتفية مع الشيخ كل ١٥ يومًا وقد تُلغى أو تُؤجَّل.

وكانت الرسالة التالية نموذجًا من مراسلاتٍ حاول الشيخ الضرير إيصالها لأمته المسلمة تصف حاله في السجن وتلخص شعوره وآماله في وقتٍ يعاني فيه الشيخ الذي جاوز السبعين حين كتبها من أمراضٍ كثيرةٍ تُعَد جميعها خطيرةً وهي سرطان البنكرياس، والروماتيزم والصداع المزمن، وضيقٍ في التنفس، والسكر، والضغط، وأمراضٍ قلبيةٍ، فضلًا عن عجزٍ تامٍّ بأطرافه أقعده على كرسيٍّ متحرك. ورغم ذلك لم يُثنِ هذا الضعف سجَّانيه من إفراغ حقدهم ولا إنسانيتهم فيه.

إلى المسلمين كافة

وتحت عنوان إلى المسلمين كافّةً. قال الشيخُ عمر: "أيها الإخوة الأجِلاء، أيها المسلمون في كل أنحاء العالم! إن الحكومة الأمريكية رأت في سجني ووجودي في قبضتها: الفرصة السانحة، فهي تغتنمها أشدَّ اغتنامٍ لتمريغ عزة المسلم في التراب، والنيل من عزة المسلم وكرامته. فهم لذلك يحاصرونني، ليس الحصار المادي فحسب، إنهم يحاصرونني حصارًا معنويًا أيضًا، إذ يمنعون عني المترجم والقارئ والراديو والمسجل؛ فلا أسمع أخبارًا من الداخل أو الخارج.

وهم يحاصرونني في السجن الانفرادي، فيُمنَع أحدٌ يتكلم العربية أن يأتي إلي، فأظل طول اليوم والشهر والسنة لا يكلمني أحد، ولولا تلاوة القرآن لمَسَّني كثيرٌ من الأمراض النفسية والعقلية. وكذلك من أنواع الحصار أنهم يسلطون على "كاميرا" ليلًا ونهارًا، لما في ذلك من كشف العورة عند الغُسل وعند قضاء الحاجة، ولا يكتفون بذلك: بل يخصصون من مراقبةٍ مستمرة على من الضباط. ويستغلون فقد بصري في تحقيق مآربهم الخسيسة، فهم يفتشونني تفتيشًا ذاتيًا، فأخلع ملابسي كما ولدتني أمي، وينظرون في عورتي من القبل والدبر، وعلى أي شيءٍ يفتشون؟ على المخدرات أو المتفجرات! ونحو ذلك، ويحدث ذلك قبل كل زيارة وبعدها، وهذا يسيءُ إلي، ويجعلني أود أن تنشق الأرض ولا يفعلون معي ذلك.

ولكنها-كما قلت-الفرصة التي يغتنمونها ويمرغون بها كرامة المسلم وعزته في الأرض. وهم يمنعونني من صلاة الجمعة والجماعة والأعياد وأي اتصالٍ بالمسلمين، كل ذلك يحرمونني منه، ويقدمون المبررات الكاذبة، ويختلقون المعاذير الباطلة.

وهم يسيئون معاملتي أشد الإساءة، ويهملون في شؤوني الشخصية-كالحلق وقص الأظافر-بالشهور، كذلك يحملونني غسل ملابسي الداخلية؛ حيث أنا الذي أُمِرُّ الصابون عليها، وأنا أدعكها، وأنا أنشرها. وإني لأجد صعوبةً في مثل هذا. ثم إني لأشعر بخطورة الموقف، فهم لا محالةَ قاتِلِيَّ.

إنهم لا محالة يقتلونني، لا سيما وأنا بمعزلٍ عن العالم كله، لا يرى أحد ما يصنعون بي في طعامي أو شرابي ونحو ذلك، وقد يتخذون أسلوب القتل البطيء معي، فقد يضعون السم في الطعام أو الدواء أو الحقن، وقد يعطونني دواءً خطيرًا فاسدًا، أو قد يعطونني قدرًا من المخدرات قاتلًا أو مُحدِثًا جنونًا. أيها الإخوة! إنهم إن قتلوني-ولا محالةَ هم فاعلوه-فشيِّعوا جنازتي، وابعثوا بجثتي إلى أهلي. لكن لا تنسوا دمي ولا تضيِّعوه، بل اثأروا لي منهم أشد الثأر وأعنفه، وتذكروا أخًا لكم قال كلمة الحق وقُتِل في سبيل الله. تلك بعض الكلمات أقولها هي، وصيتي لكم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

وفاته رحمه الله

لم يشأ الله أن يبقى البطل الضرير طويلًا بعد هذه الكلمات في سجون الأمريكيين، ولم نعلم حقيقة كيف كانت حالة الشيخ ولا كيف انتهت حياته ولا ما كان يُفعل به، غير تلك الأخبار المُسرَّبة على صفحات أبنائه، والتي كانت تكشف بعض الذل الذي لاقينا في أسر الشيخ الضرير في هذه السِن حتى وافته المنية في أَسرِه، ولكن نعلم جيدًا أن الشيخ كان يحمل من الإغاظة للكفار والنُّصرة للمسلمين ما جعله يدفع الثمن من عمره وصحته، وستبقى كلماته التي خطها بنور عينيه وبصيرته هنا في صفحات تاريخ أمتنا المعاصر تسجل إباءَ عَلَمٍ من أعلام المسلمين وشيخٍ من شيوخها البارزين المسابِقين لتُذَكِّرَنا

وتُذَكِّرَ الأجيال مِنْ بعدِنا بالحقيقة والسبيل لرد الباطل والظلم ونصرة الإسلام العزيز.
إنه الثبات على طريق الإسلام العظيم.

فلقد كان إبقاء الشيخ عمر عبد الرحمن في سجون الظلم والقهر الأمريكية إذلالًا لأمةٍ كاملةٍ لا لرجلٍ من رجالاتها وإن الثبات الذي ثبته عَلَمنا شامخًا عزيزًا بِدينه وتوحيده لهو ثباتُ أمةٍ بِرُمتها، لن تركع إلا لخالقها، وبمثل هذه الرموز في زمن الاستضعاف نلقِّن الأجيال كيف يكون الانتصار للدين والثوابت والقيم، ولئن نجح الأعداء في سَجن أجسادنا فلن ينجحوا أبدًا في سجن أرواحنا، لأنها ستبقى تحلق بعزة الإيمان وبنور اليقين حتى يقضيَ الله بين الحق والباطل ويمكِّن لعباده المتقين.

فاللهم ثبِّت كل من ابتُلِيَ في معركة المواجهة مع الباطل خلفَ جدران الأَسْر، وثبته ثباتًا عزيزًا، لتثبِّت معه أمة الإسلام إلى أن يحل فجر النصر المنتظر ويُدحَر أهلُ الباطل ويرتحل.



البشير الإبراهيمي

”

أو صيكم بالابتعاد عن هذه الحزبيات التي نَجَمَ بالشّر ناجمُها، وهجم-ليفتك بالخير والعلم- هاجمُها، و سَجَم على الوطن بالملح الأُجاج ساجِمُها، إنّ هذه الأحزاب! كالميزاب؛ جمع الماء كَدَرًا وفرّقه هَدَرًا، فلا الزُّلال جمع، ولا الأرض نفع!

“

الشيخ البشير الإبراهيمي

من قرأ له أدرك غزارة علمه وقوة بصـيرته، وسـعة ثقافته، ومقدار تجربته، لا شـك أن لسـيرته أسـرارًا، وفي حياته آثارًا، جعلت منه عَلَمًا لا يُبارَى في سـاحة الفكر الإسـلامي، الشـــيخ محمد البشـــير الإبراهيمي، له حياةٌ زاخرةٌ مزدانةٌ بالعلم والعمل، وله إرثٌ من الكتابات حُقَّ أن تُحفَظ بماء الذهب بل بماء العمل!

نشأته

في أحد أيام عام ١٨٨٩ م وُلِد البشـير، لينشـأ في بيت والده كما ينشـأ أبناء بيوت العلم، مبتدِئًا بحفظ القرآن الكريم في الثالثة من عمره كما هي عادتهم في وسطه.

كان لعمه الأصغر الشيخ محمد المكي الإبراهيمي الأثر الكبير في تعليمه، فقد كان حامل لواء الفنون العربية من نحوها، وصرفها، واشتقاقها، ولغتها.

ويقول عنه البشــير: "فلما بلغت سـبع سـنين اسـتلمني عمي من معلمي القرآن، وتولى تربيتي وتعليمي بنفسـه، فكنت لا أفارقه لحظةً، حتى في سـاعات النوم؛ فكان هو الذي يأمرنِي بالنوم، وهو الذي يوقظني على نظامٍ مطَّرِدٍ في النوم، والأكل، والدراسة. وكان لا يُخلِّيني(يفرِّغني) من تلقينٍ حتى حين أخرج معه، وأماشـــيه للفســحة، فحفظت فنون العلم المهمة في ذلك الســن مع اســتمراري في حفظ القرآن؛ فما بلغت تسـع سـنين من عمري حتى كنت أحفظ القرآن مع فهم مفردا ته وغريبه. وكنت أحفظ معه ألفية ابن ما لك، ومعظم الكافية له، وألفية ابن معطي الجزائري، وألفيتي الحافظ العراقي في السِّيَر والأثر، وأحفظ جمع الجوامع في الأصـول، وتلخيص المفتاح للقاضـي القزويني، ورقم الحلل في نظم ا لدول لابن الخطيب، وأحفظ الكثير من شــعر أبي عبد الله بن خميس التلمســاني شـاعر المغرب والأندلس في المئة السـابعة، وأحفظ معظم رسـائل

بلغاء الأندلس مثل ابن شـــهيد، وابن بُرد، وابن أبي الخصـــال، وأبي المطرف ابن أبي عميرة، وابن الخطيب."

لقد انتهل عَلَمنا العِلم على يد عمه الذي ألهمه من دواوين فحول المشـــارقة، ورســـائل بلغائهم، فحفِظ صدرًا من شعر المتنبي، ثم استوعبه بعد رحلته إلى المشرق، وصدرًا من شعر الطائيين، وحفِظ ديوان الحماسة، وحفظ كثيرًا من رسائل سهل بن هارون، وبديع الزمان.

وفي عنفوان هذا الوقت حفِظ كتاب كفاية المتحفظ للأجدابي الطرابلســـي، وكتاب الألفاظ الكتابية للهمذاني، وكتاب الفصيح لـــ: ثعلب، وكتاب إصلاح المنطق ليعقوب بن السكيت.

ويقول البشير عن أثر هذه الكتب في فصاحة لسانه: (هذه الكتب الأربعة هي التي كان لها معظمُ الأثر في مَلَكتي اللغوية.).

واســتمر عمه يتدرج به من كتابٍ إلى كتاب ومن متنٍ إلى متن، تلقينًا وحفظًا ومدارسـةً حتى بلغ الحاديةَ عشرة من عمره، فبدأ معه دَرْسَ ألفية ابن مالك دراسةَ بحثٍ، وتدقيق، وقد كان قبلها يُقرِئه كتب ابن هشام الصغيرة قراءةَ تفهُّمٍ وبحث، وكان يُقرِئه مع جماعة الطلاب المنقطعين عنده لطلب العلم على العادة الجارية في بلادهم آنذاك، كما كان يُقرِئه وحدَه وهو يما شيه في المزارع، على ضوء الشمع، وعلى قنديل الزيت في ظلمة الليل حتى يغلبه النوم.

ويعلق البشير على تلك الحقبة في التحصيل فيقول: (ولم يكن شيءٌ من ذلك يرهقني؛ لأن الله-تعالى-وهبني حافظةً خارقةً للعادة، وقريحةً نَيِّرةً، وذهناً صــيودًا للمعاني ولو كانت بعيدة.).

كان نظام دراسة البشير الإبراهيمي الذي سطره عمه يعتمد على التلقين ساعاتِ النهار بالدروس المرتبة في كتب القواعد منفردًا أو مع الطلبة، ثم يُمتحن ساعةً من آخرِ كلِّ يومٍ في فهم ما قرأ، فيطرَبُ لصحة فهمِه عمُّه.

فإذا جاء الليل أملى عليه من حفظه أو من كتابٍ ما يختار له من الأدبيات المفردة، أو من المقاطيع حتى يحفظ مئةَ بيت، فإذا طلب البشير المزيد انتهره، وقال له: "إن ذهنك يتعب من كثرة المحفوظ كما يتعب بدنك من حمل الأثقال"، ثم يشرح له ظواهر المعانِي الشعرية، ثم يأمره بالنوم. هكذا كان برنامج الدراسة اليومي لعَلَمنا وهكذا كان لا يتذمر بل يزداد شغفًا به.

ولعظمة هذا العمّ فقد ظل يلقنه العلم حتى على فراش الموت، فحين بلغ البشير أربع عشرة سنة مرض عمه مرضَ الوداع إلا أن ذلك لم يُثْنِه عن تلقين تلميذه وإفادته؛ فختم معه الفصول الأخيرة من ألفية ابن مالك وهو على تلك الحالة.

شيخ في سن الصبا

وقد علّق البشير على موت عمه فقال: (مات عمي سنة ١٩٠٣م ولي من العمر أربع عشرة سنة، ولقد ختمت عليه دراسة بعض الكتب وهو على فراش المرض الذي مات فيه وأجازني الإجازة المعروفة عامةً، وأمرنِي أن أخلفه في التدريس لزملائي الطلبة الذين كان حريصًا على نفعهم، ففعلت، ووفق الله، وأمدتني تلك الحافظة العجيبة بمستودعاتها، فتصدرت دون سن التصدر، وأرادت لي الأقدار أن أكون شيخًا في سن الصبا).

وهكذا بعد موت عمه، خلَفَه في الدروس وأصبح الشيخ المعلم الصغير، واستمر على ذلك إلى أن جاوز العشرين من عمره.

كان عَلَمنا أسير الكتب، عاشقًا للاستسقاء من صفحاتها، ويصف نفسه وهو لا يزال في سنٍّ غضةٍ قائلًا:(ولقد حفظت وأنا في تلك السن-الرابعة عشرة-أسماء الرجال الذين تَرجم لهم نفح الطيب، وأخبارهم، وكثيرًا من أشعارهم؛ إذ كان كتاب نفح الطيب-طبعة بولاق-هو الكتاب الذي تقع عليه عيني في كلِّ لحظةٍ منذ فتحت عيني على الكتب. وما زلت أذكر إلى الآن مواقع الكلمات من الصفحات، وأذكر أرقام الصفحات من تلك الطبعة."

لقد كان يحفظ المعلّقات، والمُفضَّليَّات، وكثيرًا من شعر الرضي، وابن الرومي، وأبي تمام، والبحتري. كان يحفظ موطأ مالكٍ وغيره من الكتب. لا شك أن عَلَمنا تميز بقوة حفظٍ غير عادية، فقد كان يحفظ عشرات الأبيات من سماعٍ واحد، فشابه ذلك ما نقرأه عن سلفنا من غرائب الحفظ.

وما إن طرق البشير أبواب سن الشباب إذا به يكتشف داءً عظيمًا وعقبةً كأداءَ في طريقه بل إنها شرُّ آفةٍ قد يُصاب بها مثلُه، إنها آفة الغرور والإعجاب بالنفس؛ فقال يخبرنا عن نفسه: (فكنت لا أرى نفسي تَقْصُر عن غاية حفَّاظ اللغة وغريبها، وحفاظ الأنساب والشعر، وكدت أهلك بهذه الآفة لولا طبعٌ أدبيٌّ كريم، ورحلةٌ إلى الشرق كان فيها شفائي من تلك الآفة).

في حقبة الاستعمار الفرنسي رحل عَلَمنا إلى المدينة هو ووالده، فكان من مدرسي الحرم النبوي الشريف، وتلقى فيه علم التفسير، وعلم الحديث روايةً ودرايةً، وعلم الرجال، وأنساب العرب، والمنطق، ومكث في المدينة قريبًا من ست سنين، ثم انتقل إلى دمشق في أثناء الحرب العالمية الأولى، فكان من أساتذة العربية في المدرسة السلطانية مدةَ سنتين في عهد حكومة الاستقلال العربي وهكذا كان له أثرٌ في كل مِصرٍ

يقيم فيه. بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى رجَع إلى بلده الجزائر، وبقي فيها ينشــر العلم في أوقاتٍ متقطعةٍ إلى سنة ١٩٣١م.

جهوده في محاربة البدع والشركيات

وحين نستذكر سيرة البشير الإبراهيمي حتمًا سنقع على ذكر رفيقه الشيخ عبد الحميد بن باديس والذي التقاه خلال مســيرة العطاء، فأثمر لقاؤهما إنشـــاء جمعية العلماء المســـلمين في الجزائر. لقد كان البشـــير في طليعة العاملين على إحياء العلوم الدينية والعربية في الجزائر من الابتدائية إلى العالية. وكان من أبرز المشيدين لأربعمئة مدرسة في مدن الجزائر وقراها. ويصـــفه العارفون بحامل اللواء في طليعة المجاهدين في سبيل الإصلاح الديني، ومحاربة الدجل، والبدع، والخرافات، والشِّركيات.

محاولة إغراء فرنسا له

تميز عَلَمنا بالشجاعة والحكمة والذكاء، لقد كان يُحسَب له ألفُ حساب، وله من المواقف ما يعجب لها المرء، منها على ســبيل المثال ما حدث له عام١٩٤٠ م إبان الاســـتعمار الفرنسـي للجزائر عندما أصـدر الوالي العام أمر اعتقال البشـير في سـاعةٍ مختارةٍ طبقًا للإجراءات المقررة؛ حتى لا يقع تجمعٌ في الشوارع.

وقبيل اعتقاله حاول الفرنسيون شراء ذمته فبعثوا إليه القاضي ابن حورة يعرض عليه منصـب شـيخ الإسـلام الذي سـيُحدَث لأولِ مرةٍ في الجزائر وطلب منه المشـاركة في تحرير صـحفٍ قاموا بإنشـائها، وكذا كتابة محاضـرات تُسـجَّل للإذاعة التابعة لهم في مقابل تصــريحٍ يؤيد فيه فرنســا التي كانت طرفًا في الحرب العالمية الثانية، والثمن إغراءات لا تُقاوَم، فواجههم البشــيرُ الأبيُّ بروح العزة والاســتعلاء على فتات الدنيا

الدنِية، ورفض أيَّ شــكلٍ من التعاون معهم حاملًا بفخر لواء المبادئ والثوابت والعقيدة السامية التي تشرَّبها منذ نعومة أظافره وتجذرت في قلبه وجوارحه.

ورغم ذلك لم يستسلم الفرنسيون من أول مرة فكرروا معه المحاولة، وا ستدعت إدارة تلمســان البشــير، وحاولت إقناعه بســداد طلب الحكومة، فرفض مرة أخرى، فقيل له: ارجع إلى أهلك، وودِعهم، وأحضر حقيبتك-في إشارة على قرار السجن-. فقال لهم: قد ودعتهم، وهاهي حقيبتي جاهزة. فكان أن أصابهم في مقتل.

وحين علِم رفيقُه الشــيخُ عبد الحميد بن باديس بموقفه الذي لا يُبارى ازداد إكبارًا له، وإعجابًا به، وكتب إليه رســالة عام ١٩٤٠ قبيل وفاته-بثلاثة أيام، جاء فيها: (الأخ الكريم الأستاذ البشير الإبراهيمي-سلمه الله-وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وبعد... فقد بلغني موقفكم الشــريف الجليل العادل فأقول لكم: (الآن يا عمر) فقد صُــنْتَ العلم والدين، صــانك الله وحفظك، وتَرِكَتَكَ، وعظَّمتها عظَّم الله قدرك في الدنيا والآخرة، وأعززتهما أعزك الله أمام التاريخ الصادق، وبيضت محُيَّاهما بيض الله محياك يوم لقائه، وثبتك على الصراط المستقيم، وجب أن تطالعني برغباتك، والله المستعان. والسلام من أخيك عبد الحميد بن باديس).

اعتقاله

وكان سُــنةً أن تُزَج أمثالُ هذه العبقرية الســامقة المعتزة بدينها في الســجن، وكان ذلك بعد أحداث مايو ١٩٤٥م، إذ بقي البشير عامًا كاملًا بين جدران الظلم، ذاق خلالها الأمرين في زنزانة تحت الأرض؛ يتحدى الظلمة والرطوبة وقســوة الســجان، حتى تدهورت حالته الصحية ونُقل إلى المشفى العسكري بقسنطينة.

حين نتأمل شـخصـية البشـير الفذة نَعجَبُ لتلك المواهب العديدة التي أتقنها ولمَلَكاته التي أعجز أقرانه بها، فقد كان خطيبًا مِصْـقعًا، وشـاعرًا مُفْلِقًا، وكاتبًا لا يكاد أحدٌ يدانيه في وقته، ولا تزال كتاباته خيرَ شـاهدٍ له. ومع هذه القوة في الفكر والبراعة في الذود عن الدين، كان في ذات الوقت ذا نفسٍ مرهفة، وذا خُلُقٍ عالٍ، وأدبٍ جمٍّ، ووفاءٍ منقطع النظير.

شهادات في حقه

يقول ابنه الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي: (لقد سـمعت الشـيخ العربي التبسـي-نائب البشـير في جمعية العلماء رحمه الله-يردد كثيرًا في مجالسـه: إن الإبراهيمي فلتةٌ من فلتات الزمان، وأن العظمة أصلٌ في طبعه).

ويواصـل الدكتور أحمد قائلًا: (والعظَمة في رأيي تكمن في القلب، والحقيقة أن الإبراهيمي كان عظيمًا بعقله، ووجدانه، وبقلبه ولسـانه؛ فكل من تقلب في أعطافه نال من ألطافه؛ فالقريب، والرفيق، والسـائل والمحروم، والمريد والتلميذ يجد فيه الأب الشـفيق، والأخ الصـديق الذي لا يبخل بجهده، وجاهه وماله-وإن قلَّ-لتفريج الكروب، وتهوين الخطوب. وما تقرَّبتَ منه إلا ملك قلبك بحلمه، وغمر نفسـك بكرمه قبل أن يشـغل عقلك بعلمه، ويسـحر لبك بقلمه. وكانت الخصـال البارزة فيه الإيثار، والحلم، والوفاء).

لم يكن البشـير متألقًا في كتاباته التي تعكس غزارةً في العلم والمعرفة فقط، بل كان عالمًا بالحديث وروايته؛ لدرجة أن يعطيَ الإجازات في ذلك البحر من العلم. وكان مفسرًا للقرآن وقد برع فيه وأحسن، وشهد له بذلك الحاضرون لجلساته العامة والخاصة لكنه لم يحظَ بتدوين تفسيره وحفظه.

كما كان له الحظ الأوفر في تعليم التاريخ الإسلامي الذي برع فيه تحليلًا ودرايةً وتعمقًا، وكذا فلسفة التاريخ، وعلم الاجتماع، والأخلاق فقد برزت عبقريته في إنارة التاريخ بمنظار الإسلام.

ناهيك عن تميزه بثقافةٍ عصريةٍ عالية. يقول ابنه الدكتور أحمد: (سألني في إحدى ليالي عام ١٩٤٨م وأنا بقسم الفلسفة في خاتِمة تعليمي الثانوي عن آخر درسٍ تلقيته في علم النفس، فأخذ رأس الموضوع، وشرح لي آراء (وليم جامس) أحد مؤسسي المذهب العملي (البراغماتي)، وتحدث عن كثيرٍ من مفكري الغرب ممن لم أكن أسمع بهم قبل ذلك اليوم مثل: داروين، وجون لوك، وجون ستيوارت. كما أوضح لي إسهام العلماء المسلمين في كثير من الجوانب).

يصفه من عرفه أنه كان قدوةً في سهولة المعاملة، والاتصال، بشوشًا، مرحًا في مجلسه، واسع الصدر في ممارسة المسؤوليات، متدفق الحيوية في الأنشطة الثقافية. كما كان على جانبٍ كبيرٍ من عزة النفس، والترفع عن الدنايا.

كان علمنا شديد العناية بقضايا المسلمين في شتى الزوايا في الأرض، وعلى رأسها قضية فلسطين، وكذلك قضية كشمير، وقضايا المسلمين عمومًا؛ تشهد له متابعاتها الحثيثة وكتابته عنها. وهذا رغم انشغاله بقضيته الأم وهي قضية تحرير الجزائر.

يصفه أحدُ رفاقه، وهو الأستاذ أحمد توفيق المدني-رحمه الله-وذلك عندما تبوأ البشير الإبراهيمي كرسيَّه في مجمع اللغة العربية في القاهرة، فقال: (فتقدم الإبراهيمي الأمين يحمل الراية باليمين، لا يأبه للمكائد والسجون، ولا يبالي بالمنافي في الفيافي. بل دخل المعمعة بقلبِ أسَد، وفكرٍ أسَدّ، ووضع في ميزان القوى المتشاكسة يومئذٍ تلك الصفات التي أودعها الله فيه:

- علمًا عزيزًا فياضًا متعدد النواحي، عميق الجذور.
- واطلاعًا واسعًا عريضًا يُخَيِّل إليك أن معلومات الدنيا قد جُمِعت عنده.
- وحافظةً نادرةً عز نظيرها.
- وذاكرةً مرنةً طيِّعةً جعلت صاحبها أشبه ما يكون بالعقل الإلكتروني.
- كدائرةِ معارفَ جامعةٍ سهلةِ التناول من علوم الدين التي بلغ فيها مرتبة الاجتهاد بحق، إلى علوم الدنيا مهما تباينت واختلفت، إلى شــتى أنواع الأدبين القديم والحديث بين منظومٍ ومنثور، إلى أفكار الفلاســفة والحكماء من كل عصــرٍ ومِصر، إلى بدائع المُلح والطرائف والنكت.
- كل ذلك انســجم مع ذكاءٍ وقَّادٍ ونظراتٍ نافذة، تخترق أعماق النفوس، وأعماق الأشياء.
- وفصاحةٍ في اللسان، وروعةٍ في البيان، وإلمامٍ شاملٍ بلغة العرب لا تخفى عليه منها خافية.
- ومَلَكةٍ في التعبير مدهشــةٍ جعلته يســتطيع معالجة أي موضــوع ارتجالًا على البديهة إما نثرًا أو نظمًا.
- ودراية كاملة بكل ما في الوطن الجزائري، يحدثك حديث العليم الخبير عن أصــول ســكانه وقبائله، وأنســابه، ولهجاته، وعادات كل ناحية منه، وأخلاقها، وتقاليدها، وأســاطيرها الشــعبية، وأمثالها، وإمكاناتها الاقتصــادية، وثرواتها الطبيعية.
- كل ذلك قد تُوِّج بإيمانٍ صــادق، وعزيمةٍ لا تلين، وذهنٍ جبار، منظِّم، يخطط عن وعي، وينفذ عن حكمة، وقوةٍ دائبةٍ على العمل لا تعرف الكلل ولا الملل. هذا هو

البطل الذي اندفعنا تحت قيادته الموفَّقة الملهَمة، نخوض معركة الحياة التي أعادت لشـــعبنا بعد كفاحٍ طويلٍ لســـانه الفصـــيح، ودينه الصـــحيح، وقوميته الهادفة).

وبهذه الشـــهادة على لســـان من عرفه ندرك مكانة عَلَمنا وثقل وزنه وندرة معدنه، ولعل تذاكر هذه السيرة وهذه الشهادات، تفي البشير بعضًا من حقه علينا، ولكن يبقى الوفاء الأكبر هو دراسة آثاره ونشر مؤلفاته والاستفادة من فوائده ودرره.

وختامًا لســـيرة هذه العبقرية النادرة، هذه كلمات خالدة ســـطرها علمنا بحبر العِلم والبصيرة والتجربة، لعلها تنفع في تجاوز حالة التفرق والتشتت التي أثقلت كاهل أمتنا الإسلامية ونحن في عمق حالة الاستضعاف، إذ قال البشير: (أوصيكم بالابتعاد عن هذه الحزبيات التي نَجَمَ بالشّـــر ناجمُها، وهجم-ليفتك بالخير والعلم-هاجمُها، وسَـــجَم على الوطن بالملح الأُجاج ساجِمُها، إنّ هذه الأحزاب! كالميزاب؛ جمع الماء كَدَرًا وفرّقه هَدَرًا، فلا الزُّلال جمع، ولا الأرض نفع!).

وفاته

تُوُفِّي البشـير بعد رحلةٍ من العطاء والمســابقة، فلم يزل دأبه التحصـيل والبذل، لم يكِلَّ ولم يمَلَّ، حتى قدم لنا القدوة وألهمنا الفكرة، وزين تاريخ أمتنا بوجوده شـــامخًا في عصـــر اســـتضـــعاف وهوان، فرحمك الله يا أيها الجبل، يا أيها البحر، وبارك في إرثك وزرعك.



عبد الحميد بن باديس

"شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب، من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب."

عبد الحميد بن باديس

من قسنطينةَ، المدينةِ الجزائرية العريقة، التي استقرت في شرق البلاد تزدانُ بجمالها الساحر وبنائها المعماري المتميز، حُفِر على جدرانها تاريخٌ زاخرٌ، خطَّ صفحاتِه أحد أبنائها الأوفياء، إنه الشيخ عبد الحميد بن باديس، أحدُ أبرز أعلام الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر خلال النصفِ الأول من القرن العشرين.

لُقِّب بألقابٍ عديدةٍ فهو المصلحُ الثوريُّ، والشاعرُ الصحفي، والعالم المفسر، والمعلم المربي، والكاتب السياسي، وقد ارتبط اسمه لدى الجزائريين بالعِلم، لذلك يحتفلون في ١٦ أبريل/نيسان من كل عام بيوم العلم تخليدًا لذكراه.

نشأته

خرج عبد الحميدِ بن محمد بن المكي بن باديس للنور وليدًا في يوم ١١ ربيع الثاني ١٣٠٧ الموافق ٤ ديسمبر/كانون الأول ١٨٨٩ لترعاه عائلُته العريقة وذات المكانة والجاه التي تعود أصولها إلى بني زيري، وقد تعلق هذا الاسم ببلوغين بن زيري، مؤسس الجزائر العاصمة، أحد أشهر أعضاء هذه العائلة الأميرية. كان أبوه محمدٌ المصطفى بن باديس حافظًا للقرآن ومن أعيان المدينة، واشتغل قاضيًا وعضوًا في المجلس الجزائري الأعلى، ومن رجال أسرته المشهورين المعزُّ بن باديس الذي أعلن انفصال الدولة الصنهاجية عن الدولة الفاطمية وأعلن فيها مذهب أهل السنة والجماعة. استهل ابن باديس مشواره في طلب العلم بحفظ كتاب الله في قسنطينة، وقد تعلم قواعد اللغة العربية والأدب وأصول العلوم الإسلامية في جامع "سيدي محمد النجار" في ذات المِصر. وقد اختير لتعليمه وتهذيبه، في هذه السن الطرية الشيخُ حمدانُ الونِّيسي أحد علماء الجزائر في ذلك الوقت، والذي أثر تأثيرًا شديدًا في شخصية عَلَمنا.

واســـتمر الطفلُ في التعلم وتلقي الدروس وأتم حفظ القرآن الكريم في ١٣ من عمره، على يد الشـيخ محمد بن المداسـي أشـهر مقرئٍ بقسـنطينة، وعندما شـبّ وبلغ مرحلة الجامعة، التحق بجامعة الزيتونة العريقة بتونس عام ١٩١٠، وفي عام ١٩١١ نال شـــهادة "التطويع العالمية" وكان ترتيبُه الأول.

وفي هذا الوســـط العلمي الفاخر، تلقى عَلَمنا العِلم على يد أســـاتذته محمدٍ النخليّ القيروانيّ، ومحمدٍ الخضر بن حسين ومحمدٍ الطاهر بن عاشور، والذي تأثر به كثيرًا في حين كان يُعَد الطاهرُ من أتباع الـــــحركة السـلفية الإصـلاحية الداعية إلى العودة إلى إسلام السَّلَف المطهَّر من كل ما شابه من شوائبَ وهي الـــحركة التي انتشرت خلال النصـف الثاني من القرن التاسـع عشـر في الشـرق الأدنى وفي مصـر. وبعد أن حاز ابنُ باديسَ على الشهادة عام ١٩١٢، واشتغل بالتدريس في جامعته الزيتونة لـمدة سنة، وقد كان هذا أمرًا متعارَفًا عليه في هذه الـجامعة التونسية العريقة.

مسيرته الفكرية والدعوية

عاد إلى مسقط رأسه قسنطينة وباشر في الجامع الكبير إلقاء سلسلة من الدروس حول كتاب "الشِّفا" للقاضي عياضٍ، وبقرار من الإدارة الفرنسية مُنِع من مواصلة الدروس.

ثم قرر ابنُ باديس أداء فريضة الـحج عام ١٩١٣وفي أثناء إقامته بالـمدينة الـمنورة التي دامت ثلاثة أشـهرٍ، تعرف على الشـيخِ البشـيرِ الإبراهيمي الذي أصـبح رفيق دربه وأحد أبرز أعلام الجزائر وقد أســـس معه لاحقًا جمعية العلماء المســـلمين الجزائريين، كما اجتـــمع مجددًا، بأستاذه المربي حمدان الونّيسي الذي انتقل للإقامة بـــمدينة الرسول صلى اللّه عليه وسلـــم، وبمجموعةٍ من كبار العلماء، وفي حضرتهم ألقى درسًا بالحرم النبوي.

خلال إقامته بالمدينة عرض عليه شيخه الونيسي الإقامة الدائمة بالمدينة المنورة، لكنه أخذ بنصيحة الشيخ حسين أحمد الهندي بلزوم العودة للجزائر خدمةً للدين وللغة العربية. ولدى عودته للجزائر عرج على مصرَ وفيها التقى بمفتي الديار المصرية الشيخ محمد بخيت المطيعي الذي كتب له بخط يده إجازةً في دفتر إجازاته.

وانتهت رحلة الحاج بن باديس ليعود إلى الجزائر ويبدأ بالتدريس طيلة المدة الممتدة من عام ١٩١٣ إلى عام ١٩٢٥، بدءًا من العلوم التربوية كالأدب والتاريخ والجغرافيا إلى العلوم المدنية والدينية، يتخللها التنشيط الثقافي، الذي استهدف الذكور والإناث، والكبار والصغار، على حدٍ سواء:

ففي عام ١٩١٧، افتتح درسًا عموميًا بمسجد سيدي قموش بقسنطينة يتضمن تعليم اللغتين العربية والفرنسية.

وفي عام ١٩١٨، قام عَلَمنا القائد، بإرسال الدفعة الأولى من الطلبة الجزائريين إلى جامعة الزيتونة بتونس، بهدف تأسيس كوادرَ وفتح الباب لبعثاتٍ دراسيةٍ مبرمجةٍ دوريًا.

كما كان من بين أوائل القادة الذين أدركوا مدى أهمية الحركة الكشفية في تنشئة الشباب المسلم وهيكلته ضمن منظماتٍ جماهيريةٍ.

كما كان وراء إطلاق مراكزَ ثقافيةٍ كان أشهرها نادي الترقي بالجزائر العاصمة الذي كان يشرف على إدارته الطيب العقبي، أحد رفاق الأستاذ الأوفياء.

ثم استجمع طاقته ووجهها لإصلاح الممارسات الدينية السائدة في البلاد بعد أن آلمه حالُها.

وقد كانت هذه مرحلةً مهمةً في تاريخ الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، فمنذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين برز العديد من المفكرين الإصلاحيين، منهُمُ العلماء والأساتذة المقتدرون بالجزائر العاصمة وقسنطينة وتلمسان وغيرها، من أمثال الشيخ مجاوي والشيخ بن سماية والشيخ بن علي فخار، الذين أنكروا الممارسات الظلامية لبعض الطرق الدينية والشركية، كما نددوا بسيطرة إدارة الاحتلال على الشؤون الدينية والإسلامية.

وقد التقى الشيخ محمد عبده، خلال زيارته عام ١٩٠٥ إلى الجزائر العاصمة وقسنطينة، بالعديد من هؤلاء العلماء المعلمين. وجاء ابنُ باديس ليضفيَ لمسته التطويرية لجهود هذه الحركة في الجزائر فيما بين الحربين العالميتين وقد بذل في ذلك قصارى جهده وأبلى بلاءً حسنًا في عطائه وبذله.

أحاط بابن باديس، جمعٌ من الطلبة والرفقاء الأوفياء الذي حملوا معه ذات الهمِّ واقتسموا ذات الهدف، وساندوه بكل قوةٍ وعلمٍ، لقد كان ابن باديس العقل المدبر والقائد المنشط لهذه الكوكبة، فأمكنهم الله من تطهير الإسلام في الجزائر من كل الممارسات التي لا تتفق مع القرآن والسنة فقاموا على ثغور التربية والكتابة والصحافة، ونادَوا بالعودة إلى سيرة السلف الصالح فأطلقوا على أنفسهم، اسمَ السلفية، كما عُرِفوا باسم الإصلاحية.

وبهذا بدأ ابنُ باديس مسيرة التربية وإحياء الشباب المسلمين بدينهم وبأخلاقه السامية، وزرع فيهِمُ الاعتزاز بالشخصية المسلمة، وقد استعان بعددٍ من الطرق لإيصال رسالته وبلوغ غاياته، كان من أبرزها الصحافة، فقد أطلق ابن باديس أول جريدةٍ له

سنة ١٩٢٥، وكانت باسم جريدة "الــمنتقِد" وعلى صفحاتها ومن خلال أعمدتها بث إلى الأمة الإسلامية في الجزائر أفكاره الإصلاحية، وكذلك فعل رفقاؤه.

وقد ذاع صــيت هذه الجريدة، حتى مُنِعت من الصــدور بعد أن وصــلت لعددها الثامن عشر، ذلك أن الإدارة الاستعمارية صنفتها ضمن المنشورات التحريضية.

ولكن لم تكن هذه عقبةً في نظر ابنِ باديس فســرعان ما شــمّر وأصــدر بعدها عددًا من المنشــورات الدورية، كان أشــهرها "الشــهاب"، التي صــدرت من ١٩٢٥ إلى ١٩٣٩، وقد توقفت هذه الدورية عن النشر بقرارٍ من ابنِ باديس نفسه، خشية أن يضطر إلى اتــخاذ موقف لصالـح هذا أو ذاك من الطرفين الـمتصارعَين في أوروبا حسب بعض المؤرخين.

جمعية التربية والتعليم الإسلامية

أولى بن باديس التربية والتعليم اهتمامًا شــديدًا في نشــاطه الإصــلاحي، وتوَّج ذلك بتأســيس مكتبٍ للتعليم الابتدائي العربي عام ١٩٢٦ انبثقت عنه في عام ١٩٣٠ مدرســةُ جمعية التربية والتعليم الإســلامية، وهي الجمعية التي أصــبح لها نحو ١٧٠ فرعًا في شتى مناطق الجزائر.

وفضلًا عن الصحافة ركز ابنُ باديس اهتمامه على إنشــاء الـمدارس لتعليم اللغة العربية ومبادئ إ سلام مجدَّد وكانت هذه من أ سباب انت شار دعوته الإ صلاحية وت سللها للأ سر الجزائرية ومن ثم المجتمع برمته. وقد أحصت جريدة "الشهاب" إنشاء ٧٠ مدرسةً، إلى غاية عامَيْ ١٩٣٤ــــ١٩٣٥، مكونةً من قسمٍ أو قسمين وموزعةً على شــتى جهات البلاد، يُدرَّس فيها ٣٠٠٠ تلــميذٍ، بينما نشرت جمعية العلــماء، التي أُنشِئت عام ١٩٣١ قائمةً من ١٢٤ مدرسةً في عام ١٩٥٠، فيها سلكٌ تربويٌّ يضم ٢٧٤ معلــمًا. وأعلنت ذاتُ الــجمعية، عام ١٩٥٤، عن عددٍ من ٤٠٠٠٠ تلـميذًا يرتادون مؤسساتها الـمدرسية.

معهدُ ابنِ باديس الثانويُّ

كما أُنشِئ في سنة ١٩٤٧، بقسنطينةَ، معهدُ ابنِ باديس الثانويُّ الذي كان يتولى إعداد المعلمين والطلبة المدعوين إلى مواصلة تعليمهم في فاس وتونس والشرق الأوسط فكان بحقٍ معهدَ أحلامٍ للعديد من الطلبة الطموحين.

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

وإن كانت سيرة ابنِ باديس تفخر بحجم الإنجازات والدعوات والمدارس التي أطلقها تنير حياة الجزائريين بالإسلام على خطا السلف الصالح بعيدًا عن البدع والشركيات المختلَقة، فقد كان أبرز إنجازٍ له إنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي أثمرت نتاج انضمام ابن باديس ورفاقه، سنة ١٩٣١، لشيوخ أهم الطرق الدينية في البلاد، وهكذا أنشأ برفقة ٧٢ عالِمًا الجمعية التي جمعت شتى الاتجاهات الدينية.

وانتُخِب بن باديس رئيسًا لها خلال اجتماعٍ للجمعية العامة التأسيسية، بنادي الترقي، بالجزائر العاصمة، عام ١٩٣١، وذلك لكفاءته وقدرته القيادية التي لم يجادل فيها أحدٌ، وجعل شعارها "الإسلامُ دينُنا، العربيةُ لغتنا، الجزائرُ وطننا". وقد ضم مجلس الإدارة الأول للجمعية أعلامًا مشهورين أمثال: البشيرِ الإبراهيمي، الطيب العقبي، مبارك الميلي والعربي التبسي.

وبهذه الطريقة الذكية تسلل الإصلاحيون بفكرهِمُ النيّر لاعتلاء أهم المناصب في الجمعية مُهمِّشين وبسرعةِ ممثلي الطرق البدعية، ولم يستغرق الأمرُ إلا سنةً واحدةً حتى قوطِعُوا تمامًا وطُهِّرَتْ الجمعيةُ من دعاة البدع، فلجأوا بدورهم، إلى تأسيس جمعيةٍ ثانيةٍ أسمَوها جمعية علماء الجزائر السُّنيين.

وخلق ذلك حالةً من الصراع بين الجمعيتين، كان نتاجها بلبلةً كبيرةً في أوساط الشعب الجزائري، فقد تأثر بجمعية الطرق البدعية، الطبقةُ البسيطة من الفلاحين وسكان المناطق الريفية الذين كانوا متعصبين لزواياهم وطرقِهمُ الضالة التي تعمقت في صفوفهم واستحوذت على أفهامهم، فكانت لها سلطةٌ روحيةٌ معتبرةٌ ونفوذٌ عميقٌ يصل لكل مناحي حياة الفرد.

محاربة البدع والشركيات

واستمر ابنُ باديس في نهج الإصلاح الإسلامي، الذي يقوم أساسًا على العودة إلى المرجعين الأساسيين للإسلام: القرآن والسنة. وعَمَد ورفاقه إلى شن هجومٍ مركزٍ على الأوساط التقليدية، المتهَمَة بنشر الصوفية الظلامية، فحاربوا الشركياتِ وطرقَ الشعوذة وكتابةَ التمائم التي دأب عليها شيوخ الزوايا في ذلك الوقت. وحذروا من استغفالهم للسُّذَّج واستغلالهم للبسطاء في تمرير بِدَعِهم وضلالهم.

ولنتبصرَ في عبقرية ابنِ باديس، فعلينا أن ننظر لتلك الخطة التي مضى يحقق فيها أحلامه وأهدافه متفاديًا عقبات الحكم الاستعماري، وإجراءاته العقابية التي غالبًا ما تؤدي لمنع صدور الجرائد ومنع تعليم اللغة العربية! فركز عَلَمنا على لزوم الحفاظ على الانتماء العربي الإسلامي للشعب الجزائري. ووضعَ ثقلَه في طريق التعليم ونشر الثقافة العربية الإ سلامية. وتحصين الشعب من القطيعة بينه وبين هويته ورصيده الحضاري وأي تفرقةٍ لصفوفه وسَلْخٍ من عقيدته. كما تحلى ابن باديسَ خلال مسيرته الباذلة بالتواضع ونكران الذات والزهد طوال حياته كمفكرٍ ملتزمٍ بالجبهات التي فتحها.

وقد كان النجاح، بما لا يدع مجالًا للتشكيك، حليفَ هذا الكفاح المستمر ضد التغريب والتفرقة، ضد الأدواء والآفات التي اختلقتها وحفزتها وأذكتها العقول المدبرة

للاستعمار. وهكذا، شاركت الحركة الإصلاحية، التي أطلقها ونشطها ابنُ باديس، دون أن تعلن أبدًا موقفها صراحةً من استقلال الجزائر، شاركت في تجذير الروح التحررية وفي توسيع رقعة مقاومة الممارسات الاستعمارية الفرنسية بهدف إجهاض جهود الغزاة وإحباط مساعيهم.

أسهم عَلَمنا بمواقفه وآرائه في إثراء الفكر السياسي بالحديث عن قضايا الأمة، وكانت قضيته الشاغلة وحدة الجزائر واستقلاليتها في كل الميادين وخاصةً الحفاظ على انتمائها الإسلامي العربي، ففي عام ١٩٣٦ دعا لعقد مؤتمرٍ إسلاميٍّ في الجزائر لإفشال فكرة اندماج الجزائر مع فرنسا، كما شارك ضمن وفد المؤتمر الإسلامي المنعقد بباريس في يوليو/تموز ١٩٣٦.

حاور لجنة البحث في البرلمان الفرنسي في أبريل/نيسان ١٩٣٧، ودعا النواب لمقاطعة المجالس النيابية في شهر أغسطس/آب سنة ١٩٣٧، كما دعا لمقاطعة احتفالاتٍ فرنسيةٍ بذكرى مرورِ قرنٍ على استعمار الجزائر في ١٩٣٧.

وفاته رحمه الله

تُوُفِّيَ عبد الحميدِ بنُ باديسَ مساء الثلاثاء ٩ ربيع الأول ١٣٥٩، الموافق ١٦ أبريل/نيسان ١٩٤٠ في مسقط رأسه قسنطينةَ، وحمل طلبة الجامع الأخضر جثمانه عصر اليوم التالي، وشيعوه في جنازةٍ شارك فيها عشرات الآلاف من الأشخاص الذين توافدوا من كل مناطق الجزائر.

رحل ابنُ باديسَ وكذلك حَقٌّ على كلِّ إنسانٍ أن يرحل، ولكن العبرة فيما أورثه من عملٍ صالحٍ وفكرٍ سليمٍ، وقد حمل مشعلَ العمل بعده العديدُ من رفقائه وطلبته وكان أشدهم

وفاءً واستـــــماتةً في سبيل استقلال الجزائر الشيخُ العربيُ التبسـيّ. الذي اختطفته الشرطة الفرنسية خلال حرب التـحرير الوطنية ولـم يُعثَر عليه أو على جثته.

وأصـــبح تاريخ ١٦ أبريل تاريخًا خالدًا، فتكريمًا لروحه الباذلة، ولمآثره المتعددة، ولدروسه كإمامٍ مُربٍّ عظيمٍ، قررت الحكومة الجزائرية تسمية يوم رحيله بيوم العِلم.

لم يترك أيَّ مؤلَّفاتٍ منشـــورةٍ ويُقال عنه أنه ألَّف الرجال ولم يؤلف الكتب. لكن طلابه الأوفياء قاموا بجمع آثار كثيرة له ونُشِـرت بعناوينَ كثيرةٍ منها:" تفسـير ابن باديس" و "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير" والذي طبعته وزارة الشـــؤون الدينية في الجزائر تحت عنوان "مجالس التذكير من حديث البشير النذير".

كما ترك كتاب العقائد الإســـلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وكتاب رجال السـلف ونســاؤه وكتاب مبادئ الأصـول، فضــلًا عن العديد من المقالات والخطب والمحاضـرات وقصـائد الشـعر التي سـبق وأن نشـرَها في صـحف المنتقِد، والشـهاب، والنجاح، والشريعة المطهرة، والسنة المحمدية، والبصائر.

فرحم الله ابنَ باديسَ ورحم من نشر إرثه وواصل بذله.

المُلَّا محمد عبد الله حسن

نحن قوم قاموا بالعزم والإيمان، وعقدوا نيتهم على أن يدافعوا عن دينهم ووطنهم و شرفهم بآخر قطرة من دمائهم، يجاهدون في سبيل الله تعالي لإعلاء كلمة الإ سلام إلي أن يحققوا أغراضــهم أو يســتأصــلوا من فوق الأرض. ونحن قوم نكافح لتطهير جميع أنحاء بلاد الصــومال من الأعداء الكافرين المســتعمرين لأننا نعلم تمامًا أنه لا يمكن أن نعبد الله في أرض آمنين مطمئنين، ولا أن نقيم أحكام كتابه ولا أن نســتثمر خيراتها ولا أن نستنشق نسيم الحرية بها إلا بعد تحقيق الغرض المذكور.



المُلَّا محمد بن عبد الله حسن

نقف في هذه السطور مع إمام الثورة الصومالية الكبرى، الذي كافح الاستعمار وحلفاءه قرابة ربعِ قرنٍ من الزمان، انطلق من لا شيءٍ يحمل عقيدة الإيمان في قلبه وسلاحًا أبيضَ رخيصًا في يده، ليبلغ ذروة قوته وانتصاراته ويقيم إمارةً إسلاميةً يحرسها جيشٌ قويٌّ منظمٌ من كتائب الفرسان والمشاة التي بلغ تعدادها بالآلاف، خاض حربًا استمرت عهدًا طويلًا حتى كلّت جهود الصليبيين الغزاة في ملاحقته.

وكادوا له المؤامرات تلوَ المؤامرات وقطعت طريقَه الخياناتُ تلوَ الخيانات، لكنهم لم يتمكنوا من قتله إلا بأجبن الطرق ورغم ذلك لم يفلحوا في الوصول إلى جثته، فكان أن برّ قسمه ألا يُؤخذ منه سلاحه مذ أشهره معلنًا الجهاد في سبيل اللّه، فعاش عزيزًا ومات عزيزًا، هناك على ثرى الصومال المسلم دارت فصول هذا التاريخ الذهبي الماجد، سطره الملا محمد بن عبد اللّه حسن بِحُسن قيادته وسياسته، لا بد أن تعرفه الأجيال وتتحدث به الركبان وتتعلم منه مدارس الثورات والجهاد.

زحفت الأطماع البريطانية والإيطالية إلى التراب الصومالي ونهبت وسرقت ثروات البلد المسلم التي لا تُعَد ولا تُحصى، واستعبدت شعبه ونالت من كرامته وحريته، ولكن في وسط مشهد الظلم والعدوان قامت ثلةٌ أبيةٌ، معتزةٌ بدينها تقيةٌ، فحملت السلاح وتحدتْ الجموع الكافرة المتحالفة، بعزم المسلم ويقين المؤمن فكان أن قامتْ ثورةٌ ذهبيةٌ تاريخيةٌ تشهد لصولاتها تلك الأرض.

نشأته

يُلقَّب بالمُلا، والشيخ المجاهد، إنه عَلَمنا السيد محمد بن عبد اللّٰه، الذي وُلِد في الصومال عند بئر "سـع مديق" بين المراعي الخصـبة التي اخضـرَّت بوفرة المياه، وذلك في غرة ذي القعدة من سنة ١٢٨٠ هـ الموافق لـ ٧ أبريل ١٨٦٤ م.

ترعرع الفتى الصـومالي في كنف والديه في أرض أخواله "دولبهنتي" وقد ظهرت عليه علامات النبوغ والتميز مقارنةً مع أقرانه، فقد كان قائد الأطفال في ميادين اللعب بسبب شخصيته القيادية منذ صغره، هوى الفروسية والنشاط وعُرِف برجولته صغيرًا، وحين لمح والده فيه هذه الصـفات أخذ يعوِّده على الصـبر والتقشـف وتحمل خشـونة البادية. وما إن بلغ الثامنة من عمره حتى أسلمه والده إلى أحد علماء "الأوغادين" الذي علمه القرآن الكريم وبعض العلوم الشرعية.

أتم حِفظ القرآن في الحادية عشر، وأكمل دراسته في الكُتَّاب لينتقل إلى مدرسةٍ أخرى، وقد حاز على ثقة معلمه الذي استعان به في تعليم التلاميذ لِما رآه فيه من كفايةٍ وأمانةٍ وذكاء.

فاشتغل الطالب النجيب في تعليم الأطفال صباحًا وطلب العلم مساءً، فقد كان يتصل بالمشـايخ المحليين ويتلقى عنهم العلوم فنَمَتْ معه خصـلة القيادة من جهة وخصـلة البحث وطلب العلم من جهة أخرى.

مسيرة طلب العلم والدعوة

ما إن بلغ عَلَمنا التاسـعةَ عشـرة من عمره حتى حصـل على رصـيدٍ علميٍّ أهَّله للفُتيا والتدريس لمستوًى أكبرَ من مستوى أطفال الكُتَّاب، فخرج إلى المساجد يلقي الدروس،

وأصبح اسمه المتداوَل، الشيخَ محمدًا. ولكنه لم يكن ليرضى بهذا المبلغ من الطموح، ولمَّا رأى أنه استنفد ما لدى الشيوخ المحليين من عِلمٍ استأذن والديه في السفر للاستزادة من مشايخ المسلمين في الخارج.

وهكذا أمضى عَلَمنا قرابة عشرِ سنواتٍ في رحلاتٍ متصلةٍ إلى أنحاء البلاد الصومالية كافةً، لا يسمع فيها عن شيخِ متخصصٍ في فرعٍ من فروع المعرفة إلا قصده وتتلمذ على يده، وحصَّل منه ما يريد، ثم يتحول إلى غيره، وهكذا حتى أتم تحصيل ما لدى المشايخ الصوماليين والعرب الذين بلغ عددهم اثنين وسبعين شيخًا.

وخلال رحلته في طلب العلم لم يغفل عن صلة رحمه وزيارة أهله فكان يزورهم مدةَ شهرٍ أو يزيدُ وذلك في كل عامٍ أو عامين ثم يكمل رحلته.

استقر عَلَمنا الشيخ بعد أن انتهى من تنقله وترحاله لطلب العلم، ليدرِّس الطلبة وينشر ما حمله من علم، والتف الناس من حوله واستناروا من معرفته.

مسيرة الجهاد

وفي يومٍ من الأيام قرر الشيخُ محمد أن يخرج في رحلة حج لأداء فرضه مع رفقائه وبعض طلبته، فخرج متوجهًا إلى مكة، بصرُه يحنو إلى الكعبة ولكنْ في ذاكرته، كان يقلب أوراق مشروع خطير تخمَّر منذ زمن حِلِّه وترحالِه، ولأنه مشروعٌ يتطلب الحيطة والحذر وحسن التخطيط والقيادة.

استغل عَلَمنا جواره برسول الله صلى الله عليه وسلم ليبُثَّ ما في خاطره لرفاقه المقربين منه وتلامذته الذين يثق بهم، فاستهل حديثه إليهم بتذكيرهم بسيرة نبيهم صلى الله عليه وسلم ثم قال:" إن الدول الأربع التي تقتسم بلادنا وتستعبد أبناءنا

وتهيننا في أرضنا وتفسد أخلاقنا وتزيف عقائدنا وتسخر من شعبنا كله لمصالحها الاستعمارية، هذه الدول الأربع أجنبيةٌ عنا، لا تجمعنا وإياها رابطةُ جنسٍ ولا دين، ولذا أريد أن تعاهدوني في الحرم النبوي على حرب أولئك الغازين أعداء الشرف والدين وأن تكون هذه المعاهدة سريةً مكتومةً بيننا حتى يحين الوقت الذي نستطيع فيه تنفيذ ما اعتزمناه بإرادة اللّه" فوجد ترحيبًا كبيرًا عندهم، وانتهى الاجتماع بأن تَعاهَدَ الرفقاء واضعين أيديهم فوق أيدي بعض، يبايِعون على الجهاد، ويقسمون على تحرير بلادهم مهما كلّف الثمن. ومن هنا بدأت قصة الأُباة.

التحريض على الغزاة ونشر الوعي

ثم ما إن قفل الشيخ الحاج إلى الصومال عائدًا، حتى انطلق في مرحلة التعبئة والتجييش وباشر في إلقاء الخطب الحماسية في التجمعات والمساجد يهاجم المستعمرين وعملاءهم وعلماء السوء أذنابهم، ولم تكن هذه الحملات بالشيء الهيِّن أو الذي يُستهان به، فقد بلغ مفعولها السحري أن أوقد الهمم وفتَّح عيون الناس ونشر الوعي واليقظة وهيَّأهم لما هو آتٍ.

وشاء اللّه أن يدخل الشيخُ السجنَ في حادثةٍ بعيدةٍ عن نشاطه، كان سببها تضحيةً قدمها لأجل نصرة أحدهم، فما إن دخل إلى السجن حتى حوله إلى ساحةِ دعوةٍ وتعبئةٍ لدعوته، فلما علِم الحاكم الإنجليزي بالأمر أمرَ بإطلاق سراحه فورًا. ووظف الإنجليز أذنابهم لتشويه سمعته لكن السحر انقلب على الساحر وازداد الشيخ شهرةً وذاع صيته بين الناس أكثر، فاستفاد علمنا من إقبال الجماهير عليه خيرَ استفادةٍ خاصةً مع تصاعد أعمال المبشِّرين الخبيثة آنذاك واستياء الأهالي منهم ومن مشاريعهم التنصيرية.

تأسيس فرقة الدراويش

فتحول مبا شرة إلى مرحلة الإعداد للجهاد وهنا برزت عبقرية القائد الفذ حين شرع في تأ سيس الفرق الخا صة التي أطلق عليها ا سم "الدراويش"، والتي أُ سّست على أ ساس اختيارٍ دقيقٍ يهتم بتوفر اللياقة البدنية والمهارة الرائعة في القتال. وكان يهدف من وراء تسميتهم بالدراويش الارتقاء بثورته عن التسميات الحزبية والقبلية المثيرة للشَّحناء والخلاف. وقد جعل علامتهم المميزة العمائمَ البيض والمسابح التي تتحرك حباتها مع حركات الألسن التي تلهج بذكر الله. وكانت نساؤهن تتميزن بارتداء الملابس الساترة لكل الجسد ما عدا الكف والوجهين، فبدأ الناس يعرفونهم بهذه الصفات والملامح.

إعداد السلاح

وبعد الإعداد النفسي والمعنوي للجهاد استأجر المُلّا الكثير من الحدادين ليصنعوا الرماح والسيوف والنبال والخناجر لجنوده. والعجيب أنه لم يكن بحوزتهم في الانطلاقة إلا ثلاثون بندقيةً ولكن عزمهم كان لا يُضاهى، كما كان لديه آلافٌ من الخيول وفَرَساه المشهورتان طود مير أي الدوّار في الصحراء وعلن سد أي حامل اللواء.

وبدأت قواته تتضخم وصفوفها تنتظم وتتقوى وتتجهز، فوصل خبرهم للإنجليز حينها سارعوا لمراسلته يعرضون عليه شراء ذمته فكان أن ردّهم بكل عزةٍ وإباء.

إعلان الجهاد

من الصعب أن نلخص عبقرية عَلَمنا القائد في الإدارة وتنظيم قواته فقد قسّمهم تقسيمًا رهيبًا، مجموعاتٌ متخصصةٌ وقياداتٌ متفرسة، وأدرج معهم جهازًا استخباراتيًا محترفًا، وأخرج بعد هذا الإعداد الحثيث، بيان إعلان الجهاد المنتظر. ولخص البيان

أهدافه وأسباب إعلانه الشرعية، وحدد فيه العدو وهدد الخائن فبرزت عبقرية الشيخِ محمد في استعمال الكلمة النافذة في موقعها الحاسم منذ أول بيانٍ جهاديٍّ يعلنه.

واندلعت الحرب، وبدأت قوات الدراويش تطلق الغزواتِ تلوَ الغزوات ولأنها كانت منظمةً على طرازٍ فريد فقد حققت الانتصارات المتوالية في عددٍ من المعارك، كان أولها معركة جكجكا، إذ اغتَنِمت الغنائم وأحدثت في الأعداء شر قتلة. لقد كان هذا الانتصار كالصاعقة على الغزاة، وأعقبتها معاركُ كثيرةٌ كان يتخللها استعراضاتٌ للقوة أرهبت عدوهم وطمأنت الأهالي وكسرت تلك الشائعاتِ المغرضةَ عن ضعفٍ يتخلله وعن قوة العدو التي لا تُقهر. وقد كانت استراتيجية الدراويش تعتمد قاعدة الهجوم خيرُ وسيلةٍ للدفاع وأنه من اللازم السيطرة على أماكن الماء. فأفلحت الاستراتيجية الفذة وخرج الإنجليز بأكبر خسائر في حياتهم وخرج القائد الإنجليزي سوين مهزومًا مندهشًا.

ومن جهتها، أثارت الانتصارات الكبيرة على يد الدراويش روح البسالة النادرة لدى كثيرٍ من الصوماليين لدرجة أنْ كان يُقدِم الكثيرون منهم على أعمالٍ لا يكاد يتصورها العقل، لولا أنها تجري في لحظاتٍ خارقةٍ من الاستهانة بالموت، وكان لها أثرها في إذهال الأعداء وهزيمتهم.

عامان كاملان من الانتصارات راسلَ بعدَها الملا محمد الإنجليز يطالبهم بالتعقل مؤكدًا لهم أن نهاية الغزاة الخروج من أرضٍ يقاتلهم أهلها.

حتى مطلع عام ١٩٠٤ وقوات المُلا تنتصر في كل معاركها، وخلال سبعٍ وعشرين موقِعةً خاضتها لم تذُقْ طعمَ هزيمةٍ واحدة، ولنا أن نتخيل الأسلحة البيضاء مع بعض البنادق والتي تزايد عددها مع كلِّ غنيمةٍ أمام جيوش الإنجليز الجرّارة.

عرفت بعدها الدراويش طعم الهزيمة وذلك في معركة جديال لكن المُلَّا بفِراسته استفاد من دراسة أسباب الهزيمة ووظفها لانطلاقةٍ جديدة. حتى استنفدت دول الاستعمار جهدها في إقناع الملا لتوقيع هدنةِ صلحٍ كان يسميها الدراويش الصلح الخداعي، لما أخفته في طياتها من نوايا الغدر والاستعداد له.

وعلى رأس هذه الدول كانت إيطاليا تسعى بإصرارٍ ملفتٍ لهذا الهدف، وجرت العديد من المراسلات بين الطرفين فوافق أخيرًا الملا على التفاوض وهنا برزت عبقريته السياسية، لقد سجل التاريخ هنا أحد أروع تحركاته، والتي عمد إليها حين قدوم الوفد المفاوض، في ٧ من شعبان ١٣٢٢ هـ الموافق ١٦ ـ ١٠ ـ ١٩٠٤، وصل المُلا وقوةٌ عظيمةٌ من رجاله إلى ثغر "الك" هناك أمر قواته باستعراضٍ يشد الأنظار، وكانت مفاجأةً كبيرةً للمفاوضين، لقد شاهدوا فرق الفرسان التي زادت عن خمسين ألف راكب، تمر أمام الوفدين في نظامٍ رائعٍ وملابسَ فاخرة، تحسبها من سندس النعيم كما تقول مذكرات الملا.

وبعد الفرسان مرت فرق المشاة وكان عددها مئةَ ألفٍ يحملون على أكتافهم اليسرى أنواعًا من الرماح لا نظير لها في الطول والعرض والضخامة. وفي أثناء العرض كان الفرسان والمشاة يُنشِدون الأناشيد الجهادية الحماسية من بينها، يا زعيمنا زيد الجهاد ضد الإنجليز لننتقم لقتلانا في معركة جدبال! ولا شك أن هذا العرض أدى مهمته الأساسية.

الاستفادة من المعاهدات في إعادة بناء الجيش

وما إن وُقِّع الصلح بين الطرفين وكان يعلم الملا أن الجانب المقابل خائنٌ غادرٌ، أسرع الملا في تقوية الدراويش الجنوبية وإعادة تنظيم الجيوش وردّ كل قبيلة تحاول التوسع في أراضي الدراويش.

اتصل برجال القبائل المحايدين وبدأ باستعطافهم وانتهى بتسليحهم وتجييشهم معه، وقد بذل جهده في دعوة هذه القبائل حتى أن أحد رسائله لقبيلة بيمال التي كانت تقطن بوادي مركة، جاوز عددُ صفحاتها الأربعين صفحةً، شرح فيها كل ما يتعلق بثورته وطلب منهم التحالف معه.

فاستجابت من فورها وسلحها الملا من فوره. وأجرى اتصالاتٍ مع دولٍ خارجيةٍ تُنافِس المستعمرين وتناهض سياساتهم فاتصل بممثل تركيا وألمانيا في الحبشة واستمالهم لصفه، وكذلك فعل مع الحبشة أيضًا.

لعبة التزوير والحروب الباردة

وبهذا التخطيط السياسي الفذّ. لم يتمكن الأعداءَ البتةَ من تحطيم الدراويش وإنهاء ثورة الملا، رغم لجوئهم للوثيقة المزورة وهي فتوًى مزورةٌ نسبوها للشيخِ محمد صالح المقيم في مكة، وهو شيخ ذو مكانةٍ وفضلٍ عظيمٍ في صفوف المسلمين في الصومال، كانت تزعم أن الشيخ المِفضال المفتي يطالب الملا بالكف عن جهاده ويتهمه بظلم الناس، ولكنها مؤامرةٌ ذهبت أدراج الرياح فقد أحبطها الملا بثورةٍ مضادَّةٍ إعلاميةٍ استعمل فيها الخطب المُزلزِلة والأشعار المكذِّبة، فانتهت بانتصاره، وكذلك مؤامرة عنجيل التي بعد فشل الوثيقة المزورة كان هدفها اغتيال الملا لكن جهاز استخبارات الدراويش اليقِظ أحبطها وألقى القبض على المتورطين فيها فعفا المُلّا عمن عفا وقتل رأسهم المدبر ليكون عبرةً للناس.

وا ستمرت هذه الأ ساليب في ملاحقة المُلَّا لكنها باءت بالف شل جميعُها ويعود ذلك لقوة دفاعات المُلَّا وجهاز استخباراته، ونباهة القائد ويقظته وإلمامه بكل ما يدور من حوله.

ومن توفيق اللّٰه لعَلَمنا أنه مُنِح إلى جوار مواهبه الســياســية والقيادية موهبة التأثير الخطير في الناس عن طريق الكلمة فقد كان شــاعرًا وكاتبًا وخطيبًا ومتفقهًا في الدين وذا درايةٍ واسعةٍ بنفسيات أتباعه وخصومه على السواء.

العودة للحرب

وا ستمر التجاذب والتصادم والتدافع بين المعسكرين، ا ستغل خلاله الملا السيا سة خيرَ اســتغلالٍ وكان يحرك قطعه وقواتِه وحصــونه بحســب ما تســتلزم خريطة المواجهة، وتؤكد مراســلاته ثبات موقفه ورفضــه أيةَ مســاوماتٍ رغم كثرتها، بل اســتمر يســدد الضــرباتِ القاصــمةَ المؤلمة رغم رســائله الســياســية التي كان يرد بها على المســتعمرين والتي تناقش معهم ســبل الصــلح والهدنة. منها ما كان من صــدمةٍ مفزعةٍ للقيادة الإنجليزية والإيطاليين حين ســيطر الملا على مدينة بلدوين الاســتراتيجية، في وقتٍ كان الجنرال كوفل الإنجليزي العنيد يتربص به الدوائر ويخطط لتســديد ضــربةٍ مؤلمةٍ لها، فجُنَّ جنونه وفقد الســيطرة على أعصــابه حين ســبقه بها الملا محمد، وأرســل له رسالةً عاجلةً عَنوَنها بــ "إلى المجنون محمد بن عبد اللّٰه" وهدده فيها وتوعد، وأغلظ له الخطاب وذلك بسبب سيطرة المُلَّا على بلدوين.

فكان الرد التاريخي من عَلَمنا حين قرأ الرســالة، والذي يعكس لنا شــخصــية هذا القائد المســلم الأبي إذ قال: "من الســيد محمد بن عبد اللّٰه حســن قائد القوات الدراويشــية الإســلامية إلى الجنرال كوفل قائد قوات الشــيطان، وبعد، فلقد اطلعت على رســالتك وفهمت منها كل أغراضــكم الدنيئة وأهداف حكومتكم الوضــيعة الماكرة وأُعلِمك أن

قواتكم التي تُفاخرون بها لا تساوي عندي شيئًا وأخبرك أنكم إذا حاربتموني معتمدين على القوات الهائلة التي تخوفونني بها فإني أحاربكم بنيتي الصادقة وإيماني القوي وبعزيمتي الصادقة التي لا تعرف الانحراف والملل هذا وأخبركم أيضًا أنه مهما يكن من شيء فلا تطمعوا مني أن أستسلم لكم وأن أكون للشرك عبدًا." ووُقِّعت الرسالة في ٢١-٨-١٣٣١ هـ الموافق لـ ٢٥-٧-١٩١٤ م.

المعركة القاصمة (تليح)

فكانت بعد هذه الرسالة المعركة القاصمة (تليح) التي شرَّد فيها الدراويش جيش كوفل أشدَّ تشريد، وقُتِل شر قتلة ومُزِّق شر مُمزَّق، وكتب فيها الملا محمد شعرًا بلغت شهرته الآفاق في بلاد الصومال.

حمل الملا محمد حبًا للإسلام وللخلافة الإسلامية كبيرًا وحين قَوِيَث سيطرته على البلاد وجال جيشه في ثغورها يحرسها ويشن الغزوات، أعلن المُلَّا محمد ولاءه للدولة العثمانية عنوان وحدة المسلمين آنذاك ورفع راياتِها على أرضه وحظي باتفاق الحماية العثمانية لأراضيه.

تبعات الحرب العالمية

- سلاح الطائرات

ولكن الحرب العالمية وسقوط الدولة العثمانية وانتصار الإنجليز والإيطاليين في الحرب قلب كفة الموازين ورجعت هذه القوات الغازية أكثرَ شراسةً وغطرسةً تدفع بأسراب طائراتها التي لم تعرفها سماء الصومال من قبل لتقذف الحمم على الدراويش الفرسان الذين لم يتقنوا بعد فن التخفي من الطائرات، وقد كان سلاحًا فتاكًا لم يجربه

الدراويش من قبل، وكانت هذا أيام الجنرال آرشر، الخبيث، ورغم بشاعة الهجمات، إلا أنها لم تُثنِ من عزم الملا وثورته واستمر في صموده وثباته يتحرى الأماكن التي لا تصلها الطائرات ويبحث عن سبل التخفي من هذه الراجمات الحديثة.

- حرب الميكروبات والجراثيم

وبذلك وضع الغزاةَ أمام الخيار الأخير وهو السلاح القذر، لقد لجأ الإنجليز إلى استعمال حرب الميكروبات والجراثيم وذلك بعد أن عجزت جيوشهم الجرارة التي تعدى تعدادها مئات الآلاف من الجند مدججةً بكل أنواع السلاح الحديث من ثقيل وخفيف، عجزت جميعها أمام الملا محمد وجنده الدراويش!

وبهذه الطريقة القذرة سممت القوات الإنجليزية المياه ونشرت الأمراض الوبائية والسُّم في مناطق الدراويش، فبدأ هذا السلاح ينال من الجنود الدراويش كلَّ نَيْلٍ وتساقطت الأنفس تساقطًا لم تشهده أرض الصومال من قبل، ولم يعلموا لها من علاجٍ أو طريقةٍ للمقاومة، فمات ألوف من الرجال والنساء والأطفال، ومات من أسرة المُلَّا وحده زهاءَ مئتين بين رجالٍ ونساء، وكان كلما يدفن واحدًا منها يقول المُلَّا محمد: الحمد لله إذ مات فلانٌ في الإسلام ولم يستسلم للكفار.

وفاته رحمه الله

وبذات الخاتمة انتهت حياة بَطَلنا، الذي وافته المنية متسممًا كشعبه، وأسرته، في ليلة الثلاثاء ١٠ـ٤ـ١٣٣٩ الموافق ل ٢١ـ١٢ـ١٩٢٠ بعد أن شرب ماء مسمومًا من مياه هرشكج ودُفِن في قلعته في إيمي تبكيه أفئدة جنده ورفقائه وترثيه القبائل باكيةً متألمةً مرددة كلماته الخالدة.

وحتى وهو جثةٌ هامدةٌ كان الملا محمد مبعثَ أرقٍ شديدٍ لرجال الاستعمار الذين حاولوا أن يحصلوا عليها، ولكن خاصةَ الدراويشِ نقلوا جثته ودفنوها في مكان لم يعرفه أحدٌ غيرُهم وبعض أهله حتى اليوم. وهكذا انتصر بطلنا عليهم جميعًا ومات ولم يصِلوا إليه ولم ينزعوا منه سلاحه الذي أقسم ألا ينزعه منه عدوٌّ منذ شهَرَه معلنًا الجهاد في أولِ يومٍ من انطلاق ثورته.

وللاستزادة من سيرة هذا القائد العملاق الذي يجهل قصته البطولية الكثيرُ من شباب المسلمين، أنصحكم بقراءة الكتاب الماتع -ثائر من الصومال، (بقلم عبد الصبور مرزوق).



حسن البنا

"الواجبات أكثر من الأوقات فعاون غيرك على الانتفاع بوقته وإن كان لك مهمة فأوجز في قضائها."

حسن البنا

سـنجد اسـمه يتردد في الكثير من سِـيَر أعلامنا، ذلك أنه كان بلا جدالٍ من الأعلام البارزين والباذلين في زماننا، هو الشـيخ حسـنٌ البنا، مَنْ قاده فكرُه للمواجهة المريرة وختم مسـيرته بتوقيع الدم، ليذكر الأجيال من بعده أن الموت لأجل المبادئ خيرٌ من حياةٍ يُذَل فيها المسلمون.

نشأته

وُلِد الشـيخ حسـنٌ في بلدة المحمودية التابعة لمحافظة البحيرة في مصـر، في شـعبان ١٣٢٤هـ الموافق لـ ١٧ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٠٦. منذ فتح عينيه وهو في بيئةٍ إسلاميةٍ متدينة، ترعاه عائلة متوسـطة الحال لكنها مؤمنةٌ مبصـرة، سـعت لأن يحفظ ابنها الأول القرآن، فحفظ نصفه وهو صغيرٌ وأتمَّه وهو كبير.

والده هو الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي، وقد عُرِف بهذه الكنية كونَه في أثناء دراسـته عمل بمحلٍّ لإصـلاح السـاعات في الإسـكندرية، ويُعَد والده من علماء الحديث فقد رتب معظم أسانيد الأئمة الأربعة على أبواب الفقه، وله فيها مصنفاتٌ عديدةٌ أهمها شرح مسند الإمام أحمد بن حنبل وسمى الشرح "بلوغ الأماني من أسرار الفتح الباني"، وهكذا نشـأ حسـنٌ في كنف والده فتأثر به وبشـخصـيته، وقد أخذ عن أبيه العلوم الشـرعية والفقه ولأن والده كان يفقه الحكمة من الاختلاف بين المذاهب، أَوْكَل لكل واحدٍ من أبنائه دراسـةَ مذهبٍ من المذاهب الفقهية، وكان المذهب الحنفي من نصـيب عَلَمنا حسـنٍ، فضـلًا عن تشـجيعهم على قراءة الكتب وحفظ المتون، دون أن ننسـى

صناعة الساعات وحرفة تجليد الكتب التي ورِثها حسنٌ البنا من والده كما بقية العلوم. وأما والدته فهي أم سعد صقر.

في أثناء أيام طفولته الطيبة، تقاسم حسنٌ الحياة مع عدةٍ من الإخوة والأخوات له في بيتٍ واحدٍ وغرفةٍ واحدة كان يطلق عليها "غرفة الدكة" أو "مسقط الرؤوس العظيمة". كان لكل واحدٍ منهم شأنٌ وقصة.

ابتدأ حسنٌ مشواره التعليمي بتعلم القراءة والكتابة على يد معلمه الشيخ "محمد زهران المحمودي" العالِم السلفي صاحب مدرسة الرشاد الدينية والذي تأثر به حسنٌ كثيرًا ووصفه بأنه: "الرجل الذكي الألمعي، العالم التقي، الفطن اللقن الظريف، الذي كان بين الناس سراجًا مشرقًا بنور العلم والفضل يضيء في كل مكان"، وما إن حفظ حسنٌ نصف القرآن حتى قطع الدراسة في الكُتّاب الذي كان ينتقد طريقته ويتذمر منه، لينتقل إلى المدرسة الإعدادية، رغم معارضة والده الذي كان حريصًا على تحفيظه القرآن كاملًا، ولم يوافق على التحاقه بالمدرسة إلا بعد تعهده له بأن يُتِمَّ حفظه في البيت، ثم انتقل إلى مدرسة المعلمين الأولية في (دمنهور)، وقد أنهى دراسته في دار العلوم عام ١٩٢٧. وكان ترتيبه الأولَ على الدار، والخامس على طلاب مصر، ليشغل بعد ذلك ثغر معلمٍ للغة العربية في المدرسة الابتدائية الأميرية في الإسماعيلية، ويُذكَر عنه أنه عندما دخل كلية دار العلوم وتقدم لامتحانها كان يحفظ ثمانية عشر ألفَ بيتٍ من الشعر، وقد أُعجب بالكلية وأساتذتها.

مراحل تكوين فكره

بقي البنا في وظيفته معلمًا إلى أن استقال منها عام ١٩٤٦م ذلك أنه لاح له ثغرُ عملٍ جديد ألا وهو وظيفته في جماعة الإخوان المسلمين.

الطريقة الصوفية

كان حسنٌ يتميز بهمةٍ عالية، وقد شغل منصب سكرتيرٍ لجمعية صوفية تُعرَف بالطريقة الحصـافية، وهو لا يزال في الثالثةَ عشـرة من عمره، ولا شـك أنه تأثر بالصـوفية في مرحلةٍ من مراحل حياته المبكرة، رغم تربيته السـلفية، وقد ظهر ذلك جليًا في اهتمامه بالطريقة الحصافية ومشاركته الشباب جلساتهم في المسجد.

نبغ حسنٌ بين أصحابه مرشدًا وواعظًا في سنٍّ صغيرة، ساعده في هذا النشاط سرعة بديهته وقوة ذكائه و سعة ذاكرته فضلًا عن حُسن أخلاقه وا ستقامته فقد كان حريصًا على أداء الصـلاة في المسـجد، وتلاوة القرآن، وتعظيم الشـعائر الدينية، اجتماعيًا قريبًا ممن حوله، يجذبهم بحسـن حديثه وقوة حجته، كل ذلك بأسـلوبٍ لَبِقٍ غير منفر. وكان عَلَمنا يحتفظ بمكتبةٍ تضم الآلاف من الكتب والمجلات، والتي ورثها ابنه سيف الإسلام بعد رحيل والده.

عمل حسـنٌ البنا في مجال التعليم ما يقارب الــ ١٩ عامًا، ثم اسـتقال من وظيفته التدريس سنة ١٩٤٦، بعد أن نال الدرجة الخامسة من الكادر الوظيفي الحكومي، وتفرغ لدعوته.

لقد صـقل عملُه في التدريس فضـلًا عن مصـاحبته ومجالسـته للعلماء والشـيوخ الذين يجتمعون للمناقشـة والتذاكر، عند والده وشـيخه المحمودي صـقل مهاراتِه وسـهل طريقته في العمل وعلمه الصـبر وتثمين الجهود في التبليغ والدعوة لله وعزز فيه حب الإسلام والتفاني في خدمته.

سقوط الخلافة

وحين نرجع بالذاكرة لتلك الحقبة التي عايَشَها حسنٌ البنا، نرى مشهدًا مؤلمًا مؤسفًا، إذ أُصِيب العالم الإسلامي بإحباطٍ واضطراب إثر سقوط الخلافة العثمانية وتداعت عليه قُوى الغرب تتقاسم بلاد المسلمين وتهيمن عليها وكذلك كان حال مصر لا يختلف عن غيرها من ديار المسلمين إذ كانت تعاني وطأة الاحتلال الإنجليزي، والتي أعقبها دعواتٌ للتحرير والإصلاح قاد مشعلَها التيار الإسلامي، وكان أول رموزه في ذلك الوقت جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا.

وقد شهدت علاقات حسنٍ البنا تقاربًا ملحوظًا مع محمد رشيد رضا تشهد لذلك بعض المراسلات بين الطرفين.

الفكر الحركي والثوري

إن الواقع المرير الذي عاشت فيه الشعوب المسلمة كان يحتِّم على المسلم عزيز النفس أن يُنكِره ويقوم محتجًا يندد به ويطالب بتغييره، وكذلك فعل حسنٌ البنا الذي شارك في العديد من التظاهرات والاحتجاجات في سنٍّ صغيرة، إذ تُسَجَّل له أولُ مشاركة في ثورة ١٩١٩ وهو في الثانية عشرة من عمره.

واستمر كذلك حتى قفز إلى الخطوات العملية للتغيير وذلك بتأسيس عددٍ من الجمعيات الدعوية التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، كان منها "جمعية الأخلاق الدينية" وبعدها "جمعية منع المحرمات"، وحمل عَلَمنا همَّ التبليغ بنشر الدعوة الإسلامية في تجمعات الناس في المقاهي، فجذب إليه قلوب الجماهير بحسن عرضه وقوة حجته، وقرب حديثه من واقع الناس وأحاسيسهم.

جماعة الإخوان المسلمين

لتتبلور هذه الجهود في تأسيس جمعية الشبان المسلمين عام ١٩٢٧ ولتتطور بدورها إلى جماعة الإخوان المسلمين التي انطلقت بدايةً في مدينة الإسماعيلية في مارس/آذار ١٩٢٨، وفي عام ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م، انتقل إلى القاهرة فحققت الجماعة تطوراتٍ ملموسةً وذاع صيت دعوتها، وأسسَ المركز العام بالقاهرة. ومع زيادة تأثيرها، أُلحِق بها لاحقًا قسمٌ خاص في ٢٦ أبريل/نيسان ١٩٣٣ هو "الأخوات المسلمات".

وسريعًا ما أهّل نشاط البنا وبذله في هذه السبيل ليرتقيَ كأبٍ روحيٍّ لجماعة الإخوان المسلمين. وما إن يُذكَر منهجُ الإخوان المسلمين لابد أن يُذكَر معه "رسائل الإمام الشهيد حسن البنا" التي تُعَد حجرَ الأساس في منهج الجماعة.

الاهتمام بالجانب الإعلامي

كان لحسنٍ البنا هدفٌ يسعى له وفكرٌ يدافع عنه وحلمٌ ينافح عنه، وقد أبصر نافذة الإعلام كوسيلة عصبية لإيصال رسالته، هذا ما يفسر نشاطه الإعلامي المتفاني، فقد عمل بدايةً كمندوب لمجلة الفتح التي كان يصدرها محبُّ الدين الخطيب. ثم ما لبث أن أنشأ مجلة الإخوان المسلمين اليومية التي تحمَّل مسؤولية تحرير أكثر مقالاتها، ثم أصدر مجلة الشهاب الشهرية في سنة ١٩٤٧م، والتي استمر فيها إلى أن حُلَّت جماعة الإخوان في ٨ ديسمبر ١٩٤٨م.

كما أسس مجلة النذير التي أوكل مسؤولية تحريرها لصالح عشماوي. وأيضًا ترأس تحرير مجلة المنار بعد وفاة رئيس تحريرها الشيخ محمد رشيد رضا، ولم يقف عند هذا الحد بل استأجر مجلات النضال والمباحث والتعارف وغيرها ليعكس لنا درجة الوعي بأهمية الإعلام التي وصل إليها حسنٌ البنا.

ولعل هذا يفسر لنا أيضًا كثرة ترحال حسنٍ البنا داخل مصر لتوثيق الصلات بين الإخوان وتمتين دعوتهم، وتنظيمها تنظيمًا أكثر فاعلية، بل تُوِّجت جهوده أيضًا بامتداد دعوته إلى خارج مصر، في الكثير من أقطار العالم العربي والإسلامي.

انتشرت دعوة الإخوان المسلمين وتسللت إلى قلوب المسلمين في مصرَ لدرجةٍ أرعبت السلطات الحاكمة آنذاك، الأمر الذي دفع رئيس الوزراء المصري محمود فهمي النقراشي إلى إعلان حل الجماعة في مساء الأربعاء ٨ ديسمبر/كانون الأول ١٩٤٨ ومصادرة جميع أموالها وكذا اعتقال معظم أعضائها.

اغتيال البنّا

لم تكن هذه الإجراءات كافيةً في نظر السلطات المصرية لوأد فكر الجماعة في مهده، ولم يكن اعتقال الأب الروحي للجماعة حلًا كافيًا، فكان التخطيط لاغتيال حسنٍ البنا، وحدث ذلك في ١٢ فبراير/شباط ١٩٤٩ حين أُطلِقت النار عليه أمام جمعية الشبان المسلمين، فنُقِل إلى مستشفى قصر العيني حيث لفظ أنفاسه الأخيرة. ويقول الإخوان المسلمون أنه تُرِك ينزف بلا علاجٍ حتى الموت. بينما تؤكد روايةٌ أخرى أن إصابة عَلَمنا كانت تحت الإبط، ولم تكن خطيرة، حسب شهادة الأطباء في المستشفى. ولكن وصلت أوامر من القصر بقتل حسنٍ البنا وكان ذلك.

ولتكتمل صورة بشاعة العدوان والظلم الذي عرفه المصريون في ذلك الوقت، منعت السلطات المصرية منعًا باتًا أن يخرج أحدٌ من الرجال في جنازته، فكان أن خرجت بها النساء تحملها، ولم يخرج معهن إلا مكرم عبيد باشا القبطي الذي تحدى الحكومة وانضم إلى عائلة البنا في جنازته.

رحل الإمام البنا، مقتولًا بغدر، ولكنه ترك خلفه سيرةً زاخرةً بالبذل والعطاء والدعوة إلى اللّه، كان لها دون شــك أثرٌ في العالم الإســلامي، وإن لم تحقِّق التغيير الذي كان يطمح إليه فيكفينا من سيرته أنه حاول إعادة مجد المسلمين وإعادة الإسلام منهاجًا للحياة، وأغاظ أعداء الأمة والدين فكان له أجر المجتهد والمجاهد ـنحسبه-.

الوصايا العشر

ترك الرسائل الزاخرة بالوصايا الذهبية، وما زلنا نذكر وصاياه العشر، التي تلخص بصيرة المؤمن الذي عرف طريق الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة، على كل مســلمٍ ومســلمةٍ أن يعتبر بها في برنامجه اليومي، فقد وصّى قائلًا:

- قم إلى الصلاة متى سمعت النداء مهما تكن الظروف.
- أُتلُ القرآن أو طالع أو استمع أو اذكر اللّه ولا تصرف جزءًا من وقتك في غير فائدة.
- اجتهد أن تتكلم العربية الفصحى فإن ذلك من شعار الإسلام.
- لا تُكثِر الجدل في أي شأنٍ من الشؤون أيًا كان فإن المِراء لا يأتي بخير.
- لا تُكثِر الضحك فإن القلب الموصول بالله ساكنٌ وَقور.
- لا تمزح فإن الأمة المجاهدة لا تعرف إلا الجِد.
- لا ترفع صوتك أكثر مما يحتاج إليه السامع فإنه رعونةٌ وإيذاء.
- تجنب غيبة الأشخاص وتجريح الهيئات ولا تتكلم إلا بخير.
- تعرف إلى من تلقاه من إخوانك وإن لم يطلب إليك ذلك فإن أســاس دعوتنا الحب والتعارف.

- الواجبات أكثر من الأوقات فعاون غيرك على الانتفاع بوقته وإن كان لك مهمة فأوجز في قضائها.

رحم الله حسنًا البنا وتقبله شهيدًا في سبيله.



سيد قطب

”

إن كلماتنا ســتبقى ميتةً لا حراك فيها هامدةً أعراسًــا من الشــموع، فإذا متنا من أجلها انتفضــت وعاشــت بين الأحياء، كل كلمة قد عاشــت كانت قد اقتاتت قلب إنسـان حي فعاشت بين الأحياء، والأحياء لا يتبنون الأموات.

“

سيد قطب

ليس بدعًا من القول أن أصنف سيد قطب كأحد أكثر النماذج النادرة في القرن العشرين التي كان لها الأثر العميق في الأجيال المتوالية لا ينفكُّ يستمر، بل لا أكاد أجد شخصيةً تركت إرثًا أدبيًا وعلميًا كانت بصمته واضحةً جليّةً في نفوس الشباب المسلم بشتى تياراته واتجاهاته-التي تسعى لنهضة الأمة من جديد-مثلما فعلت شخصية سيد قطب.

لقد تمكن هذا العَلَم ببصيرته وثباته المتميّز من أن يحييَ الأمل في قلوب المسلمين، حين قدم لهم مثال القدوة الماجدة و صورة المؤمن الشهيد، كما نحسبه، فباتت سيرتُه جزءًا لا يتجزأ من صفحات التاريخ الماجد لهذه الأمة، لقد رسخ حقيقة أن الإسلام ما زال قادرًا على صناعة الرجال في كل عصرٍ وفي كل مكان.

وإن أقفرت الأرض من الرجال في زمنٍ ما، وحلّ ظلام الضعف على أمة الإسلام، فلابد أن تسطع شمس العبقرية من أحدهم ليجدد للناس دينهم ويحييَ هممهم ويقذف الشجاعة في قلوبهم ويخرجَهم من ظلمات التيه والاستضعاف إلى نور المعرفة والتمكين، إنه سيد قطب، مَنْ بِصدقِه وَفى العهود، وبكرمه أسر القلوب، وبتواضعه ألّف بين الجنود، وبشجاعته وصلابته قاد الجموع.

نشأته

وُلِد في قرية موشه من قرى الصعيد في محافظة أسيوط في عام ١٩٠٦، في أسرةٍ كريمةٍ متوسطة الحال يُقال إنها من أصولٍ هندية، بسيطةٌ في حياتها عظيمةٌ في معانيها، قد جُبلت على الطيب والكرم والغيرة على الدين والعِرض وشدة التمسك بالإسلام. كان لهذه الأسرة تأثيرٌ مباشرٌ على نبوغ سيد وتميّزه وقد ذكر ذلك في مقدمة

كتابه التصوير الفني في القرآن الذي أهداه لأمه، حين أشار إلى أن روح أمه المتدينة قد طبعته بطابعها، وذكر كذلك في مقدمة مشاهد القيامة الذي أهداه إلى روح أبيه، أنه قد تربى في مسارب نفسه الخوفُ من اليوم الآخر من خلال الكلمات والتصرفات التي كانت تنطلق من والده من خلال ممارسته أعماله اليومية، والقيام بلوازمه من طعام وشراب وغيرها، فتركت شخصية الوالدين بصماتِها واضحةً على قلبه. كِلا المؤلَّفين أصدرهما سيد في الأربعينات ولم يكن بعد قد اتجه الوجهةَ الإسلامية إلا أن التربية الصالحة كان لها بركاتُها وأثرها في عبقرية سيد قطب.

مسيرته النضالية

بعد هذه النشأة في وسطٍ متزنٍ ملتزم، انتقل سيد إلى القاهرة عند خاله ليواصل تعليمه في دار العلوم، وهناك برزت مواهبه الأدبية، فكتب في عددٍ من المجالات الأدبية والسياسية وكانت له مشاركاتٌ لامعةٌ في صحيفة "الرسالة" و"اللواء الاشتراكية "، ليرتقيَ بقلمه حتى تولى رئاسة تحرير مجلة "الفكر الجديد" لصاحبها محمد حلمي المناوي، حيث عُرف بجرأته في القلم والصَّدْعِ بالحق حتى أنه كان يجاهر بنقد الملك فاروق دون أدنى خَشية في وقتٍ كانت الأقلام تبجله وتغلو في تعظيمه، فكان أن تعرض سيد ثمنًا لهذه الجرأة إلى محاولة اغتيال رميًا بالرصاص، نجا منها بفضلٍ من الله. وبعد إ صدار ستة أعداد من صحيفة الفكر الجديد، أغلقت الحكومة الـصحيفة في زمن كانت الحريّة مصادرةً في أروقة الطغاة.

لم يُثنِ ذلك سيد عن الاستمرار في طريق كشف الحقائق والإنكار للمنكر والأمر بالمعروف، وا ستمر يخط الحرف ويكشف المكر ويتألق في سلم الصراحة حتى ا شتهر

بين الناس بصدقه ونزاهته تشهد لها السطور التي خطها بمدادٍ من ذهب في الظلال وفصول المعالم.

لقد كان سيدٌ يخاطب الطغاة بلغة الحقائق ولسان إنكار المنكر، ومما يشهد له بذلك تعليقُه في مجلة مصر الفتاة الاشتراكية في عنوان (رعاياك يا مولاي) والذي أدرج تحته صورًا من الترف الفائق في مقابلها صورٌ من البؤس والفاقة، رسالةٌ في غاية الوضوح للحاكم الجشع.

عُرِف بترفعه عن كلِّ رذيلةٍ وتجنبِه لسفاسف الأمور، في وقت كان الشباب يغرق في مستنقعات الشهوة والعبث والانحراف.

تزين بالمروءة ومكارم الأخلاق فكان رجلًا بحقٍّ، كما اتصف بالجود والكرم. كان لا يألو جُهدًا في إنفاق كل ما يصله من مال فلا يدخر منه شيئًا، حتى نزلاء سجن ليمان طرة-الذي سُجِن فيه لاحقًا-كان لهم نصيبٌ معلومٌ من أمواله، مجرمين وأصحاب قضايا في السلوك، بل وحتى السجانين، وأسرهم، كان يدفع إليهم بماله لسد حاجتهم وتفريج كرباتهم مؤْثِرًا على نفسه ولو كان به خصاصة. وهذا ما يجعل المرء لا يعجب أن يرحل سيد قطب إلى ربه وهو فقيرٌ معدم.

علوٌّ في مكارم الأخلاق، أسَرَ به القلوب، حتى كان الحلواني-مدير سجن ليمان طرة-يقول: إن المدير الفعلي للسجن هو سيد قطب. إنها أفعالٌ نجدها تنبض بين حروفه لتؤكد لنا أن كل ما سطره في رسالته الصغيرة (أفراح الروح) جعله واقعًا معاشًا حين فجر ينابيع فطرة الخير في قلوب المجرمين، وفي ذلك ذكرى للدعاة العاملين.

وفوق هذا كله كان يكسوه التواضع والورع، يتلمس حاجاتِ مَنْ حوله ويستشعر مسؤوليةَ رعاية أسرته بوفاءٍ شديد حتى أنه لم يتزوج في سبيل ألا ينشغل عن أسرته

بعد وفاة أبيه. فشهد له أخوه الأستاذ محمد قطب قائلًا عنه: (هو أبي وأخي وأستاذي وصديقي).

ومَنْ خُلُقه الوفاء والرأفة بالبشر تعدى ليصل خيرُه للحيوانات، كما يذكر نزلاء ليمان طرة قصة سيد معَ قطٍّ أعورَ شديد البشاعة يثير التقزز، لكنه كان يتقرب من سيد قطب فيجده قد اختصه بشيءٍ من طعامه وهو راضي النفس يعلق ببصيرةٍ عجيبة: (ليس من الوفاء أن نجافيَه ونضيِّعَه في هرمه بعد طول صحبته لنا).

لقد أدرك سيد أن أمانة هذا الدين هي البلاغ، هي نشر الحقيقة وكشف الشبهات لأعين الناس، وفي هذا كله كان يدرك أن أبواب السجن قد فُتِحت له وقد تُنصَب له بسبب ذلك أعوادُ المشانق، كان يداوي رجاء تلاميذه ألا يطبع كتابه المعالم فيجيب بيقين المبصر: لا بد أن يتم البلاغ.

لم يكن حينها سيد يهتم للقاء الشيخ حسن البنا مؤسس دعوة الإخوان المسلمين، ولم يُظهِر أي رغبة في الالتحاق بصفوفهم، لكنه عايش بطش الحكومة وعدوانها ضدهم، حين أُطلِقت حملةُ تنكيلٍ وتشريد للإخوان فأودعتهم المعتقلات وملأت منهم السجون في تمهيدٍ واضحٍ لاغتيال الشيخ الإمام حسن البنا.

عوامل انضمام قطب إلى دعوة الإخوان

سافر سيد قطب خلال هذه الأحداث الساخنة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وبينما هو مستلقٍ فوق سرير في إحدى مستشفيات أمريكا في عام ١٩٤٩ شد انتباهه مظاهر الاحتفال والموسيقى والسرور العارم بين الأمريكيين، فتساءل متعجبًا عن هذا الذي يبدو عيدًا؟! فتفاجأ بالجواب: اليوم قُتِل عدو النصرانية في الشرق، اليوم قتل حسنٌ

البنا، فاهتز سيد قطب من أعماقه، ودفعه سيل جارف من الشوق لمعرفة حقيقة دعوة هذا الرجل التي جعلت الغرب يرقص على جثته!

ثم كانت حادثةٌ أخرى حفرت الأثر الأعظم في نفس سـيد قطب، وقد حدثت في بيت مدير المخابرات البريطاني في أمريكا، حيث كان سـيد أحد الأهداف المغرية للغرب، فعمدوا إلى اجتذابه ودعوته لعلهم ينجحون في توظيفه واستعماله خادمًا مخلصًا لسياساتهم في بلاد المسلمين كونَه يتمتع بقبولٍ كبير بين الجماهير وقلمُه سيالٌ بإبداع.

يقول سـيد عن هذا اللقاء: (واسترعى انتباهي أمران: الأول: إن هذا البريطاني يسمى أبناءه بأسماء المسلمين، محمد وعلي وأحمد. والثاني وجدت لديه كتاب العدالة الاجتماعية، وهو يعمل في ترجمته، وهي النسخة الثانية في أمريكا إذ الأولى لدي وصلتني من أخي محمد قطب). وكتاب العدالة الاجتماعية الذي يتناول نظام الحكم والمال أحد مؤلفات سـيد قطب. ويذكر سـيد أن تركيز البريطاني في حديثه كان على مصرَ وتحديدًا نشاط جماعة الإخوان آنذاك، مفصلًا تحركات البنا وخطبه منذ أن كانت الجماعة فتيةً في الإسماعيلية حتى سنة ١٩٤٩م، حديثٌ دفع سـيد إلى اتخاذِ قرارٍ واضحٍ لا تردد فيه، هو الانضمام إلى جماعة الإخوان.

توابع الانضمام إلى صفوف الجماعة

وفعلًا دخل سـيد دعوة الإخوان المسلمين سنة ١٩٥١ وكان يقول: وُلِدت سنة ١٩٥١. لِما لتلك الدعوة من تأثير في نفسه، وبدأت مع هذا العهد الجديد سلسلةُ المحن تتوالى عليه كما توالت على رجالات الدعوة، لقد بذل سـيد قطب وقته وحياته وكل ما يملك في سبيل أن تثمر هذه الدعوة وترى النور، فكان لابد من ثمن.

في سنة (١٩٥٤)بدأت اعتقالات الإخوان المتسترة بمسرحية الرصاصات على الرئيس المصري جمال عبد الناصر في منشية البكري في الإسكندرية، آلاف الشباب اختَفَوا في ظلمات السجون بين يومٍ وليلة لا شك أن سيد كان من بينهم كونه كان رئيس قسم نشر الدعوة آنذاك، ولولا أنه أُصيب من جراء التعذيب الشديد بنزيفٍ في الرئة واضطروا إلى نقله إلى المستشفى لانضم لقائمة المقتولين شنقًا، من جماعة الإخوان، وكأن الله يريد أن يجعل له عمرًا يكتب فيه الظلال والمعالم، وخصائص التصور الإسلامي، إعداماتٌ أثارت الشعوب المسلمة فخرجت في تظاهراتٍ مندِّدةٍ في كل مكان، والسخط رسالتهم واللعنات على القاتل.

فكان ذلك كافيًا لردع القصر الجمهوري عن تنفيذ أيِّ إعدامٍ جديد وقد كانت محاكمة سيد قطب في الحلقة الثانية، وقد خلع سيد قميصه أمام المحكمة كاشفًا عن آثار التعذيب على جسده، وقال بسخرية: انظروا يا قضاة العدالة!! ثم قال: نحن نريد أن نسأل، أيُّنا أحق بالمحاكمة والسجن نحن أم أنتم؟ إن لدينا وثائق أنكم عملاء للمخابرات الأمريكية، وشرع يسرد الوقائع والوثائق التي تخزيهم وتؤكد صلاتهم المشبوهة بكافري-السفير الأمريكي آنذاك-فاضطر جمال سالم أن يرفع الجلسة ويغلق المحاكمة.

حُكِم على سيد بالأشغال الشاقة المؤبدة، ثم لتدهور حالته الصحية خُفِّف الحكم إلى خمسة عشر عامًا.

ثم أُصيب سيد بالتهاب في الشعب الهوائية، فوُضِع في مصحة السجن واقتطع لنفسه محيطًا من حواجز من القماش المقوى وبقي صابرًا محتسبًا يربِّي إخوانه على المبادئ المُشرقة والقيم المتلألئة، يزرع في النفوس ثبات ابن حنبل: (إن في صبرنا صبرًا للكثيرين) وهي ذات كلمة الإمام أحمد بن حنبل.

ساءت حالته جدًا، وقدم الأطباء المشرفون على صحته تقاريرَ لعبد الناصر ونصحوه أن يفك أسـره ليموت خارج السـجن، ولكنه ماطل، وضـرب بعرض الحائط بكل الطلبات للإفراج عنه حتى اسـتجاب في الأخيرة لطلب مفتي العراق الشـيخِ أمجد الزهاوي في وقت كان سيد قد شارف على الهلاك، ولكنه آثر البقاء في مصر على الخروج إلى العراق، لأنه صـاحب الكلمات الخالدة، (إننا بإسـنادنا ولو بالآراء لوضـعٍ جاهليّ، فإننا نحكم بالإعدام على كل كتاباتنا ضد الطواغيت، وتصبح كلمتنا حبرًا على أوراق).

خرج سيد وفي يده مسوداتُ المعالم ليرسلها إلى الطباعة، فكانت العاصفة التي أَقَضَّتْ مضاجع المباحث والشيوعيين، وبدأوا يَكيدون له كيدًا.

وقد رأى سـيد في منامه في تلك الأيام الحامية أفعى حمراءَ تلتف حول عنقه ويقول مُؤوِّلًا رؤياه أظنها المشنقة التي يمسك بها الشيوعيون.

اعتُقل سـيد قطب في (٦٢/آب/١٩٥٦م) وأُودع السـجن الحربي. لكنهم سـجنوا جسـده فقط، وأما روحه فكانت حرةً طليقةً في فضـاء التوحيد تناجي ربها وتتحدى بكبرياء المسلم عدوَّها. إن ملكتم الجسد فلن أملّكم الروح المسلمة أبدًا!

ومن مَكْرِ سـجانيه في أوائل اعتقاله أُلقِي في زنزانةٍ مظلمةٍ بين أربعةِ كلابٍ بوليسـيةٍ وظيفتُها إرهاب السجناء وقد يصل الأمر إلى انتهاش لحومهم وتقطيعها فور تلقيها أية إشارة من الكلاب البشرية وهي أساليب الطغاة ذاتُها في كل بلد. كما شهدتها سجون أبو غريب وغوانتنامو وأخواتها في أيامنا.

تهمته كانت الخيانة العظمى بترؤس تنظيمٍ إرهابيٍّ يدعو إلى قلب نظام الحكم بالقوة، إنها تهمة الصادع بالحق، فكيف لو اقترنت فعلًا بسلاحٍ وقوة؟ في دلالة على أن الكلماتِ سلاحٌ لا يُستهان به يزلزل حتمًا عروش الطغاة.

لقد حمل سـيدٌ على عاتقه أمانة حسـن البنا، بقيادة التنظيم سـنة (١٩٦٢م) رغم ما كان يُمِرُّهُ من ألمٍ وأذًى. يشد أزره كلماته في مقدمة الظلال ص(٥١)، دار الشروق: (وانتهيت من فترة الحياة في ظلال القرآن إلى يقين جازمٍ حازم. أنه لا صـلاحَ لهذه الأرض، ولا راحةَ لهذه البشرية، ولا طمأنينةَ لهذا الإنسان ولا رفعةَ، ولا بركةَ، ولا طهارةَ، ولا تناسقَ مع سـنن الكون وفطرة الحياة إلا بالرجوع إلى الله، والرجوع إلى الله-كما يتجلى في ظلال القرآن-له صورةٌ واحدة، وطريقٌ واحد. واحدٌ لا سواه. إنه العودة بالحياة كلها إلى هذا الكتاب).

وبقي التحقيق والتعذيب مسـتمرًا عامًا كاملًا من آب سـنة (١٩٦٥م) حتى آب سـنة (١٩٦٦م)، وقد كان الجلادون حريصين ألا يموت سيد قطب ليبقى معذبًا بينما كان سيد يسـخر من الضـباط الخائنين الذين يلعقون أحذية تلك الذئاب البشـرية التي تُمسـك بخناق المسـلمين، وتتربع على عرش مصـر، وتحكم بالحديد والنار، وتجتث بما في أيديها من وسـائل بقايا الخُلُق والقيم الرفيعة من المجتمع، وتحارب بأقلامها وأجهزتها كلَّ فضيلةٍ آدمية، أو مبدأٍ ربانيٍّ سام.

ضريبة الصدع بالحق ومجابهة الطغاة

وصـدر الحكم عليه بالإعدام فقال سـيد عند صـدوره بيقين المؤمن: (الحمد لله لقد جاهدت مدةَ خمسةَ عشرَ عامًا حتى نلت هذه الشهادة).

وحين سارع آلُ قطب لزيارة سيد بعد صدور حكم الإعدام، طوقهم بذراعيه وقال: (لقد دعوت الله عز وجل أن ينفذ الحكم لتكون الشـهادةُ، دعوت الله أن يجعل هذه العائلة كلها شهداء، هل قبلتم؟) قالوا: قبلنا.

ونُفِّذ حكم الإعدام في سَحَرِ ليلة الإثنين (٢٩) آب (١٩٦٦)، وفاضت هذه الروح الماجدة إلى بارئها بعد أن أدت دورها تحدوها كلماته الخالدة: (إن النصر في أرفع صوره هو انتصار الروح على المادة، وانتصار العقيدة على الألم، وانتصار الإيمان على الفتنة. وفي هذا الحادث انتصرت الفئة المؤمنة انتصارًا يشرف الجنس البشري كله. إن الناس جميعًا يموتون، وتختلف الأسباب، ولكن الناس جميعًا لا ينتصرون هذا الانتصار ولا يرتفعون هذا الارتفاع، ولا يتحررون هذه التحرر، ولا ينطلقون هذا الانطلاق إلى هذه الآفاق، إنما هو اختيار الله وتكريمُه لفئةٍ كريمةٍ من عباده، لِتُشارِكَ الناس في الموت، وتنفرد دون الناس في المجد في الملأ الأعلى، وفي دنيا الناس أيضًا، إذا نحن وضعنا في الحساب نظرة الأجيال بعد الأجيال، لقد كان في استطاعة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم، ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسَهم، وكم كانت البشرية كلها تخسر؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير؟ معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد).

ولا يزال التاريخ يسجل جوابه على شقيقته حميدة حين دخلت عليه تطلب منه الاعتذار في سبيل الإفراج عنه: فقال سيد: (عن أي شيء أعتذر؟ عن العمل مع الله، والله لو عملت مع غير الله لاعتذرت، ولكنني لن أعتذر عن العمل مع الله، ثم قال: اطمئني يا حميدة، إن كان العمر قد انتهى سيُنفَّذ حكم الإعدام، وإن لم يكن العمر قد انتهى فلن ينفذ حكم الإعدام ولن يغني الاعتذار شيئًا في تقديم الأجل أو تأخيره).

لقد علّم سيدٌ تلاميذه لماذا لابد أن يكون صريحًا كل الصراحة في المحكمة التي تملك عنقه؟ فقال: لأن التورية لا تجوز في العقيدة، ولأنه ليس للقائد أن يأخذ بالرخص، ويبدو أن هذه الصفة هي الطابع المميز لشخصية قطب.

عَلَمُنا هو الذي خلد كلماته السامقة: (إن إصبع السبابة الذي يشهد لله بالوحدانية في الصلاة لَيرفُضُ أن يكتب حرفًا واحدًا يَقِرُّ به حكمُ طاغية) حين طلب منه التراجع، وهو الذي قال: لماذا أسترحم؟ إن كنت محكومًا بحقٍّ فأنا أرتضي حكم الحق، وإن كنت محكومًا بباطل، فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل، بينما كان حبل المشنقة يلوح أمام ناظريه.

إنه اليقين المتجذر الذي أحله فيه التوحيد، إنها الطمأنينة الدائمة التي سكبها الإيمان بالله في أعماقه، إنه أثر الإخلاص في حياة هذا العملاق الكبير كما نحسبه، وما تركته كتاباته من أثرٍ في نفوس الجيل العائد إلى الله لهي أكبرُ انتصارٍ ضد جلاديه والمجرمين كافةً في كل زمانٍ. وفي كل مكان.

سيد قطب مدرسةٌ، قدوةٌ وفخر، ما زال سيل كلماته الخالدات يلهِم الجماهير ويتألق به العاملون، اقرأوا له لتدركوا ذلك النور الذي آتاه إياه خالقه، حين فضَّله على كثيرٍ ممن خلق تفضيلًا، وكفى ببركة توصياته وكتاباته المتألقة لنلمس درجة التفاني والصدق التي تميز بها شهيدنا-نحسبه-. رحل سيد قطب ولم ترحل دعوته ولم ترحل كلماته بل رحل أعداؤه وحلّ الأمل والاستبشار في نفوس من قرأ له. هو الملهِم وهو المحرِّض وهو العالم العارف، هو البحر الزاخر الذي استنشق عبير العزة ولم يرضَ بغير التوحيد منهجًا! رحمك الله يا سيد قطب ولا حرم الله الأمة المسلمة أمثالك.



محمود شاكر

"العقل الذي لا يتصــور أن الحياة البشــرية قادرة على صــنع الحضــارات، بلا اســتناد إلى طريقة العيش الغربية واعتناق مبادئ الحضــارة الغربية عقل قد أســقط من حســابه أن الحضــارات، قامت وبادت، من قبل أن تكون الحضــارة الغربية وأصــولها جميعا على ظهر الأرض، وأن هذه الحضارات إذا بادت وا ستؤ صلت، فالإنسان أيا كان بعد ذلك، قادر على أن يبني حضــارة جديدة تناقض هذه الحضــارة الغربية في طريقة العيش، وفي المبادئ التي يدعيها."

محمود شاكر

عَلَمنا في هذه الصفحات استحق لقب إمام الجهاد وإن لم يكن حمَل السلاح، ذلك أنه حمل القلم السيّال والفكر المستنير الذي أرّق بهما أعداء الدين، وخاض بهما المعارك تلو المعارك وحقق بهما أروع الانتصارات والملاحم، فكان نِعمَ المجاهد الباذل.

لا شك أن ساحة المواجهة بين الحق والباطل لا تقتصر على مواجهة ميدانيةٍ عسكريةٍ بل إن المعركة الفكرية التي تدور رحاها اليوم على مواقع الإنترنت وعلى صفحات الكتب وعلى أثير الإذاعات والقنوات جزءٌ لا يتجزأ من معركة الأمة التي يسقط فيها الضحايا ويُجنَّد فيها الجنود وتُحقَّق فيها الاستراتيجيات الناجحة.

ففي الوقت الذي جند فيه الشيطان رؤوسًا لتضليل الناس وحرفهم عن سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم وإغراقهم في بحر الريبة والشك بعد تحطيم المعتقدات والأسس الإيمانية، مثل هدى شعراوي، وطه حسين، ولويس عوض وغيرهم، سخر الله بالمقابل جنودًا فرسانًا، يردُّون الباطل وينسفون الدجل ويحفظون بيضة الإسلام كما أرادها الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، كان منهم محمود شاكر قاهر العلمانية وناصر الإسلام منهجًا.

نشأته

ولد محمود شاكر ليلة العاشر من المحرَّم عام ١٣٢٧هـ في إحدى المساكن الدافئة بنور الإسلام في مدينة الإسكندرية العريقة. وتعود أصوله إلى أسرة أبي علياء من أشراف جرجا بصعيد مصر، وينتهي نسبه إلى الحسين بن علي رضي الله عنه. وقد نشأ عَلَمنا في بيتٍ يتنفس العلم، فكبِر وهو يبصر والده القدوة يخط سيرته الزاخرة الفاخرة، فقد

كان والده شيخًا لعلماء الإسكندرية، سبق وأن تولى منصب وكيل الأزهر لمدة خمس سنواتٍ (١٩٠٩ـــ١٩١٣م)، وكان من خطباء ثورة ١٩١٩م المفوهين، وأول من ولِيَ منصب قاضي القضاة في السودان فوضع نظام القضاء الشرعي، واستمر في عمله وتميُّزه كأحد دعاة الإصلاح في الأزهر والمطوِّرين لمناهجه ونُظُمه، ثم استقال من الوكالة بعد أن اختير عضوًا في الجمعية التشريعية سنة (١٣٣١هـــ١٩١٣م)، وتفرغ للعمل العام، والإدلاء برأيه كمُصلِح ومربٍّ في القضايا العامة وبالكتابة في الصحف ليزرع تلك القدوة في صدر ابنه محمود شاكر وابنه الثاني العلامة أحمد شاكر واحد من كبار محدثي العصر، تزخر المكتبة الإسلامية بروعة مؤلفاته وتحقيقاته المشهورة فكان لا يقل بريقًا عن أخيه.

في هذا الجو العلمي تربى عَلَمنا وقد قال واصفًا طفولته: "منذ بدأت أعقل بعض هذه الدنيا، وأرى سوادها وبياضها بعين باصرة شغلتني الكلمة وتعلق قلبي بها، لأني أدركت أول ما أدركت أن "الكلمة" هي وحدها التي تُنقَل إلى الأشياء التي أراها بعيني".

كان محمود شاكر أصغر إخوته ترتيبًا، والتحق بالمدرسة الابتدائية ومنها إلى الثانوية متدرجًا في مسيرة طلب العلم، فعُرِف بشَغَفه بتعلم اللغة الإنجليزية والرياضيات، وبتعلقه بدراسة الأدب وقراءة عيونه، ويكفي دلالةً على ذلك حفظُه وهو فتًى طريٌّ ديوان المتنبي كاملًا، وحضوره دروس الأدب التي كان يلقيها الشيخُ المرصفي في جامع السلطان برقوق، الذي قرأ عليه في بيته: الكامل للمبرد، والحماسة لأبي تمَّام.

نجح محمودٌ الطالب في الحصول على شهادة البكالوريا (الثانوية العامة) من القسم العلمي سنة ١٩٢٥ واختار لنفسه فَرع اللغة العربية في كلية الآداب، رغم أهليته لغيرها من التخصصات العلمية.

ولأنها كانت رغبته وهوايته وموطن محبته وعبقريته، امتشــق ســيف اللغة العربية بإتقان، وسلَّه في وجه كل محرِّفٍ للدين بشجاعةٍ، فكان له الأثر البالغ في صفوف الأمة والذي وصل وميضه إلى الجيل الجديد، بل اخترق به كالشعاع قلوب الأجيال الصاعدة، عن طريقِ الكتب المدرســية وكتب الأطفال والشــباب. دون أن ينســى طرق أبواب الصـحافة والمسـرح والسـينما بقلمه الملهَم وفكره العميق المتزن، فكان له في كل حقلٍ أثرٌ.

خوضه غمار المعارك الفكرية والعقدية

بينه وبين طه حسين

تسـجل له أيامه في الجامعة، تلك المعركة التاريخية التي خاضـها مع طه حسـين حين حاول الأخير إسـقاط بلاغة الشـعر الجاهلي، في تدرجٍ ماكر للطعن في القرآن، أبصـره فارســنا الأديب الفقيه وهو طالبٌ، فكانت صــدمته كبيرة حين رأى أســتاذَه بأم عينه يدَّعي أن الشــعر الجاهلي منتحَلٌ وأنه كذبٌ ملفَّقٌ لم يقُلْه أمثال امرئِ القيسِ وزهيرٍ، وإنما ابتدعه الرواة في العصر الإسلامي، وضاعف من شدة هذه الصدمة أن ما سمعه من طه حسـين سـبق له أن قرأه بحذافيره في مجلةٍ اسـتشـراقيةٍ بقلم المسـتشـرق الإنجليزي مرغليوث.

وبعد طول صبرٍ من محمود شاكر تمنعه الهيبة والأدب من مناقشة أستاذه طه حسين صدَعَ أخيرًا بالحق في يومٍ لم يقدر فيه على الصبر، فواجه طه حسين بحقيقة ضلاله، واحتفظ في نفسه بحقيقة أن كل ما يهذي به طه حسين هو في الواقع سطوٌ على أفكار المستشرق مرغليوث في جرأةٍ لم يكتشفها إلا لبيب.

أمام هذا المشهد وهذه الحقيقة البشعة لأستاذٍ من أساتذة الجامعة اشتَهر في زمانه، أعرض محمود شاكر عن ميدان الجامعة، ورحل عنها غيرَ آسفٍ ولا نادمٍ وهو لا يزال في السنة الثانية، لينتقل إلى الحجاز في سنة ١٩٢٨ م فغطس في أوراق الأدب والقراءة النافعة ودواوين الشعر المختلفة، فتزود من فوائدها، وأعد نفسه لصولاتٍ قادمةٍ بعد أن أبصر الهدف، كما أنشأ مدرسةً ابتدائيةً كان هو مديرَها. ولم تفلح المحاولات التي بذلها أ ساتذتُه وأهله في إقناعه بالرجوع، حتى دعاه والده الشيخ للعودة فا ستجاب له وعاد أخيرًا إلى القاهرة.

ولقد هاجم محمود شاكر ما كتبه طه حسين في سلسلة مقالات بلغت ١٢ مقالًا في جريدة البلاغ تحت عنوان "بيني وبين طه حسين".

وهكذا في مستهل مسيرته انبرى عَلَمنا الشاب لساحات التطاحن الفكري، والمواجهة العَقَدية بكل ثقة بما يملك من قوةٍ إيمانيةٍ وأدبية، فكان كالفارس يصيب بسيفه كلَّ ضلالةً فيُرديها أرضًا ويقوّم كلَّ اعوجاجٍ فيستقيم في حينه.

أباطيل لويس عوض

وحين أبصر مكمن الخطر، نذر نفسه للرباط على ثغور الإسلام الفكرية، وحارب بكل قوته العَلمانيةَ، تشهد لذلك معركته مع لويس عوض، حين كشف جهله وبيّن ضعفه في مواجهة حاسمة، وتُعَد مقالاته التي سمّاها "أباطيلُ وأسمار "خلاصة هذه المعركة الفكرية، بل صُنِّفت هذه المقالات كحدثٍ معرفيٍّ مدوٍّ حين عرف الناس غزارة علم محمود شاكر وسَعَة معرفته بالشعر وفنون العلم والثقافة العربية، وقد تعمد عَلَمنا في هذه المقالات التي بلغ عددها ثلاثًا وعشرين مقالةً فضلًا عن الرد على لويس عوض، إلى التو سع في الحديث عن الثقافة والفكر في العالم العربي والإ سلامي، وما تربص لها من

غزوٍ فكريٍّ مُبرِزًا خطر حركة التبشــير التي غزت العالم الإســلامي ومحذرًا من الوقوع في حبالها العَلمانية.

لقد تلقى لويس عوض دون شكٍّ صدمةً كبيرةً اضطربت لها أوصالُه، خاصةً حين فضح محمود شـاكر ضـعف ثقافته عمومًا وخاصـةً في تخصـصـه في الأدب الإنجليزي حين أثبت فارسنا فساد ترجمته العربية لمسرحية الضفادع لأرسطو فان.

ولم يتوقف محمودٌ عند كتابة مقالاته حتى أغلقت مجلة الرســالة نفســها، ودفع ثمن الصَّدْع بالحق وردِّ الباطل السجن لمدة سنتين وأربعة أشهر من آخر شهر أغسطس سنة ١٩٦٥م، حتى آخر شهر ديسمبر سنة ١٩٦٧م، ليؤكد لنا صحة تقييمه لخطورة الشرّ الذي تصدّى له.

ولكن ســجن جســده لم يمنع مقالاته التي جُمِعت بهيئة كتاب "أباطيلُ وأسـمار" من أن يصــبح أحد أهم الكتب التي ظهرت في المكتبة العربية في النصــف الأخير من القرن العشرين.

إنتاجه الفكري والثقافي

لقد كان محمود شــاكر الأديبَ والمثقفَ الزاهد المتواضــع، تميز بطريقته الخاصــة في الكتابة وارتقى في الإبداع الشــعري حتى بلغ ذروته في قصــيدته "القوس العذراء"، لم يترك سـاحة عطاءٍ إلا وجال فيها بعمله وهمته، ففضـلًا عن سـاحة الدعوة والدفاع عن الفكر الإســلامي التي أبلى فيها بلاءً حســنًا، خاض في تحقيق كتب التراث فكان نِعم المحققَ البارع، سـلاحه المعرفة ومن قبلها إيمانٌ ويقينٌ لا يَنضَـبان. يصـفه بعضـهم بأنه قمةٌ من قمم العربية، وعَلَمٌ من أعلامها، وأن الحديث عنه ما هو إلا حديثٌ عن تاريخ هذه الأمة العربية.

اختار عَلَمنا لنفسه برنامجًا يوميًا يغلِبُ عليه العزلة والاعتكاف للدراسة والبحث، ليبصر غزارةَ علمه وسَعَة معرفته المقربون منه من تلامذته ومحبيه الذين يجاورونه باستمرارٍ. ولم يكن ليُطِلَّ من خندقه إلا ممتشقًا سلاح نصرة الحق وفضح الباطل، حين يبصر الخطر، فيحطم الأوهام ويبني الحصون ويبدد الضلالات، ويفضح تلك الألقاب الخادعة التي أضلت الناس، لهذا كان أكثرُ مؤلفاته استجابةً فوريةً للتصدي للأخطار التي كانت تتربص بالثقافة العربية والدين الإسلامي وتقطع الطريق على دعاة الإسلام والإصلاح، فكان نِعم الحافظ لحرمات هذا الدين ونعم الصادع بالحق ونعم المُغيظ لأهل الباطل.

ولم يكن شاكرٌ معروفًا بين الناس قبل تأليفه كتابَه "المتنبي" الذي أثار ضجةً كبيرةً بمنهجه المبتَكَر وأسلوبه الجديد في البحث، وهو يُعَدُّ علامةً فارقةً في الدرس الأدبي نقلَتْه من الثرثرة المسترخية إلى البحث الجاد. ولعل العجيب في قصة هذا التأليف أن شاكرًا الذي أخرج هذا الكتاب سنة ١٩٣٦ ولم يُجاوِز السادسة والعشرين من عمره لم يكن يقصد تأليف كتاب عن المتنبي، إنما كان مكلَّفًا من قبل فؤاد صروف رئيس تحرير مجلة المقتطف بأن يكتب دراسةً عن المتنبي مسهِبةً بعضَ الإسهاب ما بين عشرين إلى ثلاثين صفحة.

ولكن قريحة عَلَمنا أُلهِمت بهذا التكليف، لتتحول الصفحات المعدودة، إلى كتابٍ مستقلٍ عن المتنبي أتمه في وقتٍ قصيرٍ على نحوٍ غيرِ مسبوقٍ وقد لاقى هذا العمل قبول فؤاد صروف الذي نشره في مجلة المقتطف في عددها الصادر في السادس من شوال ١٣٥٤هـــــالأول من يناير ١٩٣٦م، مُرفِقًا تعليقًا عليه كان مفاده: "هذا العدد من المقتطف يختلف عن كل عددٍ صادرٍ منذ سنتين إلى يومنا هذا، فهو في موضوعٍ واحدٍ ولكاتبٍ واحد".

دوره في تصحيح مسار سيد قطب

لقد كان لمحمود شاكر موقفٌ تاريخيٌّ مع سيد قطب والإخوان بعد وفاة مصطفى صادق الرافعي بعامٍ، وكان ذلك بعد أن أشعل سيد قطب معركةً أدبيةً على صفحات الرسالة سنة ١٩٣٨م، اندفع فيها بحماس الشباب دون رَوِيةٍ، ومتأثرًا بحبه الشديد وإعجابه الجامح بالعقَّاد آنذاك قبل أن ينتقده ويتراجع عنه، فهاجم أدب الرافعي وجرده من الإنسانية، والشاعرية واتهمه بالجمود والانغلاق، فلاقى كردة فعلٍ، ثورةً من محبي الرافعي كان قائدُها بلا منازعٍ محمود شاكر الذي انبرى للدفاع عن شيخه وفنَّد ما يزعمه سيد قطب، ودخل معه في معركةٍ حاميةٍ لم يستطع الشهيد سيد قطب أن يصمد فيها.

ثم تجددت المعركة بينهما بعد سنواتٍ طويلةٍ حين كتب سيد قطب مؤلَّفه "العدالة الاجتماعية في الإسلام"، وكان سيد قطب قد بدأ مرحلة التحول إلى الفكر الإسلامي، وحمل الكتاب ما عُدَّ نقدًا وتجريحًا لبعض الصحابة، فانتفض شاكرٌ وكتب مقالةً شهيرةً في مجلة "المسلمون" تحت عنوان " لا تسبُّوا أصحابي" سنة ١٩٥٢م. وبهذا كان لمحمود شاكر أثرٌ لا يُنكَر في مسيرة سيد قطب نبصر بركاته حين أصبح هذا الأخير من كبار أعلام عصره ومن أكثر قادات الفكر الإسلامي بروزًا وتأثيرًا وشهرة.

وربما يفسر هذا التصادم مع سيد قطب، الموقف السلبي الذي اتخذه محمود شاكر من جماعة الإخوان المسلمين، إذ كان شديد الهجوم عليهم، رغم محاولات لجنة الشباب المسلم-التي أنشأتها جماعة الإخوان المسلمين للتفرغ للدرس والبحث بغير انشغالٍ بالنشاط الحركي-الاتصالَ بمحمود شاكر، ليتولى تدريس السيرة النبوية لحسابها بناءً على اقتراح من مؤسّسها الشيخ حسنٍ البنا، وقد عُقِد لأجل هذا الأمر العديدُ من اللقاءات، والتي أصر البنا على إتمامها تقديرًا منه للمرتبة العلمية التي يتميز بها عَلَمُنا

الأديب الكبير، متناسيًا تمامًا ما كان يحمله محمود شاكر من هجومٍ قويٍّ على شخصه، ومقدِّمًا مصلحة الأمة على حظوظ النفس.

ولعل هذا الموقف يجعلنا نتفكر في تلك الأعلام الشامخة التي اصطدمت فيما بينها فكريًا في مرحلةٍ ما خلال مسيرتها وقد جُبِل الناس على الاختلاف، ولكن هذا الاصطدام لم يمنع كل عَلَمٍ منهم أن يكمل مسيرته بصدقِ همته وطلبه، وأن يحقق التأثير الإيجابي في أمته، نسأل الله أن يجمعهم على سررٍ متقابلين وقد نزع ما في قلوبهم من غِلٍّ إن وُجِد!

الندوات الفكرية والدروس الأسبوعية

ذاع صيت محمود شاكر أكثر فأكثر ليبلغ ذروته في حِقبة الخمسينات، فقد ترسخت مكانته العلمية وعرف الناس قدْرَه، وبدأت أجيالٌ من الدارسين للأدب من أماكنَ مختلفةٍ من العالم الإسلامي يَفِدون إلى بيته، يأخذون عنه ويستفيدون من علمه ومكتبته الحافلة، من أمثال: ناصرِ الدينِ الأسد وإحسان عباس، وشاكرٍ الفحام، وإبراهيم شبوح، فضلًا عن كثيرٍ من أعلام الفكر الذي كانوا يحرِصون على حضور ندوته الأسبوعية كل يوم جمعةٍ عَقِب صلاة المغرب، مثل فتحي رضوان ويحيى حقي، ومحمود حسن إسماعيل، ومالك بن نبي.

وشهدت هذه الندوة الدروسَ الأسبوعية التي كان يلقيها محمود شاكر على الحاضرين في شرح قصائد الشعر التي حواها كتابُ الأصمعيات، وقد انتفع بهذه الدروس كثيرون، وكان الأديب الكبير يحيى حقي يعلن في كلِّ مناسبةٍ أن محمود شاكر هو أستاذه الذي علمه العربية وأوقفه على بلاغتها، وأن ترجمات كتب مالك بن نبي خرجت من بيت

محمود شــاكر، فقد قام الدكتور عبد الصــبور شــاهين أحد أفراد ندوته بترجمتها إلى العربية وهو آنذاك شابٌّ صغيرٌ في بداية مشواره العلمي.

ولم يخشَ شــاكرٌ أحدًا في ندواته الفكرية التي كان يقيمها في بيته فكان يعارض الرئيس المصـري آنذاك جمال عبد الناصـر علانيةً ويُنكِر ما يحدث للأبرياء في السـجون من تعذيبٍ وإيذاءٍ وكان يفعل ذلك أمام زواره ومن بينهم من يشــغَل منصــب الوزارة، كالشيخ أحمد حسن الباقوري وزير الأوقاف آنذاك.

ونتيجةً لذلك لم يسـلم عَلَمنا من بطش السـلطة، فألقت القبض عليه سـنة ١٩٥٩م، وبقي رهنَ السجن ٩ أشهر حتى تدخلت شخصياتٌ عربيةٌ، فأُفرِج عنه وعاد لمواصلة نشاطه في تحقيق كتاب تفســير الطبري الذي شــرع في نشــره من قبلُ، وانتظمت ندوتُه مرةً أخرى.

تحقيق كتب التراث

أمام ما بذله محمود شاكر من جهدٍ رائعٍ في ميدان المواجهة الفكرية، لا شك أنه استغرق منه أكثر وقته، يقف المرء متعجبًا كيف تمكن أن يكون محمود شــاكر نفسُــه على رأس قائمة محققي التراث العربي، حتى وصفه العقاد بالمحقق الفنان.

وتكفي إطلالةٌ واحدةٌ على المكتبة الإســلامية لتنبهر العيون بتلك الدقة والتفاني في الإتقان، في تحقيق أشــهر الكتب من تفســيرِ الطبري وطبقاتِ فحول الشــعراء وتهذيبِ الآثار للطبري، إننا نتحدث عن مجلداتٍ كبيرة تستغرق أوقاتًا مديدةً، حققها عَلَمنا وأبدع في ذلك، وما يزيد الإعجابَ شــدةً، هو حرص محمود شــاكر على ألا يُوصَــفَ بمحققٍ لنصوص التراث العربي، وإنما كان يحب أن يوصف بالقارئ والشارح لها، يشهد لهذا ما كان يخُطُّه على أغلفة الكتب التي يقوم بتحقيقها بخطٍّ رقيق، عبارة: "قرأه وشــرحه"

والتي علق عليها الدكتور محمودٌ الربيعي بأسلوبٍ ثاقبٍ حين قال: "هي الحد الفاصل بين طبيعة عمله وطبيعة عمل غيره من شيوخ المحققين، إنه يوجه النص ويبين معناه بنوعٍ من التوجيه أو القراءة التي تجعله محررًا؛ لأنها قراءة ترفدها خبرةٌ نوعيةٌ عميقةٌ بطريقة الكتابة العربية، وهو إذا مال بالقراءة ناحيةً معينةً أتى شرحه مقاربًا، وضبطه مقنعًا، وأفق فهمه واسعًا، فخلع على النص بعض نفسه وأصبح كأنه صاحبه ومبدعه".

إن انقطاعَ شاكرٍ إلى ساحات العلم والفكر وبين رفوف المكتبات وطاولات البحث والدراسة، أدخله نوعًا من الرهبانية شغلته عن السعي خلف الرزق والاهتمام بالبحث عن المال، وهذا ما جعل حياته تتسم بالفقر والعِوَز، إلا أنه عود نفسه الرضا بالقليل الذي كان يحصل عليه من خلال عائدات كُتُبِه التي يقوم بتحقيقها، وكان يكفي أن تقرأ الناس اسم محمود شاكر على كُتب التحقيق حتى تمتد لها الأيدي مُقبلةً، واحترف عَلَمنا الصبر على قلة ذات اليد، رغم شدة بعض السنين العجاف، بل ظل بيته مفتوحًا لتلاميذه وأصدقائه وكل من عرف وزن الرجل، لم يبخلْ عليهم ولم يشكُ إليهم يومًا.

ولم يُذكَر يومًا أنه تقاضى على مقالاته ثمنًا، بل يُسجِّل له التاريخ مواقف الإباء العزيزة، حين أعاد لمجلة العربي الكويتية سنة ١٩٨٢م مئةً وخمسين دولارًا كانت أُرسِلت إليه مقابل مقالةٍ كتبها ردًا على الكاتب اليمني عبد العزيز المقالح حول طه حسين.

كما سُجِّل له موقفُ رفضِه استلام مكافأته من دار الهلال عن تأليفه كتابه المهم "رسالة في الطريق إلى ثقافتنا". وهذا يفسره العاقلون، بمبدأ "صاحب رسالة" الذي يكتب ما يعتقده ويؤمن به ويدافع عنه بروحه ومبادئه، لا يبتغي له ثمنًا ولا يتاجر به أو يجني من خلفه المكاسب، وإن كان الهدف سد حاجاته اللازمة الحياتية، ويوطِّد هذا الوصف "صاحب رسالة" غيرته على اللغة العربية، حين يقف مدافعًا عنها بإعدادٍ تامٍّ وذخيرةٍ لا

تنتهي، لتُختَم فصول المواجهة بتنازل الخصم واستسلامه أو هربه يجر أذيال الفشل. ولعل هذه الطاقة النافذة والبصيرة الثاقبة دفعت بمعاركه كلِّها لتُجمَع في كُتُبٍ ولتُصنَّف كوثائقَ في تاريخنا الفكري الحديث، وما يبهر الســـامع، أن هذه المعارك دخلها محمود شـــاكر بمثابة مكرَهٌ أخاك لا بطلٌ، ولكنه اســـتند إلى بحر ثقافته وعلمه الذي لا يمكن حصرُه، فكان أن أوفى وأكرم.

نال محمود شـــاكر أو أبو فِهر كما كان يُكَنَّى، جائزة الدولة التقديرية في الأدب ســـنة ١٩٨١م، ثم جائزة الملك فيصل في الأدب العربي عام ١٩٨٤م، كما اختير عضوًا في مجمع اللغة العربية بدمشق، ثم بالقاهرة.

وفاته

وبعد رحلة حياةٍ عريضـــةٍ رحل أبو فهر شـــيخُ العربية وإمام المحققين في الســـاعة الخامسة من عصر الخميس الموافق ٣ من ربيعٍ الآخر ١٤١٨هـ - الموافق لـ ٦ من أغسطس ١٩٩٧م.رحمه اللّٰه وأكرم مثواه وأعلى مقامه.

ومن أراد أن يلخص حقيقة هذه العبقرية التي ســردنا ســيرتها مختصــرةً للتو، فليتأمل وصـف أسـتاذه الرافعي وهو يقول: "إن من الناس من يختارهم اللّٰه فيكونون قمح هذه الإنســانية، يَنبُتُون ويُحصَــدُون ويُعجَنُون ويُخبَزُون ليكونوا غذاء الإنســانية في بعض فضائلها". فرحم اللّٰه محمود شاكر وأسكنه فسيح جناته وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيرَ الجزاء.



محمود شكري الآلوسي

خيرٌ لي أن أموت جوعًا من أن آخذ مالًا لم أتعب في كسبه.



محمود شكري الآلوسي

عَلَمٌ تسابقت في توقيره الأقلام وانبرى للذبّ عنه الأفذاذ، ونظم في مدحه الشعراءُ القصائدَ والأبياتَ، سطر بسيرته قصة العالم المجاهد، من نذر حياته نصرةً للدين وخدمةً للمسلمين، إنه المحدث الأديب محمود شكري المكنى بأبي المعالي، ابن السيد عبد الله بهاء الدين، ابن أبي الثناء السيد محمود شهاب الدين الألوسي-المفسر الشهير- ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما.

نشأته

استقبل محمود الحياة صباح يوم السبت التاسع عشر من رمضانَ عام ١٢٧٢هـ ليحتضنه بيتٌ دافئٌ بنور الإسلام، فأقبل بخطواته الصغيرة، يستمد نور الحياة من باب وحي السماء، فحفظ كتاب الله الكريم وأتمه على عمر ثماني سنين.

تتلمذ على يد علامة عصره الشيخُ إسماعيلُ الموصلي رحمه الله الذي يقول عنه محمود شكري الآلوسي: (كان في قوة الحفظ والذكاء وحسن الأخلاق على جانبٍ عظيم، كما إنه كان في الزهد والورع (جنيد زمانه) فلم تمضِ إلا أعوامٌ يسيرةٌ حتى شملني ببركته فوصلت الليل والنهار في التحصيل، وفارقت أخداني وأقراني، وانزويت عن كلِّ أحدٍ فأكملت قِسمًا عظيمًا من الكتب المهمة في المنقول والمعقول، والفروع والأصول، وحفظت غالب متون ما قرأته من الكتب المفصلة والمختصرة، وأدركت ما لم يدركْه غيري، ولله الحمد).

استقى محمودٌ من مَعين العلم وتحصنت مفاهيمُه بحسن الفقه، وكان أن برزت في عصره البدع والأهواء فنفر قلبه منها منذ كان صغيرًا، يشهد على ذلك العديد من

الرسـائل التي ألفها حول من يغالي في أهل القبور، وينذر لهم النذور فكان أن ألّب عليه الخصـومُ السـلطانَ وألحوا وكرروا، حتى جاء الأمر بإبعاده إلى جهة ديار بكر ولكن ما لبث أن وصـل إلى الموصـل حتى قام رجالها في سـدٍّ منيع، ومنعوه أن يُجاوِز بلدتهم وكتبوا كتاباتٍ شديدةَ اللهجة إلى السلطان وطالبوه بعودة محمود، فجاء الأمر بعد أيام بعودته إلى بغداد مع مزيدٍ من الاحترام والإكرام وردَّ اللّه كيد الأعداء وقام الشـيخ عبد اللطيف بن ثنيان في صحيفته الرقيب بالانتصار لعَلَمنا المحبوب، بمقالةٍ عنوانُها (الحمد لله عاد الحق لأهله).

تأثر محمودٌ بمؤلفات ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، رحمهما اللّه، تأثرًا بالغًا، وإلى ذلك أشـار كامل الرافعي بقوله: (لم أرَ أحدًا يقدر مؤلفات ابن تيمية وابن القيم قدرَهما مثلهما) أي محمود شـكري وابن عمه على الآلوسـي. وكان سـلفيًا محبًا لدعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب وناشـرًا لها ومدافعًا عنها لأنها دعوة الكتاب والسـنة، دعوة أهل السنة والجماعة، وقد أفرد كتابًا شرح فيه أحد رسائل الإمام وهي (مسائل الجاهلية).

قضـى عَلَمنا عمره وهو يجاهد في نشـر الحق والرد على الباطل، مركزًا على الخرافات المتأصـلة في النفوس يسـدد لها الرسـائل والمؤلفات التي حطم بها أسـس الباطل وأحدثت دويًا وإصـلاحًا عظيمًا. وهكذا برز محمود شـكري الآلوسـي كمُصـلِحٍ يطالب بالعودة للإسلام الحق وبتطهير الدين مما لحقه من بدع.

لقد انشـغل محمودٌ بالتأليف في كثيرٍ من الوقت ولهذا يُجاوِز عدد مؤلفاته بين كتبٍ ورسائلَ الخمسين مؤلفًا، منها ما قد طُبِع ونُشِر ومنها ما لم يزل في زوايا النسيان.

ومن أبرز المواقف التي سـجلها التاريخ لعَلَمنا، حينما هاجم الإنجليز العراق عام ١٣٣٣هـ وسعى محمودٌ طالبًا النجدة من بعض الأمراء العرب لكنهم لم يستجيبوا لطلبه فعاد إلى

بغداد، واستمر بالتدريس والتأليف حتى سقطت بغداد بيد الإنجليز، فعرضوا عليه القضاء فرفض وامتنع عن مخالطتهم، ورفض كل المناصب من الإفتاء والمشيَخة وكلَّ خدمةٍ غير خدمة العلم الصحيح ونشره بين أفراد الأمة. وفي المقابل قبِل عضوية مجلس المعارف، ليتمكن من توسيع نطاق العلم في العراق، وعضوية المجلس العلمي العربي بدمشق فخريًا.

ملامح من حياة الآلوسي

لم يفكر علمنا في الزواج يومًا مع علمه أنه لا رهبانية في الإسلام ولعل ما يفسر هذا العزوف عن الزواج، هو طبيعة الحياة التي كان يعيشها، إذ ملأ العلم كل زاويةٍ فيها، حتى السرير الذي كان ينام عليه كان مجردَ فراشٍ على الأرض محاطٍ بسورٍ من الكتب والأقلام وكأنه خندقه الخاص.

كان محمودٌ شديد الحرص على وقته ويطيل يقظته بشرب القهوة التي كانت تعينه على السهر لأوقاتٍ ممتدة فيستغله في المذاكرة والتأليف، لقد كان يحبها كثيرًا إلى درجة أنه كان يجهز منها ما يكفيه أسبوعًا كاملًا حتى لا يضيع وقته بإعدادها كلما أراد تناول فنجان منها وهذا يعني أنه كان يشربها باردةً بائتةً أيامًا فقط لكيلا ينشغل بإعدادها. لقد أبصر عَلَمنا كيف يسرق اللحظات لصالح أهدافه.

ومن آثار كتابات عَلَمنا العلامة محمود شكري الآلوسي قوله: "لا يخفى على من عرف أحوال الأمم، ووقف على ما كان عليه أجيال بني آدم، أن أمة العرب على اختلافها، وتفاوُتِ أصولها وأصنافها كانت ممتازةً على غيرها من الناس، متقدمةً في الفضائل والمآثر على سائر الأنواع والأجناس، فإن الله-تعالى-قد شرَّفها برسوله، وفضَّلها بتنزيله، وخصها بالخطاب المعجز، واللفظ البليغ الموجز، والسؤال الشافي، والجواب الكافي،

فالعرب أمراء الكلام، ومعادن العلوم والأحكام، وهم ليوث الحرب، وغيوث الكرب والرِّفد في الجدب، وهم أهل الشيمة والحياء، والكرم والوفاء، والمروءة والسخاء، أحكمتهم التجارب، وأدبتهم الحكمة فقضوا منها المآرب، ذلّت ألسنتهم بالوعد، وانبسطت أيديهم بالإنجاز، فأحسنوا المقال، وشفعوه بحسن الفِعال، ولبسوا من المجد سندسي الطراز، يغسلون من العار وجوهًا مسودة، ويفتحون من الرأي أبوابًا منسدة، كأن الفهم منهم ذا أذنين، والجواب ذا لسانين، يضربون هامات الأبطال، ويعرفون حقوق الرجال، إلى أن تلاعبت بهم يدُ الأقدار، وتفرقوا في أقصى الأنحاء والأقطار."

وصل محمودٌ إلى حالةٍ مُلِحّةٍ من الحاجة إلى المال في عهد الاحتلال، وقد استشعر ذلك المعتمد السامي برسي كوكس فسارع لإهدائه ثلاث مئة دينار ذهبًا إنجليزيًا، وكلف الأب أنستاس ماري الكرملي بتقديمها إليه، فرفض محمود قبولها رفضًا قاطعًا، وقال كلماته الخالدات: "خير لي أن أموت جوعًا من أن آخذ مالًا لم أتعب في كسبه"، فألحوا عليه إلحاحًا مملًا مزعجًا، فأبى، وقال للمرسول: "لا تكثرْ، لئلا أطردك من بيتي طردًا لا عودة إليه" فحين يئس منه عرض عليه أن يعين قاضيَ قضاة المسلمين في العراق، فلما وقف على تنصيبه، أبى، وقال عباراته الزاهدة:" إن هذا المقام يستلزم علمًا زاخرًا، وذمةً لا غبار عليها، ووقوفًا تامًا على الفقه، وأنا لا أشعر بذلك، ووجداني يحكم على بأني غيرُ متصفٍ بالصفات المطلوبة لمن يكون قاضي قضاة المسلمين".

وفي هذا المقام يقول الأديب الشاعر عزُّ الدين التنوخي الدمشقي-أحد أعضاء المجمع العلمي-

تعرضت الدنيا له مستميلةً * فآثر أخراه وأعرض نائيا

من أبرز مؤلفات عَلَمنا كتابُه (بلوغ الأرَب في أحوال العرب) والذي كتبه استجابةً لمسابقةٍ رَأَسَها الملك أوسكار الثاني، وطائفةٌ من علماء المشرقيات، ومندوبٌ من " الحضرة السلطانية " وكان الأديب التركي المشهور أحمد مدحت أفندي أحد رجال الدولة العثمانية، وقد سجل وقائع هذا المؤتمر تفصيلًا في كتابٍ خاصٍّ به.

وتنافس محمودٌ الآلوسي مع العديد من المؤلفين شرقًا وغربًا، من أوربا ومصر والشام والعراق، وغيرها، وحين حان موعد تقييم كتابه نُوقِش مناقشةً دقيقةً في عددٍ من الجلسات لتُتوَّجَ بإجماعٍ بتفضيل كتاب الشيخ محمودٍ الآلوسي على جميع الكتب المقدَّمة إلى اللجنة، فحاز الجائزة، وكانت وسامًا من الذهب مع رسالةٍ بليغةٍ صادرةٍ من القاهرة في ١٢ شهر ربيع الأول سنة ١٣٠٧هـ، بإمضاء الكونت كرلو دي لندبرغ قنصل السويد والنرويج العام في مصر ووكيلها السياسي تحمل بين سطورها بشارة فوزه بالجائزة، وقرار طبع الكتاب.

وفاته ورثائه

وفي أواخر شهرِ رمضانَ المبارك من سنة ١٣٤٢ ألَمَّ بمحمودٍ المرض الذي رحل بسببه فودع أوراقه وكتبه وخندقه المكتظ بالمؤلفات والبحوث، للقاء ربه فحزن عليه طلبتُه وإخوانه وأهله والمسلمون، وقد نظم في مدحه شعراء العصر من شتى الأمصار-أشهرهم-أديب بغداد فقي الله أحمد بن عبد الحميد الشاوي الحميري مفتي البصرة.

ورثاه الشاعر العراقي معروف الرصافي قائلًا:

محمود شكري فقدنا منك حبر هدى. للمشكلات بحسن الرأي حلالا

قد كنت للعلم في أوطاننا جبلًا. إذا تقسم فيها كان أجبالا

ورثاه تلميذه محمد بهجة الأثري بقصيدةٍ منها:

بغداد قد أقفرت من بعد مصرعه. فقلقل الركب عن بغداد أهبالا

هذي المدارس أضحت وهي باكيةٌ. من بعد شيخٍ بنى الآداب أطلالا

ورثاه ناجي القشطني بقصيدةٍ مطلعها:

لا السجن يبكينا ولا التبعيد. كلا والإرهاب والتهديد

سنظل نهزأ بالخطوب تجلدًا. مهما استمر الضغط والتشديد

ثم قال:

محمود شكري أنت ناصر ديننا. لله دَرُّ أبيك يا محمودُ

أحييت بالتنقيد مَيْت عقائد. ما مسها فحصٌ ولا تنقيدُ

إنه لمن الصعب تلخيصُ سيرةِ رجلٍ لم يكِلَّ ولم يمَلَّ من العمل والبذل، ولكن تبقى حروف أحبائه والعارفين به تشهد لعبقريته الفذة ومدى تأثيرها في ساحة الفكر الإسلامي.

وهذه حروف السهروردي يحدثنا من خلالها عن عَلَمنا الآلوسي قائلًا: "زهِدَ العلامة المترجَم له في كل ما تُقُدِّمَ إليه به من وظائفَ ورُتب لأنه لم يحفل بشيءٍ احتفالَه بنشر العلوم، وتعليم أبناء الأمة والتصنيف، والتدريس حتى إنه ما قبِلَ عضوية المجمع العلمي العربي بدمشق إلا ليتمكن من توسيع نطاق العلم في البلاد العربية، بقي كذلك حتى ابتُلِيَ بأمراضٍ كثيرةٍ أهمها: مرض الرمل في المثانة، وذلك سنة ١٣٣٧هـ، فعالجه الأطباء فخفَّتْ وطأته نوعًا ما، وحصلت له الاستراحة، ولما لم يحصل لديه طبيبٌ ماهرٌ

يستأصل شأفة هذا الداء عاد عليه سنة ١٣٤١ هـــ، كما لازمته الحمى الشديدة فضعف قلبه، وانهدت قواه، وانحل بدنه حتى صـــار لم يتمكن على تحمل مرضٍ ما. وبينما هو بين عامل الشفاء مرةً، وبين عامل تراكم الأمراض أخرى إذ أُصيب بمرض ذات الرئة في أواخر شهر رمضان سنة ١٣٤٢هـ، فتوفي منه-رحمه الله تعالى-كان المشيعون ألوفًا، فعُبِر به الجســرُ ودُفِن في مقبرة الشــيخِ جنيدٍ البغدادي فلما وُضِــع على الأرض امتد الناس وصـــلَّتْ عليه جماعتان كبيرتان، كما صـــلت عليه جماعةٌ كبيرةٌ جدًا في فســحة أرض مقبرة الشــيخ معروفٍ الكرخي، وكانت الصـحراء تموج بالناس موجًا، والكل يثني عليه، ويترحم له، أُقيمت له حفلةٌ تأبينية في جامع الحيدر خانة انبرى فيها أعاظم الشـــعراء، وكبار الأدباء ونعته الصـحف الشـرقية جميعًا، وعزى أسـرة المترجَم له الملوك والأمراء، من سـائر البلاد النائية، وقد جاء على ذلك وأثبته المِفضـال الشـيخُ محمد بهجت الأثري في كتابه أعلام العراق.

وخلاصـــة الأمر فقد كان أصـــلب العلماء دينًا وأكثرهم تقًى، وأغزرهم مادةً، وأكثرهم علمًا، كان جوادًا رحيمًا شـفوقًا غيورًا يُحسِــن إلى من أســاء إليه. كان عظيمًا مُهابًا، لبقًا كريم النفس عفيفًا، طاهر الذيل، كان واحد صُــقعه، ومفرد عصــره. كان في جبهة المجد وكوكبًا لامعًا غنيًا عن الوصـــف بالشـــهرة، كان قلبًا والمكارم له جثمانُ، وإنســـان عين الأعيان، وعلماء الزمان".

"عندما احتُلت بغداد جاءه الأب إنســتاس الكرملي يحمل له خمســمئة ليرة ذهبًا هديةً من الحاكم العسـكري الإنجليزي فأبى أن يقبلها، وكان بأمس الحاجة إليها، يدل هذا على ترفعه وعلو شـأنه وأنه لم يداهن، ولم ينافق، وقد طلبه الملك فيصـل الأول ملك العراق الســابق فأبى أن يقابله إلا بعد إلحاحٍ شــديد، ولم يقبل أيَّ هديةٍ منه، أو منصــب، فهل يصـــدق أحدٌ أنه كان يعمل بالتقية، وهي عنوان النفاق والعياذ بالله، وحقيقة الأمر كان

أول أيامه صوفيًا ثم صار سلفيًا عندما كان بالموصل سنة ١٣٢٠، والتقى بالشيخ عبد الله النعمة".

لا شك أن هذه الأسطر تلخص تاريخًا حافلًا وتنتصر لعلامة قل له نظير وتنصف رجلًا حُقَّ للأمة أن تفخر به، فرحم الله محمودًا الآلوسي، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير ما يجازي به عبده.



علي عزت بيجوفيتش

لن نبيع الآخرة من أجل الدنيا ولن نبيع إسلامنا من أجل حفنة من المساعدات.



علي عزت بيجوفيتش

قال علي عزت بيجوفيتش: "القرآن الكريم يحتاج من المسلمين أن يقرؤوه بعناية، وكل إنســـان يجد في القرآن من المعاني بقدر منزلته وإيمانه، ونحن إذا أخذنا القرآن كاملًا سوف يعطينا الحق كاملًا."

إن من روعة الإســلام أننا أينما وجهنا البصــر، في أي زاوية من زوايا الأرض، تراءت لنا سيرةُ قدوةٍ أو عبقريةٍ مسلمة، زرعت الخير وحصدت بركاتِه ببذلها وجِدِّها ومسابقتها، استقت من معين القرآن والسنة واقتدت بخيرِ سلفٍ في هذه الأمة، وكذلك قصة عَلَمنا اليوم علي عزت بيجوفيتش الذي حفر في صفحات تاريخ البوسنة سيرةَ تضحية الذات في سبيل الإسلام والمسلمين.

نشأته

وُلِد علي عزت في عام ١٣٤٤هـــ الموافق لـــ ١٩٢٥م في مدينة بوسانا كروبا شمال غربي البوســنة في أســرةٍ عريقةٍ في إســلامها. فقد عرفت منطقة البلقان الإســلام على يد العثمانيين بعد معركة "كوسوفا" الشهيرة سنة ٧٩٢هـ الموافِقة لـ ١٣٨٩م بعدما انتصروا على الصرب. وبهذا الانتصار دخل الإسلام ديار البوسنة سنة ٨٦٨هـــ الموافق لـــ ١٤٦٣م، والتزم البو سنيون تعاليم الإ سلام، وحملوا لقب "البو شناق" تحت ظل الدولة العثمانية حوالي ٤١٥ عامًا، لكن مع زوال الحكم العثماني اضـطُهِد المســلمون دينيًا وعرقيًا بصـفةٍ متكررة وتسبب ذلك في نزوح عددٍ كبيرٍ منهم إلى تركيا، وقد واجه المسلمون مواجهاتٍ داميةً انتزعت حقهم في ممارسة حريتهم العَقَدية وأثقلت كاهلهم بالمذابح والانتهاكات الفظيعة التي استهدفت كل ما هو من قبيل إسلامهم وهويتهم.

ترعرع علي عزت في مدينة سراييفو التي تلقى تعليمه فيها، وتدرج بتفوقٍ حتى أنهى المرحلة الثانوية عام ١٩٤٣ والتحق بالجامعة، وقد كلل مسيرته العلمية بالحصول على شهادةٍ عليا في القانون عام ١٩٥٠، أردفها بشهادة الدكتوراة عام ١٩٦٢، وكذا شهادةٍ عليا في الاقتصاد عام ١٩٦٤، ونجح في تطوير قدراته اللغوية فقد كان يتقن العديد من اللغات، فكتب بالألمانية، والفرنسية، والإنجليزية، فضلًا عن اللغة العربية.

وعيه بهموم الأمة

كانت شخصية علي عزت تواقةً للبذل وإنجاح المشاريع الهادفة، ويظهر ذلك منذ عنفوان شبابه حين كان لم يُجاوِز السادسة عشر من عمره وتحديدًا في عام ١٩٤٠م فبرز اسمه بين أول المؤسّسين لجمعية "الشبان المسلمين"؛ وهي جمعية أشبه بناءٍ مدرسيّ يعمل لجمع الطلبة المسلمين، وتوعيتهم، وتثقيفهم ويتحاور فيه الطلبة في شتى شؤونهم وشؤون أمتهم، ثم ما لبثت أن انتقلت من مجرد ساحة للنقاش والتحاور إلى ساحة عمل وتنفيذ فقادت الأعمال الخيرية، والنشاطات الثقافية، وأنشأت قسمًا خاصًا بالفتيات المسلمات، وقدمت خدماتٍ ومساعداتٍ للمحتاجين إبّان الحرب العالمية الثانية، وقد برزت جهودها أكثر في حقل الدعوة للإسلام وبناء شخصيةٍ مسلمةٍ قادرة على التكيّف مع محن الزمان والاستقامة رغم تكاليف الحياة في ظل نظامٍ غير إسلامي، وتحفيز وإعداد الشباب لتقديم النموذج الأروع للمسلم والمسلمة في المجتمع، سلوكًا وعملًا.

وكما كانت وما زالت السُّنة المواجهةَ بين الحق والباطل، لاقت هذه الهمم التواقة للعدالة والازدهار، الاضطهاد والقمع الذي يعترض طريق العاملين لرفع راية الإسلام خفاقةً على

ديارٍ يحكمها الطغاة، فبعد ستّ سنواتٍ من إنشائها، اعتقلت الحكومة الشيوعية علي عزت وصديقه نجيب شاكر بيه بتهمة المساعدة في إصدار جريدة "المُجاهد".

وبعد خروجهما من المعتقل توالت حملات الشيوعيين ضد "الشبان المسلمين". لتصل في عام ١٩٤٩م، إلى إعدام أربعة أعضاءٍ من الجماعة فضلًا عن اعتقال العديد من "الشبان المسلمين" بتهمة النشاط الدعوي الإسلامي. وأُعيدَت كَرَّة الاعتقال لعلي عزت في عام ١٩٨٣م بسبب نشره "دعايةً إسلامية". ولم يُطلَق سراحه إلا في عام ١٩٨٨م وبهذا صقلت سنينُ السجن والقمع في شخصية عَلَمنا الكثير من المفاهيم والأسس التي كان لها الأثر في سيرته لاحقًا.

تميز علي عزت بشخصيةٍ جادةٍ مجتهدة، أمعن التأمل في أحوال المسلمين في بلاد البلقان التي كانت مُزرِية بسبب وطأة الشيوعيين الملحدين، الذين ساموا المسلمين أشد أنواع العذاب والقسوة، وسجل التاريخ المجازر الرهيبة، والأهوال الفظيعة بحق من آمن بربه وتمسك بدينه.

وفي ظل هذا المشهد الدامي، كان لعَلَمنا بصمة اجتهادٍ ودفاعٍ عن المسلمين، قال عنه بعض طلبة البوسنة واصفًا إياه: "إن الدكتور علي عزت مثقفٌ إسلاميٌّ كبير، يصفه العلماء والمفكرون بأنه سيد قطب أوروبا".

شُغِف علي عزت بالقراءة والاستزادة من تجارب الآخرين_ منذ كان فتًى شابًا-منحه اطلاعًا واسعًا على تجارب الحركات الإسلامية الأخرى في الهند، وباكستان، وإندونيسيا، وقد أفاد من قراءة كتب المَودودي والندوي، ورئيس وزراء إندونيسيا الأسبق الدكتور محمد ناصر، وتفاعل معها، وهو ما يزال طالبًا يدرس القانون في جامعة سراييفو، والعجيب في طريقة علي عزت حين يستفيد من كتاب ما، أنه يسارع لأوساط الطلبة

في جامعته، فيبثهم فوائده ويلخص لهم مفاهيمه التي استقاها من هذه القراءات ويحاورهم ويناقشهم باهتمامٍ وحرص، فلم يكن عَلَمنا يكتفي بإلهام نفسه بل يسعى لإلهام غيره، ولا شك أن تلك الرغبة الجامحة في النهوض بشعبه البوشناق، وبسائر مسلمي البلقان والتخلص من أغلال وظلم الشيوعية الملحدة المعادية للإسلام، كانت تجرف علمنا لساحات التغيير الفعلي لواقع المسلمين وتَؤُزُّه أزًّا للتأثير في رفاقه وإبقاء شعلة الهمة متوقدةً باستمرار.

لقد كان علي عزت محل أنظار الكثير من العقول، وقد قال عنه (وود وورث كارلسن): "إن تحليله للأوضاع الإنسانية مذهل، وقدرته التحليلية الكاسحة تعطي شعورًا متعاظمًا بجمال الإسلام وعالميته".

تصديه للفكر النازي

ويسجل التاريخ صلابة علي عزت في مواجهة الأخطار التي تربصت بالمسلمين في البلقان، تحديدًا حين اجتاح هتلر بجيشه النازي يوغسلافيا واحتلها في نيسان (أبريل) ١٩٤١ وتسلل الفكر النازي إلى بعض أبناء البلقان الذين سارعوا لتأسيس حزب (الأشتاشا) النازي، وبدأت حبال هذا الحزب التسلل إلى الطلاب المسلمين، فكان لهم علي عزت بالمرصاد مع رفقائه في جمعية الشبان المسلمين فكشفوا للطلاب معاداة الفكر النازي للإسلام، وحذروهم من أنه يحرُم الانتساب للحركة النازية مهما كانت الذرائع والأسباب، ولقوة حججهم وعدالة إنكارهم، لقِيَتْ نداءات وتحذيرات علي عزت ورفقائه قبول شريحةٍ واسعةٍ من الشباب بل سرَتْ سَرَيانًا بين صفوف الطلبة وهو ما أثار استياء النازيين الألمان الذين أعلنوا الحرب على الجمعية ومنعوها من العمل.

وهكذا تصـــدى علي عزت للنـازيـة طوال عهـد الاحتلال الألمـاني، ومـا إن تحررت يوغسلافيا، ولبست لبوس الشيوعية مذهبًا ودينًا أواخرَ عام ١٩٤٥ تحولت دفاعات علي عزت ضد الشيوعية، وكان الثمن ـ ولابد-سلسلة اعتقالات.

ويلات الشيوعية

لقد كان الشيوعيون أقسى على المسلمين من النازيين، ا ستهدفوا الإ سلام بكل بشاعة، فأغلقوا المســاجد، وحولوا مدارس المســلمين إلى متاحفَ وحاناتٍ ومراقصَ، ومنعوا المســلمين من اقتناء المصــاحف، وطاردوا علماء المســلمين وكل من ظهر عليه الالتزام بالدين الإسلامي، فقتلوهم وسجنوهم وعذبوهم عذابًا مُريعًا.

لكن هذه الحرب الشــعواء التي لم ترحم أحدًا، لم يكن لها من عاقبةٍ إلا زيادة صــلابة المسـلمين وتصـميمهم على المواجهة وتغيير أسـاليب العمل وعلى هذا النهج عمل علي عزت، لهذا اعتُقل بضــع المرات وعُذِّب بضــع الكرَّات، لكنه كان يزداد قناعةً في كل امتحان صبر، أنه بلا أدنى ريبٍ على حق.

لقد بلغ علي عزت درجة من التأثير والإغاظة في الشــيوعيين لم يســبق لها مثيلٌ حتى أعلن الدكتاتور (تيتو)، الحرب على علي عزت، تلك الحرب التي لم يهدأ أُوارها إلى أن هلك في ســنة ١٩٨٠، ذلك أنه كان يخشــى من علي عزت ومن طموحاته وأفكاره وقد أعلنها صــريحةً في حواره الذي دار بينه وبين صــديقه عبد الناصــر الأثير خلال إحدى الزيارات إذ أجابَ الأخيرَ حين سأله عن علي عزت من يكون، قال تيتو: إنه رجلٌ خطير. فهو يطالب ويرى أن تتولى الحركة الإســلامية الســلطة في كل بلدٍ تكون لها الأكثرية فيه.

ومن بين الأحكام المجحِفة التي أوقعها هذا الظالم على علي عزت كان الحكم بالسجن مدةَ خمسِ سنواتٍ مع الأشغال الشاقة عام ١٩٤٩ وتهمته كانت علاقته بجمعية الشبان المسلمين.

لم يكن هذا الحكمَ المجحفَ الوحيد بل حُكِم على علي عزت مع أحد عشر شابًا من رفاقه في آب/ أغسطس ١٩٨٣ في محكمة سراييفو، بالسجن أربعة عشر عامًا، والتهمة كانت الانحراف نحو الأصولية.

ولأن الأيام دولٌ ولأن لكل بدايةٍ نهايةً، فبعد أن بلغ الشيوعيون ذروة الاستبداد بالحكم والقمع للشعوب، بدأت أنظمتهم بالتصدع في أوربا الشرقية والاتحاد السوفيتي عام ١٤١٠هـ ــ ١٩٩٠م وذلك تحت وطأة تذمُّر الشعوب وتململها حتى اضطرت هذه الأنظمة الدكتاتورية للنزول إلى السماح بالتعددية السياسية لتهدئة الشارع.

المسلك السياسي

واعتقد علي عزت أنها فرصته السانحة في تحقيق التغيير، ولابد أن نشير إلى أن عَلَمنا كان يتمتع بفطنة سياسية وخبرة قانونية استلهمها من طبيعة اختصاصه وكذا كمٌ التجارب والمواهب التي تمتع بها إلا أنه قد يخونه التقدير لمآلات القرارات التي يتخذها، وقد تكون نظرته قاصرةً لفقدانه خبراتٍ ميدانيةً في علومٍ أخرى لهذا سنرى كيف كلّفه هذا الخوض في السياسة وحدها ثمنًا باهظًا وعلمه دروسًا قاسية.

نعم بادر علي عزت إلى تأسيس حزب العمل الديمقراطي، وشارك في الانتخابات الرئاسية، التي فاز فيها، ليصبح رئيسًا لجمهورية البوسنة والهرسك، في جمادى الأولى ١٤١١هـ الموافق لتشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٠.

وكانت أول خطوةٍ أقبل عليها علي عزت هي إجراءُ ا ستفتاءٍ شعبيٍّ على الا ستقلال عن الاتحاد اليوغسلافي، وقد استجاب الشعب لهذا الاستفتاء وكانت نتيجة الاستفتاء ٩٩% لصالح الاستقلال بنسبة مشاركة ٦٣%، ولكنْ ما غاب عن عَلَمنا، هو أن هذه السبيل لم تكن لِتروقَ للغرب الصليبي، وأن أعداء الإسلام لن يدخروا جهدًا في إجهاض أيٍّ خطوةٍ تؤدي إلى تحرر ورقي دولةٍ إسلاميةٍ بعيدًا عن كلِّ هيمنةٍ غربية؛ فكانت النتيجة المنتظرة شنَّ حملةٍ إعلاميةٍ ظالمةٍ ضد مسلمي البوسنة، وتهييج الصرب الحاقدين على البوسنيين المسلمين.

حرب الإبادة في البوسنة والهرسك

فا شتعلت نار حربِ إبادةٍ دينيةٍ عرقيةٍ ضد المسلمين في البو سنة، لا شك أن بشاعتها كانت الأقسى والأَمَرَّ في سلم بشاعة الجرائم البشرية. تلك الإبادة التي تواطأ فيها آلاف النصارى من أوربا ليشاركوا في قتل آلاف المسلمين البو سنة وتسجيل المجازر المُريعة بحق النساء والأطفال والأجنة في بطون أمهاتهم والعزل من المسلمين البوسنيين، ضاقت لها الأرض وبكت عليها السماء وشاب لِهَولِها الوِلدان وتفطرت قلوب المسلمين في كل مكان.

وهكذا شاهد علي عزت بأم عينيه فشل خياره السياسي الحزبي الضعيف، حين رأى دولته الوليدة بين فكي كما شة، الصرب من جهة، والكروات من جهة ثانية، الذين تفننوا في استعمال آلة الحرب اليوغسلافية المتطورة لتقطيع أوصال شعبٍ مسلمٍ أعزلَ، وتسجيل أفظع الانتهاكات والجرائم بحق الإنسانية، في صمتٍ دوليٍّ عميقٍ، من أوربا وأمريكا، وأممٍ متحدةٍ كانت اعترفت بجمهورية البوسنة والهرسك -زعموا-، ولم يزل التاريخ يذكر تلك الإبادة بأسًى وألمٍ شديد.

شـاهد علي عزت كيف اجتمع المتوحشـون على شـعبه المسـلم من كل حدبٍ وصـوب، وشـــاهد تلك المجازر الجماعية التي لم تُكتَشـــف كلُّ مقابرها الجماعية بعدُ، وفُجِع لاغتصاب مئة ألفِ امرأةٍ وفتاةٍ مسلمة، وسقوط ثلاث مئةٍ وخمسين ألفَ شهيد، فضلًا عن تدميرٍ كاملٍ للبنية التحتية وكل مظاهر الحياة في تلك البقعة المسلمة من الأرض.

اجتهد فأخطأ

حاول علي عزت البحث عن طريقةٍ ما عاجلةٍ لإنقاذ شـعبه من هذا المَكر العالمي القبيح، خاصــةً وأنه رأى بنفســه التواطؤ الغربي الأمريكي. فلجأ لحلٍّ وســطٍ في شــعبان ١٤١١هـــــشباط ١٩٩١ يتمثل في إقامة (فيدرالية متناسقة) ورغم موافقة الأوربيين على هذا المقترح إلا أنه لاقى معارضــةً شــديدةً من قبل الصــرب، والكروات وســلوفينيا. ليصطدم عَلَمنا بالحقيقة المُرَّة!

لابد أن لكل عَلَمٍ من أعلامنا وقدوة من قدوات سِــيَرنا، طريقةً اجتهد بها في خدمة الإسلام ونذر بها نفسه لحفظ دينه والرقي بأمته، ولا شك أن لكل منهم كبواتٍ وسقطاتٍ وأخطاءً وعثرات ولكنَّ نيتهم الصادقة ابتداءً واجتهادهم المتواصل وتفانيَهم في نصرة أهدافهم الراقية قد تغفر لهم أخطاءهم.

وهذا في الواقع ما وقع فيه عَلَمنا علي عزت وعلينا الاعتبار منه، فقد كان السـبيل الذي لجأ له علي عزت فقيرًا ضــعيفًا لا يمكنه أن يحقق أهدافه الســامية، ولو أنه عمد منذ البداية إلى قَرْنِ عبقريته الســياســية بأخرى عســكرية! والتركيز على بناء قوةٍ صُــلبةٍ لدولته، فكان جهادُه الســياســي مدعومًا بجهادٍ عســكريٍّ متين، لكان بكل تأكيد واقع البوسنة والهرسك-الدولة الفتية-مختلفًا تمامًا، ولحسَبَ لها أعداؤها ألف حساب.

ولقد فات علي عزت هذه القاعدة الأساسية في كل مشروع يريد له صاحبُه البقاء، ألا وهو الحصانة والقوة العسكرية في عالَمٍ لا يعترف إلا بالأقوى، ولو أنه تفرس أكثرَ في فقه الجهاد واعتبر أكثر من سياسة الأقوياء لأبصر أن نشاطه السياسي لوحده لن يكفيَ لحفظ حقوق أهل البوسنة والهرسك في رفع راية الإسلام خفاقةً على تراب بلادهم، في وسط عالَمٍ بشع يعج بالوحوش البشرية المتعطشة لدماء المسلمين، ولكان أدرك بكل تأكيدٍ أن السياسة لا تحقق مآربها إلا بسلاح القوة المحترم! ومن هذه الأخطاء نتعظ ونستدرك خطواتنا في المستقبل وفي تجاربَ مقبلة.

في الواقع كان علي عزت رئيسًا غير عادي، تميز بدهاءٍ سياسيٍّ كبير ونضالٍ وطنيٍّ عنيد، وفكرٍ إسلاميٍّ عميق، ونظرة راقية تحضُّرية بعيدة وهذا ما جعله يشارك الأمة الإسلامية-وليس البلقان فحسب-أشجانها وهمومها، ويلتفت لكل ما يؤرِّق أمنها ورقيها.

إنتاجه الفكري

نعم لقد تحصن علي عزت بالعمل الشرعي والثقافة العصرية وقرأ الكتب الفكرية الإسلامية المعاصرة، فخرج بفكر عميق أهّله للتأليف والكتابة التي لم تشغل حيزًا كبيرًا من حياته المليئة بهموم البلقان وأمة الإسلام، ولهذا لم يترك خلفه إلا عددًا من المؤلفات لكنها برزت واشتهرت في مكتبات المسلمين والمفكرين في العالم. إضافةً إلى العديد من الأبحاث، والمحاضرات، في شتى الميادين الفكرية والسياسية والدعوية. منها كتابُه الشهير، الإسلام بين الشرق والغرب. الذي كان بمنزلةِ موسوعةٍ علميةٍ، خاطب به قادة الفكر الغربي وأخضعهم لعظمة الإسلام.

ومن عباراته الخالدة في هذا التأليف الزاخر، قوله: "لكي نفهم العالم فهمًا صحيحًا، لا بدّ أن نعرف المصادر الحقيقية للأفكار التي تحكم هذا العالم، وأن نعرف معانيَها".

وفي حين كان مندفعًا خلف قضية أمته، كانت الشهرة تلاحقه والجوائز تُسابِق له، منها جائزة الملك فيصـــل العالمية لخدمة الإســـلام عام ١٩٩٣م. وجائزة (مفكر العام) من مؤســـســـة علي وعثمان حافظ عام ١٩٩٦. وجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم (رمضـــان ١٤٢٢هـ)، تقديرًا لجهوده في خدمة الإسلام والمسلمين. وغيرها من الجوائز.

وفاته

لقيَ علي عزت ربَّه يوم الأحد، التاسـع عشـر من تشـرين الأول وقد بلغ من العمر الثامنة والسـبعين. ولم يتمكن شـعبه من إعلان الحداد الرسـمي عليه، بسـبب اعتراض الصـرب على ذلك، لأَنْ في نظرهم سـيبقى علي عزت وللأبد عدوهم اللدود الذي كان سـببًا في تحطيم أحلامهم التي كانوا يرمون إلى تحقيقها على حساب دماء وأشلاء أهل البوسنة والهرسك. فرحم الله علي عزت بيجوفيتش وأقرَّ أهل البلقان براية الإسلام على ديارهم أحرارًا أعزةً منتصرين.



أبو الحسن الندوي

”

إنّ مسؤوليّة العلماء والمفكّرين المسلمين في العصر الحديث، بعد مواجهتهم للتحدّيات المعاصرة وإثباتهم أن الإسلامَ قادرُ على قيادتها وترشيدها والسموّ بها، هي أن يفضّلوا الإسلام على كل جماعةٍ، ومؤسسةٍ، ومدرسةٍ، وطائفةٍ، وحزبٍ، ولتكون مصلحة الدين والعقيدة مفضّلةً على عمل كل مصلحةٍ حزبيَّةٍ، أو جماعيَّة

“

أبو الحسن الندوي

ما طرق الإسلام ديارَ قومٍ حتى أنبت الهمم السامقة وولّد الأعلام الباهرة، ولا شك أن ديار الهند تضج بالتاريخ الماجد للمسلمين وتتزين بسِيَر أعلامٍ نابغين حملوا مشعل التميز وهبُّوا مُغيِّرين ومؤثِّرين في شتى الميادين، ومن هؤلاء، نظرنا فرأينا الشيخَ أبا الحسن الندوي من أبرز أعلام العصر، فكان أن سلطنا الضوء على هذه العبقرية الهندية المسلمة. ومن لم يعرفه فلا شك أنه سمع بكتابه البديع، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين والذي يُعَدُّ من أروع مصنفاته والتي بلغت شهرتُها الآفاق، ولا تكاد مكتبةٌ إسلاميةٌ تخلو رفوفُها من نسخة منه.

نشأته

هو أبو الحسنِ علي بنُ فخرِ الدين، ينتهي نسبه إلى الحسنِ بن علي رضي الله عنهما. وُلِد بقرية "تكية" بمديرية "راي بريلي" في الولاية الشمالية بالهند في ٦ من المحرم ١٣٣٣هـ الموافق لـ ١٩١٤م.

وُلِد في أسرة علمٍ وفضلٍ، فقد كان والده السيد عبد الحيِّ بن فخر الدين الحسني علامة الهند ومؤرخها وصاحب المصنفات الشهيرة، منها "نُزهة الخواطر وبهجة المَسامع والنواظر" في تراجم علماء الهند وأعيانها، والذي طُبِع باسم: "الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأَعلام" في ثمانية مجلدات، و"الهند في العهد الإسلامي"، و"الثقا فة الإسلامية في الهند". وكانت والدته من السيدات الفاضلات؛ تحفظ القرآن الكريم وتتقن الشعر، مؤلفةٌ لها كتبٌ، ولكن شاء الله أن يبدأ مشواره في الحياة يتيمًا فقد تُوُفِّي والده وهو دون العاشرة فأشرفت أمه وأخوه الكبير على تربيته. ولم يُرزَق أولادًا.

استهل الشيخُ مسيرته في التعليم بحفظ القرآن الكريم، وتعلّم اللغة الأردية التي برع في آدابها وكذا الإنجليزية أما العربية فقد بدأ تعلمها أولًا على يد الشيخِ خليلِ بن محمدٍ الأنصاريِّ اليمانيِّ عام ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م وتخرَّج على يديه، كما أفاد في تعلم آدابها من عمَّيه الشيخ عزيز الرحمن، والشيخ محمد طلحة، حتى أتقنها، ثم التحق بجامعة "لكهنؤ" بالهند في القسم العربي عام ١٩٢٧م، وكان أصغرَ طُلاب الجامعةِ سِنًّا.

ثم التحق بدار العلوم لندوة العلماء عام ١٩٢٩م، ليلاقيَ كبار علماء الهند، وليحضر دروس الشريعة عليهم، ولكنه لم يكن ليرتويَ بعد؛ فالتحق بديوبند مدةَ شهورٍ، ثم سافر إلى لاهور، وقرأ تفسير القرآن على كبار علمائها، وتحققت أمنيته بلقاء الشاعر محمد إقبال الذي أحبه قبل أن يلتقيَه، فجالسه وأفاد منه، ثم عمل مدرسًا بدار العلوم لندوة العلماء في عام ١٩٣٤م.

اعتنى الشيخُ الندوي كثيرًا بتحسين لغته العربية وتوسيع ثقافته، وقد استعان على ذلك بالمواظبة على قراءة الصحف والمجلات العربية الصادرة في البلاد العربية سواءٌ تلك التي كانت تصل إلى أخيه الأكبر أو تلك التي تصل إلى دار العلوم ندوة العلماء ليصبح بعد زمنٍ من العارفين بما يحدث في البلاد العربية والمطلعين على أعمال علمائها وأدبائها ومفكريها.

مسيرته الدعوية

أولُ مقالٍ كتبه عَلَمنا كان يبلغ من العمر ١٨ عامًا، تناول فيه سيرة جده المجاهد أحمد بن عرفان شهيد الإسلام، وبعد أن أرسله إلى (مجلة المنار) المصرية التي كان يقوم عليها العلامة محمد رشيد رضا نشر المقال في أحد أعدادها الصادرة سنة (١٩٣١م)،

وفي هذا العمر المبكر بدأ العلامة الندوي الدعوة إلى الله على المنابر و بدأت الناس تعرف الندوي الخطيب، وقد كان متمكنًا في هذا الثغر.

ولإدراكه أهمية الحركة في مسيرة العلم والدعوة، رحل الندوي إلى الحجاز بضعَ مرات، وإلى مصر، والمغرب، والشام، وتركيا، وأميركا، وأروبا، وتعرف على عواصم العالم الإسلامي، فخرج من هذه الرحلات بفوائدَ جمّة. فحين نتحدث عن الإنجاز والعطاء لا يمكننا إلا أن نتذكر همة الندوي في التأليف، فقد بلغ مجموع مؤلفاته وترجماته قرابة ٧٠٠ عنوان، منها ١٧٧ عنوانًا بالعربية، وقد انتشرت مؤلفاته بلغاتٍ أجنبيةٍ فتُرجم عددًا منها إلى الإنجليزية والفرنسية والتركية والبنغالية والإندونيسية وغيرها.

وبغزارة الإنتاج هذه، اشتهر عَلَمنا، وكان له أثرٌ في الفكر الإسلامي، فقد كان صاحبَ منهجٍ نيِّرٍ لا شك أنه نتاج معرفته الجيدة بعددٍ من اللغات كالعربيَّة والأورديَّة والإنجليزيَّة والفارسيَّة التي سمحت له بتوسيع اطلاعه وثقافته التي استمدها من مصادر الحضارات غير الإسلاميَّة، فضلًا عن تعمقه في التاريخ الإسلامي، وتزينت مؤلفاتُه مقارنةً مع غيره بذلك الفهم العميق لأسرار الشريعة ناهيك عن التحليل الفذ لمشاكل العالم الإسلامي فكان كالطبيب الذي يشرِّح الجسد ويشخص المرض ويقدم العلاجات الناجعة.

وعلى هذا الدأب، كان الندوي يستفيدُ من سفره في شتى أنحاء العالم لنصرة قضايا المسلمين والدعوة للإسلام وشرح مبادئه، وإلقاء المحاضرات في الجامعات والهيئات العلمية والمؤتمرات.

مؤلفاته

اهتم الندوي بكل الأعمار، فوجَّه كتاباته للأطفال كما للكبار، ومن أشـهر كتاباته كان أوَّل كتاب بالأردية بعنوان "سيرة سيد أحمد شهيد" الذي نشره في عام (١٩٣٨م)، ونال قبولًا واسـعًا في الأوسـاط الدينية والدعوية، وألّف بعدها كتابه "مختارات من أدب العرب" في (١٩٤٠م)، ثم ألف سلسة "قصص النبيين" للأطفال في خمسةِ أجزاءٍ، وسلسلةً أخرى للأطفال باسم: "القراءة الراشدة" في ثلاثة أجزاءٍ، في الزمان ما بين ١٩٤٢ـ١٩٤٤م كما له مؤلفاتٌ كثيرةٌ منها "مذكرات سـائح في الشـرق العربي"، "ربانية لا رهبانية"، "المد والجزر في تاريخ الإسلام"، "المسلمون في الهند"، و"رجال الفكر والدعوة في الإسلام".

أما كتابه التحفة "ماذا خسـر العالم بانحطاط المسـلمين" فقد شـرع في تأليفه في عام ١٩٤٤م، وأتمه في عام١٩٤٧م، ونُشِـرت له ترجمةٌ أرديةٌ في الهند قبل رحلته الأولى للحج عام ١٩٤٧م، كما قدم لهذا الكتاب عَلَمنا سـيد قطب، وظهر فيه عَلَمنا بشـخصـية العالِم والمؤرخ والمصلح والداعية.

لقد كان أبو الحسن يواكب أحداث أمته وله رسائلُ في عددٍ من المناسبات وفي عددٍ من المحطات نذكر منها رسالته الأولى التي انتشرت في الحجاز عند رحلته الأولى، بعنوان: "إلى مُمثِّلي البلاد الإسـلامية" التي أصـدرها في عام ١٩٤٧م، وجَّهها إلى المندوبين المسـلمين والعرب المشـاركين في المؤتمر الآسـيوي المنعقد في دلهي بدعوةٍ من رئيس وزراء الهند آنذاك جواهر لال نهرو.

نشاطه العلمي

كما كان له قدمُ سَبقٍ في صياغة مناهج الطلبة، وذلك بو ضعه منهاجًا لطلبة الليسانس في التعليم الديني أسماه "إسلاميات" بناءً على طلبٍ من الجامعة الإسلامية في على كره (A.M.U.) الهند في عام ١٩٤٢م.

ناهيك عن نشاطاته العديدة في إلقاء المحاضرات في الجماعات الهندية، وغير الهندية فقد دُعِي أستاذًا زائِرًا في جامعة دمشق سنة ١٩٥٦م، ليلقي محاضراته الشيقة بعنوان: "التجديد والمجدّدون في تاريخ الفكر الإسلامي"، والتي ضمها كتابه الكبير "رجال الفكر والدعوة في الإسلام" المكون من أربعة أجزاءٍ، كما ألقى محاضراتٍ في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ١٩٦٣م، إجابةً لدعوةٍ من نائب رئيسها آنذاك الشيخِ عبد العزيزِ بن بازٍّ رحمه اللّه والتي طُبِعت بعنوان: "النبوة والأنبياء في ضوء القرآن".

ولأنه كان محل ثقة العلماء والدعاة في العالم الإسلامي، دعته الرياض في سنة ١٩٦٨م؛ للمشاركة في دراسة خطَّة كلية الشريعة، وهناك ألقى عددًا من المحاضرات في جامعة الرياض وفي كلية المعلِّمين، والتي ضُمَّ بعضُها إلى كتابه: "نحو التربية الإسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الإسلامية". تأثر أبو الحسن الندوي بشيخه عبد القادر الرائي فوري، وبفكر الإمام أحمد بن حنبل، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وأحمد بن عبد الأحد السرهندي، وشاه ولي الله الدهلوي، في حين يبقى الشيخ محمد إلياس من أكثر أساتذته تأثيرًا فيه.

مواقفه تعكس عبقريته الفذَّة

وترتكز العبقرية الفكرية للندوي على أن الإسلام لابد أن يتولى الزمام لإنقاذ المسلمين والعالم، وكان ذلك نتيجة الأحداث التي عاصرها وعلى رأسها سقوط الخلافة، ذلك أن

الحل الوحيد لهذا العالم يكمن في تحوّل قيادة العالم إلى أيدٍ مؤمنةٍ بقيم الإنسانيَّة، وكان عَلَمنا يخاطب العرب تحديدًا لأنه يرى فيهم الاستعداد الروحي والمعنوي والمادي لقيادة العالم الإسلامي، ومن ثم العالم أجمع.

كما ارتكز فكره الإصلاحي على مكافحة الغزو الفكري، وبثِّ روح الاعتزاز بالإسلام في المسلمين، ومقاومة الردَّة وآثارها، ومن أبرز تأمّلاته في هذا الاتجاه في سبيل التغيير للأحسن تَعَجُّبه من المسلمين الذين اطمأنّوا لتدريس أبنائهم في المؤسسات العلميَّة الغربيَّة مستأمنين الغرب الذي يهدف لطمس الهوية الإسلامية على فلذات أكبادهم، كما شدد على أهمية ربط العلم بالتربية، ومراقبة مصادر العلم التي يتلقى منها شباب المسلمين معارفهم، كما رأى أهمية توحيد التعليم في الجامعات الإسلامية كافةً.

و سلط الندوي أيضًا الاهتمام على واجب العلماء والطبقة المثقفة في مقالٍ نُشِرَ بمجلَّة البعث الإسلامي قائلًا: "إنّ مسؤوليَّة العلماء والمفكّرين المسلمين في العصر الحديث، بعد مواجهتهم للتحدّيات المعاصرة وإثباتهم أن الإسلامَ قادرُ على قيادتها وترشيدها والسموّ بها، هي أن يفضّلوا الإسلام على كل جماعةٍ، ومؤسّسةٍ، ومدرسةٍ، وطائفةٍ، وحزبٍ، ولتكون مصلحة الدين والعقيدة مفضّلةً على عمل كل مصلحةٍ حزبيَّةٍ، أو جماعيَّة".

جوائز وتكريمات

تميزت حياة الندوي بنشاطٍ دؤوبٍ وعملٍ متواصلٍ، لا يكاد عَلَمنا يهدأُ ولا يستريح، فمن يتأمل في إنجازاته خلال مسيرته يتعجب من تلك الهمة المنهمرة والإصرار اللامتناهي على العمل والجِد والبذل.

فقد بدأ الندوي رحلاتِه الدعوية عام ١٩٣٩م في الهند، وأسس مركزًا للتعليم الإسلامي عام ١٩٤٣م، ثم اختير عضوًا في المجلس الانتظامي لندوة العلماء عام ١٩٤٨م، ثم أسس حركة رسالة الإنسانية عام ١٩٥١م، والمجمع الإسلامي العلمي عام ١٩٥٩م، في لكنهؤ بالهند، واختير أمينًا عامًا لندوة العلماء عام ١٩٦١م التي ظل فيها حتى وفاته، وأدار الجلسة الأولى لتأسيس رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة عام ١٩٦٢م. واختير عضوًا في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منذ تأسيسها عام ١٩٦٢م، كما دعا إلى تأسيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية عام ١٩٨٤م، واختير أولَ رئيسٍ لها عام ١٩٨٦م.

كلُّ هذا الرصيد من الأعمال نُضيف إليه حصوله على عضويةِ كثيرٍ من الهيئات والمؤسسات الدَّعَوية العلمية والعالمية كرابطة الجامعات الإسلامية منذ تأسيسها، والمجمع العلمي بدمشق، ومجمع اللغة العربية الأردني عام ١٩٨٠م، والمجمع المَلَكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) بالأردن عام ١٩٨٣م.

كما مُنِح درجة الدكتوراة الفخرية في الآداب من جامعة كشمير عام ١٩٨١م، واختير رئيسًا لمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية عام ١٩٩٣م، وبعد وفاته صار في المعهد درجة زمالة (أبو الحسن الندوي)، وممن مُنِح هذه الزمالة أ. د. وهبة الزحيلي عام ٢٠٠٠م.

وذلك عدا عضويته في كثيرٍ من الجامعات الإسلامية، والمنظمات الدعوية، ولجان التعليم والتربية.

وكان لمثل هذا السَّبْق والتفاني جوائزُ وتكريماتٌ فقد مُنِح الشيخُ جائزةَ الملكِ فيصلٍ العالمية لخدمة الإسلام، سنة (١٤٠٠هـ-١٩٨٠م). ومنحته إمارةُ دبي جائزة شخصية العام الإسلامية لعام ١٤١٩هـ، في دورتها الثانية، ومنحه معهد الدراسات الموضوعية بالهند

جائزة الإمام ولي الله الدهلوي لعام ١٩٩٩م ـــــوالتي مُنِحت لأول مرةٍ-وكان قد تَقرَّر اختياره لهذه الجائزة في حياته ولكن وافته المنية قبل الإعلان الرسمي، فاستلم هذه الجائزة باسمه ابن أخته الشيخُ محمدٌ الرابعُ الحسنيُّ النَّدْويُّ في دلهي في ٧ من شعبان ١٤٢١هـ نوفمبر ٢٠٠٠م).

كما منحته المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو ISESCO) - تقديرًا لعطائه العلمي المتميز وإكبارًا للخدمات الجليلة التي قدمها إلى الثقافة العربية الإسلامية-وسام الإيسيسكو من الدرجة الأولى. وقد استلم هذا الوسام نيابةً عنه الدكتور عبد الله عباس النَّدْوي في الرباط في ٢٥ من شعبان ١٤٢١هـ. إضافةً لمنحه جائزة السلطان حسن بلقية العالمية في موضوع "سِيَر أعلام الفكر الإسلامي" من مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية عام ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

وفي المقابل كان الشيخ الندوي يرفض المكافآت المالية التي تُعطى له مقابل جهوده من ذلك قصته في سوريا، حين استُدعي أستاذًا زائرًا لجامعة دمشق، ولكلية الشريعة فيها خاصَّةً، في عهد عميدها الداعية الفقيه الدكتور مصطفى السباعي، فما إن صرفت له الجماعة مكافأةً كما جرت العادة مع غيره من الأساتذة والمحاضِرين، حتى ردَّها، فحُوِّلَت للطلاب الفقراء.

شهادات في حقه

كتب عنه الشيخُ الغزاليُّ في مذكراته، قائلًا: "إن رسائل الندوي هي التي لفتت النظر إلى موقفِ ربعيٍّ بنِ عامرٍ رضي الله عنه بين رستم قائد الفرس وكلماته البليغة له. أبو الحسن الندوي-فيما أعلم-هو أول من نبهنا إلى قيمة هذا الموقف وهذه الكلمات، ثم تناقلها الكاتبون بعد ذلك وانتشرت".

وقال عنه الشـيخ محمد الغزالي: "هذا الإسـلام لا يخدمه إلا نفسٌ شـاعرةٌ مُحلِّقَة، أما النفوس البليدة المطموسـة فلا حظَّ لها فيه. لقد وجدنا في رسـائل الشـيخ الندوي لغةً جديدةً، وروحًا جديدةً، والتفاتًا إلى أشياءٍ لم نكن نلتفت إليها".

وصفه الشيخُ على الطنطاوي لمَّا زاره سنة (١٣٧٣هـــــ١٩٥٤م) في لكهنؤ فقال: "وجدته في الأحوال كلّها، مستقيمًا على الحق، عاملاً لله، زاهدًا حقيقيًّا زُهدَ العالِم العارف بالدنيا وأهلها".

ووصفه الدكتور ليثٌ القيسي بأنّه رمزٌ بارزٌ من رموز الدعوة الإسلاميَّة، ومَعْلَمٌ ظاهرٌ في الحقبة التاريخيَّة التي عاشـها، وطاقةٌ فعّالةٌ وجذوةٌ لم تنطفئ، قضـاها كاتبًا ومحاضِـرًا ومشـاركًا في الندوات والمؤتمرات؛ وتحدّث القيسـي عن جهوده في خدمة السـيرة النبويَّة فأشـار إلى أنّ جهود الندوي في السـيرة لا تُفهَم إلاّ من خلالِ خلفيَّةٍ تاريخيَّةٍ ميّزت كتاباتِه وتزامنت مع طبيعة التحوّلات الفكريَّة السـياسـيَّة التي مرَّت بها الأمَّة الإسـلاميَّة خلال القرن العشـرين الذي عَلَت فيه الفكرة الغربيَّة في صـراعها مع الفكرة الإسلاميَّة، وشخَّص العلَّة وبيّن ما خسره العالم بتراجع المسلمين عن القيادة إلى التبعيَّة ثقافيًّا وفكريًّا وسـياسـيًّا، وانطلق إلى طرح قضـايا الأمَّة معالِجًا لها من خلال توظيف السـيرة توظيفًا فعّالًا، وكان منطلقه من (الطريق إلى السُـنَّة) وثمرته كتاب (السـيرة النبويَّة) الذي ضمّنه منهجًا خاصًا في كتابة السيرة؛ أمّا منهجُه في كتابة السيرة فينطلق من خلال البعد التاريخي، والبعد الحضـاري، والبعد الإنسـاني، والبعد الدعوي والتربوي، والبعد العقائدي، والتكامليَّة بين العلوم.

وقال الدكتور مصطفى السباعي: "الندوي. ذخرٌ للإسلام ودعوته، وكُتُبه ومؤلفاتُه تتميز بالدقة العلمية وبالغوص العميق في تفهُّم أسـرار الشـريعة وبالتحليل الدقيق لمشـاكل العالم الإسلامي ووسائل معالجتها".

وقال سـيد قطب: "الندوي. رجلٌ عرفته في شـخصـيته وفي قلمه، فعرفت فيه القلب المسـلم، والعقل المسـلم، وعرفت فيه الرجل الذي يعيش بالإسـلام وللإسـلام على فقهٍ جيِّدٍ للإسلام. هذه شهادة لله أؤديها".

وقال عنه شيخ الجامع الأزهر عبد الحليمِ محمود: "أخلص أبو الحسن الندوي وجهَه لله تعالى، وسار في حياته سيرةَ المسلم المخلص لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فدعا إلى الإسـلام بالقدوة الحسـنة، ودعا إلى الإسـلام بكتبه النقية، ودعا إلى الإسـلام بسياحته التي حاضرَ فيها، وَوجَّه وأرشد، فجزاه الله خير ما يجزي عالمًا عن دينه".

وهل بعدَ شـهادة هؤلاء الأعلام من تعليق! فقد جمعَتْ وصـفًا كاملًا لما قدمه الإمام الندوي للأمة المسلمة، وشهادةً للهِ ثم للتاريخ عن الأمانة التي تميز بها عَلَمنا وكذا حُسن العطاء والسَّبق.

ولا شك أن عبقريةً من عبقرية الندوي لقِيَتْ اهتمامًا كبيرًا من الباحثين والدارسين، فقد كان محط اهتمام الشـيخ الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشـي، والشـيخ حيدر حسـن خان، والشـيخ حسـين أحمد المدني، والشـيخ عبد القادر الراي وهو المربي الروحي للندوي.

كما كتب عن الندوي كثيرون؛ ومنهم د. مصـطفى السـباعي، وسـيد قطب، وعليّ الطنطاوي، ومحمد المجذوب. وتسابق غيرهم أيضًا في الكتابة عنه.

وفاته

تُوُفِّيَ أبو الحسن الندوي في ٢٣ من رمضان ١٤٢٠هـ- ٣١ من ديسمبر ١٩٩٩م، بعد ٨٦ عامًا. وتحديدًا في العشر الأواخر من رمضان، وفي يوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع، وقبل صلاة الجمعة أفضل الساعات، وقد توضأ واستعد للصلاة، وشرع يقرأ سورة الكهف كما تعوّد كلَّ جمعةٍ، فوافاه أجله على أفضل حال. خلال اعتكافه بمسجد قريته (تكية) بمديرية (راي باريلي) في شمال الهند وجرى دفنه مساء ذات اليوم، في مقبرة أسرته بالقرية وقد توالت التعازي من شتى أنحاء الهند والعالم، وأُقِيمت عليه صلاةُ الغائب في شتى المناطق. فرحم الله هذا العملاق ونفعَ بإرثه.

أحمد بن محمد عرفان

”

إنني لأرجو أن الله يهدي في هذه الرحلة مئات الآلاف من الناس، ويخرج آلاف من الذين غاصوا في مستنقع الشرك والبدع والجهالة إلى أذقانهم، وجهلوا شعائر الإسلام جهلاً عميقًا فيعودون بإذن الله موحدين مؤمنين متقين.

“

أحمد بن محمد عرفان

كثيرةٌ هي نماذج النجاح في سِيَر أعلام الإسلام، وعديدةٌ هي مضارب الأمثال لأصحاب الهمة والعطاء، وما يزيد الإعجابَ تلك العبقريةُ التي تتجلى في شخصية المسلم بغض النظر عن أصــله أو بلده، فقط يكفي أن يســتقيَ من ماء حياة الإســلام، ليزدهرَ ويُثمِرَ وينفع أمته، وفي الهند، تلك الأرض التاريخية الحضــارية العريقة، تنافســت همم المســلمين في تســطير أروع السِّــيَر المعتزة بدينها، وكان منها الســيد أحمد بن محمد عرفان الهندي.

نشأته

ولد عَلَمنا في صَفَرٍ سنة ١٢٠١ هـ الموافق سبتمبر ١٧٨٦ م في قريةٍ من قرى "راي بريلي" وتُعرَف الآن باسم "تكية".

هناك في تلك القرية الهندية الطيبة، نشــأ أحمد عرفان في كنفِ أســرةٍ مســلمةٍ تحرص على تعليم أبنائها، فالتحق وهو لا يزال في ســن الرابعة من عمره، بالكُتَّاب، فشــرع في التعلم والدراسة، ولكن هواية عَلَمنا كانت أمرًا آخرَ غير ساعات التعلم الطويلة والإنصات المستمرة، فقد و صفه الأستاذ محمد عبده أنه كان مولعًا بالفرو سية والألعاب الريا ضية منذ صــباه، بل حتى وهو في ســنٍّ شــابةٍ، كان يتوق لحمل الســلاح والجهاد، فذاتَ مرّةٍ نشب صراعٌ بين المسلمين والهنادك في قريةٍ مجاورة. فقام يستأذن أمه للجهاد والقتال؛ فأذِنَت له بذلك لكنه ما إن وصل إلى تلك القرية حتى انتهت الحرب. شَغَفُ أحمد عرفان بالجهاد لم يُغنِه عن شغفه بالذكر والنوافل، حتى وُ صِف أنه كان من النُّسَّاك المتعبد ين، وهذا مذ كان شابًا صغيرًا.

مسيرته الجهادية

وما إن بلغ أحمد عرفان أَشُــده حتى فارق والدُه الحياة، فقرر الســفر برفقة جماعةٍ من أقربائه إلى لكهنؤ باحثًا عن عمل ليتحمل مســؤولية إعالة أســرته، وشــاء اللّٰه أن يلتقيَ خلال ســفره عند مدينة دلهي بالعالِم عبد العزيز الدهلوي فأُعجِب به وقرر التتلمذ على يديه.

القتال ضد الإنجليز

وبعد أن تلقى منه علوم الدين قفل راجعًا إلى بلدته ووطنه "راي بريلي" وأقام فيه نحوًا من عامين ولكن لم يرضَ لنفســه عيشــةً يتحكم فيها المحتل بهم ويســتعبد هم وينهب ثرواتهم وفي ذات الوقت شُــغِف حبًا بالجهاد وتاقت نفســه لمراتب الشــهادة؛ فغادر بلدته مهاجرًا إلى نواب أمير خان (حاكم ولاية تونك) فالتحق بمعســكره وأعد نفسه، ليصبح بعدها ساعدًا قويًا للأمير خان، وكان آنذاك قد أعلن القتال ضد الإنجليز، وكانت دارت بينه وبين الإنجليز وبعض القبائل معاركُ عديدةٌ.

أقام عنده ستَّ سنين يدرب الجيش ويشير على الأمير بتدابير الحرب ومصالح القتال. ولكن حين قامت بين الإنجليز والأمير خان مصــالحةٌ رُغمَ رفض عَلَمنا لها وتحذيره أميره منها، إلا أن البريطانيين تمكنوا في النهاية من احتلال الولاية والســيطرة على الحكم. فســاءه ذلك وقرر الرجوع إلى دلهي فعمل على نشــر السُّـنة والطريقة الســلفية، فلاقى قبول الناس الذين التفوا حوله، كمربٍّ ومعلم، أثر في قلوبهم وقضــى قابل أيامه متجولًا في مدنٍ كثيرةٍ ومتفقدًا أحوال الناس وعباداتهم، فيوجِّهُهم لِما فيه صــلاحُ دينهم وأخراهم.

قال عنه العلامة صديق حسن خان (١٣٠٧هـ): "كان السيد أحمد الشهيد آيةً من آيات الله في هداية الخَلق، وقد طهَّرت مواعظ خلفائه وخطبهم أرض الهند من الشرك والبدع. "

البنجاب مركزًا للجهاد

اجتمعت كل الأســباب التي كانت تغذي في روح أحمد عرفان الرغبة في إعلان الجهاد وتحريض الناس على قتال الغزاة والمعتدين، ومن بين هذه الأسـباب كانت قصــة اضــطهاد مســلمي البنجاب من طرف السّــيخ الذين كانوا ينالونهم بألوان الأذى والظلم وهتك الحرمات. لقد وَقَرت هذه القضــية في قلب الشــيخ وأرَّقَت نومه ولم يزل يحث على الإعداد للجهاد. وإثارة همم الناس لنصــرة إخوانهم، وشــحنهم بمواعظ البذل والتضحية والفداء. منتهِزًا رحلة الحجّ الشهيرة التي قام بها عام ١٢٣٨ والتي مكّنته من ملاقاة الكثير من المســلمين في طول الهند وعرضــها وتجميع الكثير من الأنصــار والمجاهدين.

كان وضــع المســلمين ضــعيفًا وكان عَلَمُنا يدرك تمامًا أن التجييش والتحريض لابد أن يكتمل بإعداد قوةٍ للدفاع عن هذه الأرواح المسلمة وأراضيها ومحارمها؛ فأعلن البنجاب مركزًا للجهاد، لما راعه من جرائمَ بحق المسلمين فيها على أيدي السيخ المجوس.

وكانت ســنة ١٢٤١ هــــ تاريخَ انطلاقِ الســيد أحمد الذي ودع محبيه وأخلاءه وتوجه مهاجرًا في سبيل الله برفقة حشدٍ من المجاهدين و سانده في دعواه الشيخ إسماعيل الدهلوي فلاقت قافلتهم خيرَ اســتجابةٍ من الناس وتســابق الآباء والأبناء يحدُوهُمُ الشوقُ للجهاد في سبيل الله.

كان لابد من عبقريةٍ تقود عَلَمنا لتحقيق خطِّه وأهدافه، وقد عزم الشـــيخ أن يهاجر في منطقة نفود البريطانيين ويســـتعين بالقبائل الأفغانية وأهل البنجاب التي يتمتع أهلها بالأَنَفةِ والفروسية ومن هناك يزحف على الهند التي أصبحت مطيةً للإنجليز.

أفغانستان

وبهذا التخطيط اتجه موكب الجهاد غربًا باتجاه السند، ثم بلوشستان فأفغانستان وقد لاقَوا في الطريق أهوالًا ومشـاقَّ تغلبوا عليها بإيمانهم وصـبرهم وحين وطأت أقدامهم أرض قندهار وكابل اســتُقبلوا بحفاوةٍ شـــديدةٍ، ودعا أمراءُ الأفغان لتوحيد الصـــف الإسـلامي لمقاومة البريطانيين ثم توجه الشـيخ إلى بيشـاور ثم إلى نوشـهرة فاسـتقر هناك وأسـس أولَ معسـكرٍ للمجاهدين عام ١٢٤٢هـــ، ١٨٢٦م ومن هذا المعسـكر أرسـل الرســـائل لزعماء القبائل يدعوهم فيها إلى الالتزام بأحكام الشـــريعة والمســـاعدة على إقامة فريضة الجهاد وأرسل إلى حاكم بنجاب السيخي (رنجيت سنغ) يدعوهم للإسلام ولكنه قابل هذه الدعوة بسخرية، وظن أنه شيخٌ له أطماعٌ دنيوية.

اســـتجاب لدعوة الشـــيخِ أحمدَ كثيرٌ من الناس والأمراء وجاءه المتطوعون في الهند وفيهم كبار العلماء، وفي يوم الخميس ١٢ جمادى الآخرة سـنة ١٢٤٢ هــــ اجتمع العلماء والأمراء ورؤســـاء القبائل وبايعوا الشـــيخَ أحمد بن عرفان على الســـمع والطاعة في المعروف واختاروه أميرًا لهم وذاق الناس حلاوة الحكم الإســلامي، فانتشــر الأمن وعم الرخاء وســـاد الإخاء، فقد نُصِـــب في كل قرية قاضٍ ومُفتٍ وصـــاحبُ حســـبةٍ، وجباةٌ يجمعون الزكاة، وأُزيلت المنكراتُ والعاداتُ الجاهلية، وأرسـل الأمير السـرايا والجيوش للأماكن القريبة، وانتصر على السيخ في معركة (أكورة) بالقرب من بشاور، وبثَّ الدعاة للوعظ والإرشاد والدعوة للجهاد.

وفي هذه الأثناء أَهَمَّ بريطانيا وأقلقَها حركةُ المجاهد الإمام أحمد بن عرفان وقدرته على إلهاب شعلة الجهاد والفداء، وبثِّ روح النخوة الإسلامية في صدور المسلمين، وإكثار التفاف آلاف المسلمين حول دعوته.

طرده من قِبَل الحكام العملاء

ولا شك أن البريطانيين حاولوا وقف هذه الحركة القوية التي أرَّقت نومهم، فاستغلوا الحكام التابعين لهم الذين لا همَّ لهم إلا البقاء في الحكم وذلك لإيقاف هذه الحركة عن طريق الإغراءات بالمال أو الولايات، وحاول حاكم بنجاب مُلايَنَةَ الشيخ أحمد فأرسل له الهدايا وأطمعه بإمارةٍ مستقلةٍ ولكنْ كلُّ هذه الإغراءات بقيَتْ دون أدنى استجابة من عَلَمنا.

لكن أمراء بيشاور الذين لم يكن يهمهم إلا بقاؤهم في الحكم وبقاء صلتهم الودية مع ملك البنجاب قائمةً، رغم انتصار معسكر الجهاد وفتح بيشاور، وسعادة الناس بإقامة شرع الله، إلا أن العاداتِ الجاهلية غلَبَتْ على أهواء زعماء القبائل فضَحُّوا لأجلها بالعدالة الإسلامية، فضلًا عن رغبة حكام بيشاور من أمراء الأفغان البقاء على ظلمهم وعدوانهم، فشرعوا في التآمر لقتل القضاة والعلماء والدعاة الذين استعملهم الشيخ أحمد بن عرفان هذا دون أن ننسى نجاح الإنجليز في شراء ذمم بعض المشايخ الذين هاجموا الشيخ أحمد بن عرفان بتهمة أنه (وهابي) بزعمهم، فكانت نتيجة كل هذه الأسباب مجتمعةً معًا، جرحًا عميقًا لم يندمل وفشل مشروع استقرار قافلة الجهاد في تلك الأرض، فأمر أمير الجهاد أحمد بن عرفان بمغادرة هذه البلاد.

استشهاده-نحسبه كذلك-

اتجاه بجيشه وإخوانه إلى كشمير، وبينما هو يمر بقريةٍ جبليةٍ اسمها بلاكوت قرر القائد الملهَم أن يقود معركةً فاصلةً مع دولة لاهور التي آذت المسلمين كثيرًا، وأحكم خطته لمهاجمة السيخ فنظَّم جيشَه ووزع فرق الجهاد واستعد للمعركة، وما إن جهز الجيش حتى أقبل يناجي ربه ويبتهلُ ويدعوه دعاءً طويلًا تأسيًا بسيرة رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم وعملًا بوصية خليفته عمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه.

طلب الشيخُ أحمدُ من الناس التوبة والاستغفار ثم لبس لباس الحرب وفي صباح يوم ٢٤ من ذي القعدة ١٢٤٦هـ صلى السيدُ بالناس إمامًا للمصلين، ثم نزل إلى الميدان إمامًا للمجاهدين الذين تقدموا بشجاعةٍ وإيمانٍ لم تُرعبهم القنابل المنهمرة عليهم فمالت كفة المعركة في البداية لصالحهم، إلا أن الخيانة أبَت إلا أن تقطع عليهم طريق النصر، فقد جاء رجلٌ ممن كانوا يحرسون الطريق إلى قائد جيش العدو. وأفضى إليه سرّ الطريق بغايةٍ من التفصيل. فاندفع "شير سنغ" ورجالُه بغيظٍ وعزيمةٍ على المسلمين. وهاجموا حراس الطريق واستولَوا على الممر وحرَصَ على نشر جيشه الكبير في خبايا الجبل وطرقه.

ليتفاجأ المجاهدون بحجم الخيانة، وما كان من خيارٍ أمام الإمام أحمد إلا المواجهة والاستعداد للنصر أو الشهادة، ولأن العدو كان مخادِعًا مباغِتًا ومنظَّمًا تنظيمًا جيدًا، تمكن من رقاب المسلمين، فاستشهد عددٌ كبير منهم واستشهد إمامهم أحمد بن عرفان ورفيقه الشيخ إسماعيل الدهلوي. وهكذا شهد التاريخ نهاية قصةِ جهادٍ عظيمٍ ودعوةٍ ماجدةٍ، في (بلاكوت) كان توقيعها بالدماء، وإن لم يُكتَب لها النجاح فإن العبرة بالثبات على الطريق الصحيح وملاقاة رب العالمين وقد أُعذروا.

وفي الواقع فإن سيرة أحمد بن عرفان ورفاقه انتصارٌ عظيمٌ وأثرٌ كبيرٌ لا يُستهان به في صفحات أمجاد المسلمين في الهند، ففي هذه المرحلة من تاريخ الهند كانت بريطانيا قد غزت البلاد وأقامت معسكراتها ونشرت قواتها وبدأت بنهب الثروات واستعباد العباد، ولتحصين تجذُّرها في عمق البلاد، أقامت صداقاتٍ مع دولة المغول الإسلامية في الهند، ذلك أنها كانت غيرَ قادرةٍ على مواجهة قوة دولة المغول واستعانت من جهةٍ أخرى بتوطيد علاقاتها مع الأقليات غير المسلمة في الهند كالسيخ وغيرهم في ذات الوقت الذي تعمل فيه على إضعاف الدولة المغولية حتى تقهقرت الأخيرة وتلاشت قوتها و سقطت، فكانت الهند خالصةً للاحتلال البريطاني، واطمأن الساسة البريطانيون لمستعمرتهم الجديدة ولم يضعوا في الحسبان جهاد الأُباة ولا ثورة المسلمين عليهم.

وبهذا الجهاد الذي أقامته سواعد أحمد بن عرفان وجُنده تعلم الناس أن الجهاد فرضُ عينٍ أمام الغزاة، وأن المقاومة عزٌّ وشرفٌ وموت الجهاد خيرٌ من كل حياة.

نعم قد أمضى عَلَمنا حياته محاربًا في جبهة الإ سلام مجاهدًا في سبيل الله، وكان لهذا العطاء والبذل والتضحية أثرٌ بلا شك، وقد قالوا عن حركته: "كان تأثير حركة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد عامًا وشاملًا، ظهر في مكافحة الغزو الاستعماري، ومواجهة الفتن، ومعالجة التحديات الفكرية، وتربية الجيل الناشئ."

وكإمامٍ للمجاهدين أُلهِمت روحُه ذلك الكَلِم الرائع والمواعظ الخالدة، التي خرجت من نبع الحقيقة وصِدق السريرة والإخلاص كما نحسبه، ودعونا نختم هذه الصفحات الماجدة من العزة والإباء بموقف سجله التاريخ بافتخارٍ لعَلَمنا الشهيد:

بعد أن لامس المستعمر البريطاني درجة تأثير فريضة الحج في نفوس المسلمين بدأ يتفرس في الطرق التي يُحرَم فيها المسلمون هذا النور، وقد فطن له عَلَمنا، وللتصدي

لمَكْرِه الكبير، دعا أحمدُ بن عرفان الناس إلى الحج وتكفل بنفسه بنفقات من لا يملك مالًا، ثم قام فيهم خطيبًا قائلًا:

إخواني إنكم هجرتم أوطانكم ومنازلكم لتسعَدوا بالحج والعمرة ابتغاءَ رضوان اللّٰه فيلزَمُكم: أن تكونوا إخوةً متحابين كأنكم أشقاءُ، أبوكم واحدٌ، وأمُّكم واحدةٌ، ويحبُّ أحدكم لأخيه ما يحبُّ لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه"..."ولْيشارِكْ كلُّ واحدٍ صاحبه فيما يشتغل به، ولا يستنكفْ عن خدمته بل يعدُّ ذلك شرفًا وفخرًا"..."فإذا رأى الناس فيكم هذه الأخلاق حرصوا على صحبتكم ومرافقتكم وقالوا: هؤلاء من طرازٍ خاصٍ، ونوعٍ فريدٍ، ففاز هؤلاء القوم وحَسُنَ أولئك رفيقًا".

ثم قال: "إنني لأرجو أن يهدي اللّٰهُ في هذه الرحلة مئاتِ آلافٍ من الناس، ويخرجَ آلافٌ من الذين غاصوا في مستنقع الشرك والبدع والجهالة إلى أذقانهم وجهلوا شعائر الإسلام جهلًا عميقًا فيعودون بإذن اللّٰه موحِّدين مؤمنين متقين".

الخاتمة

لقد انتقينا خمسًا وعشرين سيرةً مُلهِمةً من أشهر أعلام المسلمين في العصر الحديث من شتى الأمصار والبلدان، ما جمعناها إلا لنقدم الدليل الدامغ على أن العبقرية تنشأ في أي وسطٍ كان مهما بلغ التحدي فيه من مبلغٍ ومهما واجهت صاحبها من مُعيقاتٍ وقُوًى هدَّامةٍ معاديةٍ، ولولا قوةُ الإيمان وروعةُ الإسلام لما حقق أعلامنا شيئًا من جهودهم التي بارك الله فيها فبِتْنا نرى آثارها إلى يومنا هذا.

لقد كان من بين أعلامنا السليمُ والمعاقُ، الصحيحُ والمريضُ، البصير والضرير، الحر والأسير، الغني والفقير، المفكر والمجاهد، العالم والقائد، العربي والأعجمي، كلُّهم جميعًا عملوا لمجد أمتهم ونصرة دينهم وحرية شعوبهم!

والأعجب من ذلك أن عبقرياتِهم كلَّها استقت من مَعينٍ واحدٍ ومن تاريخِ عزةٍ واحد! ذلك أنها أمةٌ واحدةٌ، لن تعود إلا بِطريق التضحيات والبذل والمسابقة في سبيلِ الله لا سبيلِ الذات، في كل سيرةٍ عبرةٌ ومَثَلٌ، في كل قصةٍ ألمٌ وأملٌ، في كلٍّ منها نفسٌ بشريةٌ جاهدت وكابدت في سبيل الله، بما تحمله من قصورٍ وضعفٍ وهَفَواتٍ وسقطاتٍ، إلا أنها قدمت خيرَ نموذجٍ للبشر، كيف تنتصر النفوس التي حملت لواء العقيدة والمبادئ السامية، كيف تُخَطُّ سِيَرُ الأعلام الماجدة، كيف تكون عطاءات المسلمين الباهرة.

فاللهم قيِّضْ لهذه الأمة الأعلام المخلصين الأوفياء الذين يرفعونها من قعر الضعف إلى قمة الحرية والقوة. قال القاضي عياضٌ عن بعض مشايخه:

"ما لكم تأخذون العلم عنا وتستفيدون منا، ثم تذكروننا فلا تترحمون علينا".

فرحم الله من رحل منهم وأيّد من بقي منهم. والحمد لله رب العالمين وصـــلى الله على إمام الأعلام والمسلمين سيدِنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليمًا كثيرًا.

د. ليلى حمدان